

غالب طحشقورت خورمان

الاعمال الكاملة

١
النخلة
والحيران



الخطبة الحزبية

الأمم سال الكاسلة

الأعمال الكاملة ١

الكتاب النخلة والجيران

الناشر دار الفارابي / دار بابل

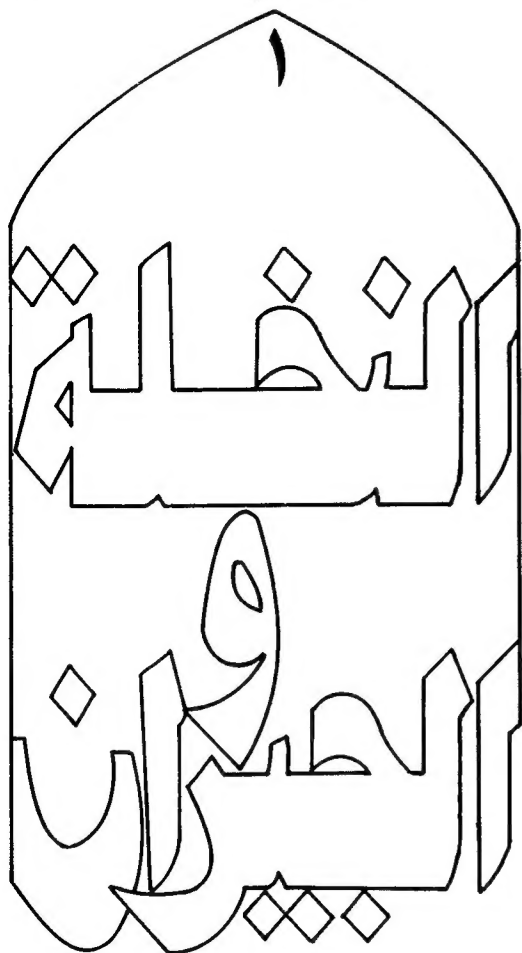
الطبعة الأولى ١٩٨٨

تصميم الغلاف يحيى الشيخ / انتشار كاظم

حقوق الطبع محفوظة للنashرين

غالب طه تحت خروان

الاعمال الكاملة



الى ذكرى أبي . . .

غائب

رواية عن الأمس . . رواية عن اليوم

بعد سنين طويلة تجد «النخلة والجيران» طبعة جديدة. لكن مصير هذه الرواية مرآة صقيلة لمصير كل ما لا يأتلف مع عصر التفكك الذي نعيش. فقد ظهرت الرواية، وارتفع صوتها، وعرفها القارئ العراقي، وسمع بها قارئ عربي. لكن هذا لم يمنع عنها شيئاً قريباً من الحصار، فظلت الرواية حاضرة باسمها، غائبة عن قارئ هنا وقارئ هناك، حتى ظن القارئ الوطني أن «النخلة والجيران» شاركت كاتبها مفاء البعيد، مثلما ظن، وظنه صادق، ان الكتابة النقدية المسيطرة، ومعاييرها انتقاء، تضاعف نفى الرواية، فلا تذكرها الا صدقة أو في هامش الكلام. لا تبحث «النخلة والجيران» عن شهادة كاتب أو صك غفران، فما هي جذرية به يقوم في سطورها، وسطورها لا تستعير المديح. تحتل هذه الرواية موقعاً ريادياً في الرواية العراقية. ومكاناً طليعياً في الرواية العربية، وهي احدى الروايات القليلة، الجديرة بصفة الواقعية، على الرغم من انتشار هذه الصفة في الامس واليوم. فكان رواية غائب كانت علامة في مسار الرواية العراقية بقدر ما كانت علامة في تطور الرواية العربية الباحثة عن الواقع.

رسم الرواية مصائر مجموعة بشرية بائسة تعيش على هامش التاريخ. فيوازي رأبها التاريخ ولا يتقاطع معه، يعيش فيه ولا يعيش معه، فيتكون الوعي في التاريخ ولا يفعل في التاريخ، ويكون مصيره مأساوياً. تأخذ المأساة وجهاً مضاعفاً في مصائر بشر «النخلة والجيران»، ويكون بؤس الوعي هو الوجه الاول، ويظهر وجه المأساة الثاني في استقالة صاحب الوعي من كل فعل صحيح، ومن كل مواجهة تعيد صياغة الوعي والتاريخ. لا يعرف الوعي البائس هزيمة جزئية في معركته مع العالم الذي يعيش، بل يعيش الهزيمة الكلية في هروبه الكامل من كل معركة جزئية أو كاملة.

تفتتح الرواية على «سليمة الخبازة»، امرأة من تعب وحزن وحرمان، وتلتقط تفاصيلها المقهورة، فالجفن غليظ والعين كليلية، أكلت منهما نيران الموقد شيئاً، والثوب اسود سميك، وغبار الايام ينفش العين والشوب وجدران الغرفة الحائلة. وكي تؤكد الرواية ملامح المرأة، تضع الى جانبها نخلة، عاقر هي وقميثة، فتكون النخلة مرآة لمن يقف الى جانبها بقدر ما تكون المرأة التعبة مرآة لنخلة عاقر. امرأة ونخلة يودعان زمناً ويستقبلان الفراغ، أو يودعان زمناً لا يفتتح الا على الفراغ: «رأت امامها نخلتها القميثة تبرك قرب الحائط وسط دائرة سوداء، نخلة مهجورة عاقر مثلها تعيش معها في هذا البيت الكبير خرساء صماء، تتحمل كل المياه القذرة التي تلقى في حوضها، ويمر الصيف والشتاء دون ان تحمل طلعاً، أو تخضر لها سقعة». امرأة ونخلة وعقم مشترك، وزمان لا جديد فيه، فان دار أكد العقم المعلن، واعلن ان دورة العقم مأساة لا تحتاج الى برهان.

منذ السطور الاولى تقود الرواية القارئ الى مناخ المأساة، فالنخلة قميثة مهجورة تعيش خارج الزمان، ومن يقف خارج الزمان يموت، أو يسير الى مدار الموت ولا يدري. والبيت غلاف النخلة، اي مقبرتها، حوش قديم يسبح بالموت والنسيان، ان تنبته له الذاكرة، جاء فعلها هدماً، فالبيت القديم يُذكر حين تقوُص جدرانها. وتسير الرواية، وتُكاثر الشخصيات، فنرى فقيراً يحلم بحصان، وفاشلاً فقيراً يختلس فقيراً آخر، وبائسة شريفة ثمنها برتقالة، وصبيّاً يدخل الى عالم الرجال من باب الجريمة، ونساء عجائز كالايشاء، ونرى المكان بطلاً، ونقرأ تفاصيل الشوارع والحواري وجزءاً من دورة الفصول، ونلقى فقير بغداد والفقر في بغداد وعطن الاماكن الرطبة.

تتكاثر الشخصيات في الرواية، وقد تظن الشخصيات افراداً، والفرد يتميز، لكننا نكتشف، بعد القراءة، أننا لم تغادر النخلة - المرأة أبداً، وان الافراد، رغم سماتهم، لم يكونوا افراداً، لانهم وجوه عديدة لكائن بائس لا يحتمل التكاثر. فكما تكون النخلة مرآة للمرأة الخبازة، تكون المرأة الخبازة صورة لكل المخلوقات البائسة المحيطة بها. لا يتمايز الانسان الا بوعيه عن غيره، فان تماثل الوعي البائس وتساوى، تماثلت الوجوه رغم اسمائها المختلفة، واخذ البشر شكل المجموع المبهم، الذي لا يسمح بوجود الفرد الواضح الفعل والسمات، اي الذي لا يعطي فردية واعية.

بشر على هامش التاريخ، ووعي انتجه التاريخ الراكذ هامشياً. نفق «النخلة والجيران»، وتبني في حقل وعي تاريخي متقدم على زمانه، يعرف معنى الرواية ودلالة الموضوع الروائي، وينتج معرفة روائية تلتقي، في موضوعيتها، مع المعرفة الموضوعية. وهذا اللقاء بين المعرفة التي تفضي اليها الرواية والمعرفة التي يقولها تاريخ المجتمع في حركته الموضوعية، هو الذي يعطي عمل غائب طعمة فرمان سماته الروائية كلها، ويجعل منه عملاً واقعياً بامتياز.

تدور الرواية في بغداد، في احياء صفتها الاولى الفقر الشامل، أما زمن الرواية فهو الحرب الكونية الثانية، سنواتها الاخيرة، وزمن الاستعمار البريطاني والمواجهة بين الفاشية واعداء الفاشية في العالم. تتكىء الرواية على مشهد تاريخي واسع، يلتقي فيه المواطن الفقير بعدو يتجول في شوارع مدينته ويلوثها، ويسمع فيه الفقير، أو لا يسمع، باحداث تعيد صياغة العالم. يضيء المشهد التاريخي الشخصيات من جديد، يكشف عريها الشامل، ويشير الى مساحتها الضيقة، التي تجاور المشهد التاريخي العريض، ولا تتقاطع معه الا في صدفة حزينه، فكأن بين المشهد الانساني الواسع وجزر الفقراء التائهة قطيعة أو شيئاً يقترب من القطيعة.

في هذا الزمن التاريخي الذي يعصف بالعالم، ويبنى ملامح العالم من جديد، تقف شخصيات «النخلة والجيران» مكسورة، تتفكك في حركة عجز دائرية أو تدور في حركة عاجزة قوامها التفكك، تتلمس الاشياء ولا تدرك حركتها فتكون جزءاً من حركة الاشياء. تنفلق سليمة على احزانها الابدية، تعبت من تراكم التعب ولسعة النار والنهوض فجراً، فان وجدت طريقاً جديداً في الحياة فان تجربتها الضيقة لا تلقي بها الا بين اظافر مصطفى الحالم بنجاح وحيد في حياة مسارها الفشل. يفتش مصطفى عن النجاح في تسويق مهربات انجليزية قليلة، فيأخذ نقود الخبازة ويعطيها الاوهام، ويقنع نفسه ان الاستعمار الانجليزي ابدى. حسين الصغير يعيش الحياة غريزة، ويتكىء على موروث والده القتل، فينتهي قاتلاً بريئاً، وتماضر يخنفها البيت القديم في عاداته القديمة، فان بحث عن بديل زاد اختناقها وتضاعف...

مخلوقات جدية بالراء لا اكثر، وشروط حياتها متشابهة الى درجة التطابق، فتكون اقنعة متحركة كاملة لهذه الشروط. ولان المخلوقات اقنعة للاشياء، فانها

تتداخل في الاشياء الى حدود الاختلاط، وانسان الغريزة لا يعلو عن الاشياء الا قليلاً. ان هذا الاختلاط يجعل شخصيات الرواية كلها محكومة ببنية واحدة، ويمنع عنها اي اختلاف أو تفارق حقيقي. شخصيات متعددة مختلفة الوجوه والاسماء، لكن هذا الاختلاف الظاهري لا يلغي، ولا يستطيع ان يلغي، تماثل مضامين الشخصيات، وتطابق بنياتها. وهذا ما يجعل الشخصيات اقنعة متماثلة لشرط اجتماعي لا يعطي التميز أو الفردية، بل يعطي تطابق البداية والمسار والمصائر. وتستطيع قراءة الرواية ان تردّ، بلا التباس، الشخصيات - الاقنعة الى نموذجها الوحيد، حيث تبدو تماضر صورة كاملة عن سليمة، وتبرهن سليمة انها نسخة اخرى عن نشمية، وتبرهن هذه أو تلك انها امرأة لحسين. ونجد ان مصطفى النابت في حقل الخسارة يساوي عمران الذي يعمل في حقل برتقال، فكلاهما يغوي الآخرين بأشياء بسيطة تستثير الشفقة. مخلوقات مهزومة، اذا تساندت هزم كل منها الآخر، اي اضاف هزيمته الى هزيمة الانسان الذي يسند: يؤكد حسين في علاقته مع تماضر هزيمتها، ويكرس في علاقته مع سليمة بؤسها، ويعيد مصطفى تأكيد بؤس سليمة، ويضاعف عمران هزيمة نشمية، ويقتل «ابن الحولة» «صاحب» مؤجر الدراجات، ويقتل حسين قاتل مؤجر الدراجات. . . . مسلسل من البؤس بابه الاول الانسان الكلي الفقر وبابه الاخير التاريخ الذي يعلن هزيمة الكائنات البائسة.

تنحرك الشخصيات على مسرح الفقر الكلي، أو تبني الرواية شخصياتها بشكل يكشف عن معنى الفقر الكلي: يحل الفقير قضاياه بشكل فقير كما يجد السؤال البائس اجابة اكثر بؤساً. تبحث تماضر عن فرحها المفقود عند حسين الذي لا يعرف معنى الفرح اصلاً. أما مصطفى فيكشف عن فقر الجسد والفكر والروح والمعايير حين يقول: «أوف سليمة، لتصيرين اقسى من الانجليز». نقرأ في جملة مصطفى غشاة الوعي وتهالك البصيرة، يشكو سليمة لانها تطلب بأشائها الصغيرة، ويشكو الاحتلال لانه رحل، أو يمكن ان يرحل، ويرى في الاحتلال نعمة وارضاً مباركة يزرع فيها احلامه الخاسرة. يبحث العاجز عن حل وهمي لمشاكله الحقيقية، فيرى حسين الحل في بيع الحوش القديم، وتماضر في البرتقالة المهينة، ونشمية في بيع جمال البنت النათة، ومصطفى في نقد الخبازة القليلة. كل يبحث عن حله الذاتي الفردي الذي يلغي وجود غيره، ويأتي الحل

في شكل الانحلال والتفكك وتبادل القتل والانهيار. ولهذا لا يقتل «ابن الحولة» الانجليزي الذي يبول في شوارع بغداد بل يقتل مؤجر الدراجات المسكين. ان اقتراب البشر من الاشياء يجعل الاشياء في الرواية جزءاً داخلياً فيها، يصبح المكان بطلاً، شخصية في الرواية، وتكون الشوارع والحارات الرطبة والازقة العطنة والمقاهي القذرة مرآة للنفوس الفقيرة. وبقدر ما يكون الفقر الكلي اشارة تفصح شرطه الاجتماعي، تكون الامكنة اشارة تعلن عن هوية من فيها. يشكل المكان في رواية غائب طعمة فرمان عنصراً داخلياً في العلاقات الروائية، أو عنصراً محايثاً لها. لا تتحرك الشخصيات فوقه، انما تنمو فيه، وتظل به لصيقة الى حدود الاندماج. ولانها تغوص في المكان، ولا تعلو فوقه، تكون عاجزة عن ادراك معنى المكان الاجتماعي، وتتهدم معه، دون ان تكون قادرة على السيطرة عليه واعادة بنائه. ان غوص الشخصيات في المكان، وذوبانها فيه، يجعل الوعي لا يتجاوز حدود المكان المباشر وحدود التجربة اليومية الفقيرة التي تدور فيه. وتعتبر جملة مصطفى المذكورة صورة كاملة للوعي الفقير الذي يرى الاشياء، ويعيشها بغريزته، والغريزة تجهل تماماً دلالة السببية الاجتماعية التي تستلزم شكلاً من الوعي مختلفاً.

في وحدة الوعي والمكان، يكون زمن الوعي هو زمن المكان المباشر. وهذا الوعي اليومي الفقير لا يستطيع ان يكسر حدوده، فيظل غريباً عن كل وعي تاريخي يتجاوز مساحة النهار. لا يستطيع الوعي اليومي ان يدرك سبب دماره الذاتي، الا اذا انفتح على التجربة التاريخية، وتحرّر من زمانه الضيق، اي اذا اقام علاقة صحيحة بين الزمن الاجتماعي المعاش والزمن الكوني الشامل. وحين يتحقق ذلك لا يرى مصطفى في بضائع الاستعمار المهرية منقذاً وملاذاً وملجأ. لكن هذا الافتراض، كما تبرهن الرواية، لا اساس له، فالفقر الشامل يعين الرغيف ونوع العمل وشكل العلاقات بين البشر. تقول الرواية: «وفي الشارع العريض كانت الجواميس تعدو عائدة من دجلة الى حي المعدان حيث يقاسمها الناس حظائرها. لطخات سوداء في لوحة مساء داخن يزفر رائحة دهن محروق، وماء آسن تلهث به ارض طينية، وتكهات اطعمة ممزوجة برائحة رماد ساخن ونفط لم يحترق بعد». نقرأ في هذا القول ملامح وضع انساني مهزوم بقدر ما نقرأ ملامح وضع انساني آخر جعل الجندي البريطاني يبول في شوارع بغداد، لكأن معنى الصورة يرسم حاضراً

قائماً وحاضراً غائباً نقيضاً له ومختلفاً عنه، فالحاضر الانجليزي لا يحتضن لطخات سوداء تختلط فيها الحيوانات بالبشر.

بشر في قلب البؤس وعلى هامش التاريخ، ونمط وجودهم اليومي يجعل من الهامش المذكور مركزهم الحقيقي. فهم، رغم النوايا والرغبات، يتوزعون بين البطالة والبطالة المقنعة. العرنججي ومؤجر الدراجات والمهربّ والعامل الموسمي وحارس الحقل والنادل والمزارع الجاهل... ان رثاءة الوعي تجاور رثاءة العمل دائماً، فينفلق الوعي على ذاته حالماً بحل فردي لا وجود له. ولهذا يكون طبيعياً ان تهرب شخصيات «النخلة والجيران» من بؤس الارض الى سماء الاوهام، تعلق عجزها على حبال الرغبة والانتظار، وتسكب الماء على اعشاب الفقر حتى تستوي شجراً باسفاً هالكاً. كل له حلمه يجتره في ساعات الانتظار والبطالة المقنعة. تحلم سليمة بذهب يأتيها به خائب أبدي، وتماضر بـ «سلطان يتدفأ بحرق الياقوت»، ويتمائل حسين ببطولة جذرها العجز المتوارث. تتساوى الشخصيات في لعبة العجز/ الحلم، أو الاحلام - الاوهام. ولذلك فان سليمة، الاكثر نبلاً بالمعنى الاخلاقي، لا تستفيد من عملها الضيق شيئاً، فتستند على رجل بحاجة لمن يسنده.

إن ما يجعل «النخلة والجيران» رواية واقعية، بالمعنى الصحيح للكلمة، هو ادراكها العميق لمعنى التاريخ الحقيقي، الذي لا يُقرأ في ظواهر الاشياء أو في ثنايا الارادة الطيبة، بل في مستوى تطور العلاقات الاجتماعية، الذي يصوغ البشر فكراً واردة وسلوكاً. ولهذا تبدأ الرواية وتنتهي وفقاً لايقاع محكوم بزمنين او اكثر: الزمن الاول هو زمن البنية الاجتماعية الذي يتراءى في ملامح البيئة الضيقة ومستوى الوعي الاجتماعي وشكل العلاقات البشرية. زمن متوارث بالغ القدم لا تهزه الحركة الاجتماعية الا قليلاً. وهذا الزمن الصامت، هو الاكثر نطقاً والاضح بياناً في سطور الرواية. الزمن الثاني هو زمن وعي التجربة اليومية، زمن قاصر بسيط يتعامل مع يومه ويدرك معناه، فيتغير بتغير الايام ولا يعرف التراكم. لا يحسن هذا الوعي التعامل مع اليومي لانه يجهل التاريخ، ولانه كذلك يهرب من يوميته ومن زمنه اليومي الى زمن اثيري لا علاقة له بالواقع الفعلي.

بين زمن التاريخ وزمن الوعي ترسم «النخلة والجيران» مأساة كاملة. ومع ان الرواية تحكي مأساة بشر حقيقيين، وتلتقط المأساوي الواضح في مصائر تحمل

مأساتها فيها، وتروي نطق الجسد وحركة اليد وتلعثم العقل وبكاء الشخصية الخاسرة، فان المأساة الحقيقية لا تنبع من مسارات الافراد بل من الصدام المدوي بين زمنين مختلفين يتحرك فوقهما الافراد، فتكون هزيمة الافراد نتيجة بديهية لهزيمة زمن امام آخر. في هذه الحدود تقف رواية غائب الى جانب افضل الروايات العربية، التي عالجت مأساة الوعي الوهمي في علاقته بالتاريخ الحقيقي، مثل: ثرثرة فوق النيل، رجال في الشمس، الف عام وعام من الحنين . . .

تأخذ الشخصيات في «النخلة والجيران» شكل القناع، فهي قناع شرطها الاجتماعي كما هزائمها الذاتية قناع لهزيمة اخرى. كل علاقة تقف وتتحرك وتشير الى ما هو محتجب، فان تكشف ظهر القناع هامشياً واشارة. ترسم الرواية الشخصيات - القناع ولا تقع في غواية التجريد اللامحدود، الذي يحيل العلاقات المشخصة الى افكار، او الذي يظن في لحظة وهم عامرة ان الافكار المجردة تساوي العلاقات المشخصة. تظل الشخصيات حية ناطقة لها حضورها الواضح في اللغة والحركة والفعل اليومي والمقاصد الذابلة. مع ذلك فنحن لا نعثر بين هذه الشخصيات على شخصية - نموذج، تكون ما هي عليه وتكون غيرها ايضاً، فكل الشخصيات متناظرة ومتساوية. لكن الشخصية - النموذج لا تلبث ان تستعلن اذا نظرنا الى الشخصيات مجتمعة، مجموع الشخصيات في الرواية هو النموذج الاجتماعي الذي يشير الى شرط اجتماعي محدد. ولان مجموع الشخصيات تكون نموذجاً فان الشخصيات تأخذ شكل الاقنعة المتماثلة، اي شكل الواحد المتعدد، والذي مهما تكاثر لا يغادر حدود الواحد الاول. وقد نسأل: لماذا رسم الروائي شخصيات متعددة اذا كانت متماثلة ومتساوية في المعنى؟ وما الحاجة الى وجوه عديدة اذا كانت كل الوجوه قناعاً؟ ان تكاثر الشخصيات في «النخلة والجيران» ضرورة فنية داخلية اذ لا يمكن اظهار معنى الشخصية - القناع الا بواسطة جملة من الشخصيات - الاقنعة. لا تظهر العلاقة واضحة الا في مرآة العلاقات الاخرى، اي ان الشخصية الروائية لا تحدد بذاتها او بشرطها الاجتماعي بقدر ما تتحدد في جملة العلاقات التي تربطها بشخصيات اخرى، وفي جملة العلاقات التي تربط هذه الشخصيات بالشرط الاجتماعي. ولهذا لا تُقرأ الشخصيات الا في علاقاتها المتبادلة والمتعددة. في الشخصية المتعددة في احاديثها نلمس البناء الحقيقي لرواية غائب طعمة فرمان: لا تمايز الشخصيات في الشرط الاجتماعي الفقير الا

قليلاً، ولا يمنع تمايزها المحدود، أو الظاهري، عن ردها الى نموذج اجتماعي واحد. تستلزم تعددية النماذج شرطاً اجتماعياً محدداً في ارتقائه التاريخي، يعلن في ارتقائه عن طبقات اجتماعية متميزة وعن حضور سياسي فاعل لهذه الطبقات. تصبح الشخصية نموذجاً حين تختلف عن غيرها في السمات الفكرية والانتماء الاجتماعي ومنظور العالم والمصير التاريخي واشكال الممارسة. ويكون النموذج هذا مرآة لقوة اجتماعية انتجته، فالنموذج لا يحيل الى افراد، بل الى قوى اجتماعية تتجاوز الافراد.

اذا عدنا بعد هذه التحديدات الى سؤال الرواية الاساسي، والوعي والتاريخ هو بدء الرواية ونهايتها، نقف من جديد، وبشكل جديد، امام الزمن التاريخي في شكله الداخلي والكوني: يقوم الزمن الاول في علاقة الوعي بالواقع الاجتماعي الذي يعيش، زمن داخلي يتحدد بمستويات الواقع الاجتماعي المختلفة. تكشف الرواية عن بؤس الوعي امام واقعه، يتحرك الواقع ولا يستطيع الوعي ان يملك حركته، فتأخذ حركة الواقع شكل التحول، الذي يحتمل التراجع أو التثكك. في هذه الاشارة تؤكد «النخلة والجيران» صفتها الواقعية من جديد، فهي ترى افق المجتمع من خلال حركته الموضوعية، ولا تعطي الحركة زيادة أو نقصاناً. أما الزمن الثاني فيتحدد في علاقة زمن الواقع الداخلي بالزمن الكوني الذي يرتسم فيه الاستعمار البريطاني. بين زمن الاستعمار وزمن الواقع الفقير مسافة، حدها الاول زمن جعل الاستعمار ممكناً وحدها الثاني زمن جعل الانسان المستعمر (بفتح الميم) يقتل نفسه ولا يقتل من استعمره. في علاقة الزمن الاول بالزمن الثاني نرى المجتمع يتراجع، بالمعنى التاريخي للكلمة، أو نراه يضاعف تراجعه. ينفلق المجتمع على زمانه الداخلي فتكون حركته هي حركة تفهقه عن الزمن الكوني.

مثل كل رواية واقعية، جذيرة بصفة الواقعية، ترسم «النخلة والجيران» الواقع الاجتماعي من وجهة نظر البنية الاجتماعية، فتأخذ بمفهوم التحول الاجتماعي وتترك كل مفهوم مبسّس، او اخلاقي، للصراع بين جديد وهمي وقديم يُكاثره الوهم ايضاً. ترسم الرواية وضوح القديم والتباس ما يأخذ مكانه، فنرى ما ينهار ولا نرى ما يولد. تقول الرواية عن المكان الذي تحرك فوقه شخصياتها: «قطعة من الارض مستطيلة مسورة بصفائح مضلعة متآكلة مكتسية بلون الحناء، مثقوبة بثقوب مجهولة الاصل». يظهر القديم عارياً متأكلاً قريباً من السقوط، وقد يسقط ويتلوه قديم

جديد، فشكل الهدم والبناء لا ينعزل عن الوعي المسيطر. في هذا المدار نعثر من جديد على دلالة «البروليتاريا الرثة» التي تعمر رموزها عالم الرواية. وقد يقال: ان حضور «الرث» لا يأمر بغياب من كان له نقيض، لكن النقيض المفترض يمر في سطور الرواية سريعاً وشبيهاً بالغياب. ان بناء علاقات الرواية على حضور الرث وغياب النقيض يعني ان الرواية تبني صورة مجتمع ولا تنفلق في مقطع اجتماعي فقير ومعزول وجزئي الدلالة. بمعنى آخر: «النخلة والجيران» رواية عن مجتمع، أو رواية مجتمع يعطي ملامحه من خلال مقطع اجتماعي صغير. رواية عن سطوة القديم الذي يحكم قبضته على اركان المجتمع، فاذا تراخت القبضة، ولمع الجديد، استجمع القديم قوته وخنق ما لمع، واعلن ان الجديد لمحة في مخاض عسير. بهذا المعنى، يكون مكان الرواية فضاءً روائياً ومجازاً روائياً.

«النخلة والجيران» رواية عن التاريخ والمكان، ولا رواية بلا تاريخ، ولا تاريخ بلا مكان، ولا مكان بلا بشر وعادات وتقاليده وحارات ذات لون وصوت ورائحة. رواية عن المكان والمناخ، ترفع المكان الى مقام المقولة الجمالية، وتجبر القارئ على القبول بمقولة «المناخ الاجتماعي»، حتى اذا كانت هذه المقولة، لدى البعض، غائمة وملتبسة. لا يمكن عزل رواية غائب عن مكانها، عن شوارعها الموحلة، وحواريها التي يختلط فيها الماء بالغبار وبدن محروق، عن بيوتها الرطبة التي تحتضن قاع المجتمع بحنان اقرب الى المذلة، وعن مقاهيها التي تجمع النفوس المتعبة والروائح الحرفة والآمال الخساسة. رواية ينطق فيها المكان بقدر ما ينطق فيها البشر، وتنفس فيها الحوار بقدر ما تنفس فيها خبازة عائرة الحظ اسمها سليمة.

اذا كانت رواية الوهم تستجير بلغة قاموسية جاهزة، أو تخفي اوهامها وراء لغة تقريرية سكونية، فان رواية غائب تصنع اللغة وهي تبحث عن وجوه العلاقات، تطارد وجه الشيء، تفتش عن جوهره، تنقب عن حركته وعن ما يعطيه الدلالة، اي ان رواية غائب تنتج الواقع لغة، فيكون شكل اللغة هو شكل البحث عن واقع معقد ومتعدد المستويات، فللعامي مكانه، وللشفيهي مكانه، وللنثر الجميل مكانه، وقد يعثر شبيه الشعر على مكانه ايضاً: «هذا دمه لم يغسل بعد. نظر اليه فلاح مثل قطعة ثياب تركها مسافر على عجل. احس به سميكاً حتى ليستطيع ان ينحني ويلتقطه».

رواية كُتبت قبل زمن، ومرّ زمن وذهب كاتبها الى المنفى، وظلت الرواية صحيحة تشهد على زمانها وعلى قولها الروائي الصحيح، والقول الصحيح لا يعكس زمناً ويغرق فيه، ولا يكتب عن لحظة ويندثر معها، انما يعكس حقيقة موضوعية تتجاوز زمنها، ويكتب عن مشهد لا يندثر في توالي الازمنة. «النخلة والجيران» رواية عن الامس بقدر ما هي رواية عن اليوم، فقد يختلط الامس باليوم حتى الذوبان.

فيصل درّاج

قبل أن تغرب الشمس سمع الجيران صوتها .
قالت اسومة العرجة ،
- القرقج خاتونة المحلة
وقال حمادي العربنجي في الطولة المجاورة لبيتها ،
- عبخانة . . خوب مو عبخانة !
وقال حسين وهو على بعد خطوتين منها ،
- انت يومية معذبتي . . مو دا احلف لج بالعباس .
فقالت وهي تخلع ثوب الخبز الاسود ،
- لعد وين راحت الفلوس عيني ؟ . . وين ؟
- اش مدريني ! هذا بنطلوني وتعالني دوريه .
- هييجي تحسبني غشيمة ؟ . . الفلوس اللي تاخذها تخليها بجيب
البنطلون .
- دوري وين ما تريدن .
- هييجي ؟ . . يعني بالموت لما احصل الطحين من التموين ، وبعدين اشوف
ايدي والگاع ؟ . . اشويومية اشتغل مثل المكينة ، والناس ماكله أفادي ، خبز أسود
خبز أسود . . عبالك آني طاحنة الطحين ، وكل يوم اشوف نص الفلوس طايرة ؟ . .
حسين مو حرام عليك ؟
- طلعي حسيج بين الجوارين .
- خايف كلش .

- اسكتي .
- الدرهم اللي تاخذه كل يوم ما يكفينك . . . والمركة والتمن اللي تتغدى بيها
وتتعشى مشبعلك .
- عابت ذيچي المركة . . مرگه المگادي .
- وعيني اش جابك عليّ؟ . . ابوك لما مات خلاك وكيل عليّ؟
- هذا الحوش ملكي .
- طييط! . . آني لي بيه حصه . . حگي وثمني .
تهدج صوتها في الكلمتين الاخيرتين ، ولكنها غالبت نفسها ، وجبست العبرة
في صدرها . ثم انفجرت قائلة في حرقة :
- هيچي حسين هيچي ؟ هذا حگ السنين الستة اللي ربيتك بيها؟ . . حگ
السنين اللي كضيتها بالخبز حتى اسويك هاالكبر؟ . . روح خلف الله عليك .
ادار لها ظهره ومشى . راقبت قامته الميالة الى القصر تتعد عنها يتناقل وبلا
مبالاة . مشى عبر الحوش الطويل الى حجرته ، وخلفها تنزى غيظاً ، مطعونة
مدحورة ، عاجزة لا تعرف كيف تصب ما في اعماقها الملتهبة في كلمات . ظلت
في وجوم الخيبة دقائق افاقت بعدها على نفسها فوقع بصرها على الاجانات
النحاسية الفارغة المثلومة الحواشي ، والملطخة بالعجين الجاف . وحملتها الى
النخلة القميثة ، وصبت فيها الماء لتقع . وذهبت الى اللوان لتنتقل حزم الحطب
الطرفة لتكسرهما في الحوش وقوداً ليوم غد . كانت شمس اواخر النهار في اعلى برج
الكنيسة ذوايب نحاسية . رمقتها بحسرة وطوّفت بصرها في جنبات البيت الكبير
فرأت حصيرة الخوص في مكانها عند الحائط . ذهبت وتهاوت عليها ممدة ساقها ،
ملقية رأسها على الحائط . واغمضت عينها لحظات زافرة الهواء في عسر ، وفكرت
في نفسها «المرة يعيرني بحوش ابوه . هاي آخرتها . ست سنين اشتغل واكسيه
واطعمه . وبالأخريريد يطلعنني من الحوش . أوف! . . مرة الاب مأكولة مذمومة» .
وتنهدت ، وفتحت عينها . رأت امامها نخلتها القميثة تبرك قرب الحائط وسط دائرة
سوداء . نخلة مهجورة عاقر مثلها تعيش معها في هذا البيت الكبير خرساء صماء ،
تتحمل كل المياه القذرة التي تلقى في حوضها ، ويمر الصيف والشتاء دون ان
تحمّل طلعاً أو تخضر لها سعة .

رفعت رأسها في ضيق فرأته في عنق اللوان في حلته الليلية . قالت :

- ان شاء الله راح تجي نص الليل !
 - إيش وكت جيت نص الليل ؟
 - كل ليلة تجي وآني نايمة .
 - واذا انت تنامين ساعة ثمانية ؟
 - روح ابو الدروب .
 - والدهرم ؟
 زحفت نحو العباءة السوداء التي تركتها سهواً وتناولت درهماً من بين طياتها ،
 ورمته عليه . فانحنى على الارض يلتقطه .
 - الله يجازييح .
 وسمعته يصفق الباب . واحتواها الليل والسكون والوحدة ، نفس الكوابيس
 التي تهبط عليها كل مساء .
 اغمضت عينها ثانية . رأت خلف جفניה الغليظتين كرات رصاصية تتطاير
 في ليل سخامي . فتحت عينها في ذعر . ونهضت لتوقد الفانوس النفطي ، ووضعت
 على جاون مقلوب ، وجلست تكسر الحطب قرب التنور . حطب البراري . رائحة
 طين نقي . سامراء وكربلاء والنجف . شمت غباراً جافاً ذكرها بغبار سيارة مندفة
 في طريق مترب الى البعيد ، وهي هنا حبيسة بيتها ، تقضي النهار واقفة على التنور ،
 وتسهر الليل في تحضير العجين ، ولا تذهب ابعدها من سوق الصدرية ، ولا تشم غير
 رائحة الطولة . وهذه الاعواد من هناك رقيقة فواحة ، بعضها يابس هش تكسر في
 يسر ، والبعض الآخر تلوى على ركبها كالخيزرانة ولم ينكسر . ظلت تعاركة حتى
 أذى ركبها ، فنهضت ، ووضعت طرف العود تحت قدميها ، ورفعت الطرف الثاني
 بيديها الاثنتين . وجاهدت ان تكسره ، ولكنه لم ينكسر فאלقته من يدها ضجرة ،
 ورفعت عوداً آخر فكان رطباً مثله ، وشعرت بعضلات يديها تنقلص ألماً ، وتركت
 الحطب واستجارت بحصيرتها . وقالت لنفسها « كل الناس بالسطوح » وآني وحدي
 ألوب . العشا ما محضر ، وايدي يابس عليها العجين ، ورجليه حافية ! . . واغمضت
 عينها ثانية ، واسترخت مستسلمة للنعاس طاف في رأسها مثل موجات . وتذكرت
 الزورق الذي عبرت فيه الى سامراء ذات مرة . هدهدها في رفق على ماء رقراق رأت
 خلاله الحصى الملون الذي بدا لها قريباً لا يكلفها الا ان تغمس ذراعها في الماء
 وتلتقطه . كان الفصل صيفاً . نزلت من القطار ، وصعدت الزورق معتمدة على ذراع

زوجها. وجلست في حذر. ثم مالبت الزورق ان تهادى. فأغمضت عينها في لذة خائفة، واستمتعت بقلبها يغوص في صدرها ويطلع، وفتحت عينها على صوت يقول «شوفوا السمج يلبط!» ولكنها لم تر السمك، بل رأت مواشير الضوء تحت الماء والحصى. وعجبت كيف تنفذ الشمس في الماء، وقالت «قادر على كل شيء قدير، ويگولون السمج ليش عنده عيون» وزايلها خوفها وهي عند الجرف، ولم تشعر بعد بقلبها، بل بذلك الاسترخاء الحلو. ودت لو يعود بها الزورق. مشت على ارض هشة. وعقب الشاطئ برائحة خيار، وفاصولياء خضراء، وركبت السيارة الى سامراء.

كانت مسترسلة في حلمها حين خيل اليها انها تسمع طرقات على الباب. فتحت عينها وحملت عبر سحابة من الظلمة نحو الباب البعيد على يسارها. انصتت وهي مسترخية لما تزل. كان الباب يطرق فعلاً. ودهشت. من النادر ان يطرق بابها انسان في الليل. وكان الطرق واضحاً ردّ عليه قلبها بدقات سريعة. فنهضت وحملت الفانوس الى الباب. وترى حتى سمعت الطرق مرة أخرى، ونداء غريباً.

- سليمة خاتون!

فتحت فمها خلف الباب، استغرباً وخوفاً، وارتيكت لا تعرف ماذا تقول له. من الذي ينعم عليها بهذا اللقب، ويأتيها في مثل هذا الوقت؟ كان القادم الجديد عنوداً واصل الطرق ومناداتها حتى خافت ان يسمع الجيران. قالت بصوت ضعيف:

- عيني. منو انت؟

- سليمة خاتون، آني مصطفى.

مصطفى؟ حاولت ان تذكر. بدا لها الاسم مألوفاً. ولكنها لم تستطع ان تعرف بالضبط. والآن لا محيص من فتح الباب. ورأت ازاءها شبح رجل طويل القامة يادها بقوله:

- الله يمسح بالخير.

- هلا. عيني هلا

رفعت الفانوس قليلاً فكشف الضوء النحاسي عن هيئة الرجل كلها. افندي نحيل فوق رأسه الصغير سدارة، وفي يده مسبحة. لم يتركها تفكر، بل عاجلها

بالسؤال عن صحتها في ملاطفة، وكأنما يعرفها منذ زمن طويل، ثم قال معتذراً:

- سليمة خاتون ترى آني مقصراً!

- مقصراً؟ قالت في صوت هامس

- إي والله مقصراً. لكن ما تعرفين اش كد متألم. واحد اش يذكر؟ اللسان
اللي مثل الشكر، لو القلب اللي مثل الجمار؟ الله يرحمك ابو حسين برحمته
الواسعة.

نظرت في عينيه الصغيرتين، وحاولت ان تذكره. وكأنه حدس ذلك فhez رأسه
في لوعة.

- اذكر لما چنت أجي وبه عليوي .. شلون مداراة! .. ويوم الاربعين؟ الآن
تذكرت. ولولا الحياء لسألت. عيني مو انت مصطفى الدلال؟

- تصدكّين بداسي باب خير؟ كلما امر من البيت كلبني ينعصر. ما اكدر
اعاين عالباب.

- الله يسلم كلبك. قالت في شيء من الاطمئنان، وارتخت يدها، وهي
تحمل الفانوس فحوّلتها الى اليد الاخرى. ومع تغير الضوء رأت رقبتها، الطويلة
الهزيلة وحنجرتها الناتئة.

وعاد الرجل يقول.

- واحد إش ينسى

وهز رأسه ثانية، وأطرق صامتاً، فقالت له مندفة بمجاملتها.

- تجي تكعد شوية؟ .. انت مو غريب

- خمس دقائق - كانت على لسانه - تركت اصدقائي بالكهوة، وكّلت أمر
على ام حسين.

صحبته عبر الحوش، ووضعت الفانوس على التنور، وفرشت له مندرأ على
ظهر الجاون فجلس، وبركت هي على بعد خطوات منه، ملفوفة بعباءتها الصوفية.
وبعد ان استقر في جلسته سأله.

- وصحتج اشلونها؟

- الله يسلم صحتك

- وحسين اشلونه، بعده بالمدرسة؟

- من زمان بطل

- المدرسة متوكل خبز
- يراد لها جيس جبير
- حقيج! .. والخبز اشلونه؟
- شالع غلبي
- أكيد .. صحيح
وصمت مديراً بصره في أرجاء البيت. كان الظلام يكتنفه من كل جانب إلا أنه قال:

- البيت بعده مثل ما كان!
- شيتغير منه؟
- لا، قصدي تعمير ترميم!
- والويش؟ وال من؟ اشو حسين كاعد بحجرة تضم عيله، وهاي الحجرة فارغة .. واش ..

وأمسكت لسانها قبل ان تتم جملتها مخافة ان تقول شيئاً غير لائق.
وانكمشت في صمتها. وقال مصطفى مؤيداً
- ومن يستر يسوي شيء والدنيا حرب؟ وكل شيء بالنار
قالت:

- هي حرب لو بلاء أسود
- قال وهو يسبح بمسبحته:
- الحرب بلاء من الله
قالت باستسلامها الموروث:
- إرادته!

- معلوم ارادته. بس اشلون يذل من يشاء، ويعز من يشاء؟ يفقر من يشاء
ويعني من يشاء. انت سامعه قول الصحابة: مصائب قوم عند قوم فوائد؟
لم تقل انها لم تسمع، بل تطلعت اليه مستفهمة. في كلامه نفحة ايمان،
وشيء كثير يعز عليها فهمها. واستمعت اليه في حذر وهو يتابع قوله:
- الحرب شر وخير. شر هو هذا الغلاء الأسود، وصمون السجون، والچاي
والشكر والخام بالطابق وميدري واحد اش وكت تجي قنبلة وتموته.
قالت في خوف:

- يا ساتر
- والخير للي عنده مخ
قالت:

- ومنين الواحد يجيب مخ؟
- المخ موجود - سارع يقول - يعني قابل نشتره بالبطايق؟
وضحك ضحكة الملالي؛ فرقة في الحنجرة وسكون في الجسم. واعتدلت في جلستها، ونظرت اليه بعينها المتفتختين. ايقنت انها ستسمع شيئاً مفيداً. وادرك هو ذلك فصمت عن قصد. ومسح طرف فمه بسبابته، وقال جامعاً اصبعه الوسطى مع السبابة والابهام:
- اكوناس عدهم قبضة مخ تشوفيهم يطلعون ذهب، تشوفيهم ميعرفون شيء إلا اشلون يطلعون فلوس، والدنيا ما بيها غير الفلوس. اللي عنده عانة ميسوه عشر فلوس.

قالت في حسرة:
- صدك!

- وبعدين يجي الدين والشرف والاخلاق. المهم، الانسان لازم تكون عنده فلوس والناس تقوم له بالصلوات، وترش على دربه ماي ورد، وتسويه امام. . الله وكيلج تسويه امام، وتصير الناس كلها غلطانة وهو لا.
- هاي دنيانا

قال مصطفى في حدة وضيق:

- بس واحد يريد يعيش، يريد ياكل خبز
فتذكرت سليمة انها لم تستصفه. قالت:
- عيني، اخدرلك چاي
لا، أم حسين، ممنون. . هسه چنت بالكهوة
- الكتلي بالتنور، هسه على فوره
- الله يرحم ابوج. الواحد يشرب خمسين استكان باليوم
- كلامك مقطوع بخير
فعاد الى حديثه:

- ناس تركض وتتعب وماكو شيء. وناس وين ما تدبر وجهها دنانير

اكتفت بان هزت رأسها مصدقة . فنظر اليها لحظة ثم قال :
 - يمكن انت من الناس تشغلين وما تلحكين
 قالت مستغيثة
 - كفيلك الله ، من الصبح لليل .
 - حقق ! . . والمريه للشغل ؟
 - لما اصعد للسطح اكون جنازه .
 - الله يساعديج . وعلى ويش ؟ على لكمة خبز ؟ وناس كاعدة ، وتجي لها
 الدنانير
 حرّك اعضاءها المتعبة فقالت في عجب :
 - عيني ، هذوله ما ادري مينين يجييون الفلوس .
 ابتدرها بصوت ممدود .
 - يعرفون شلون يشغلون دماغهم ، والفلس اللي عدهم ما يذبوه بالشط ،
 يجرون منه فلوس . . عقل !
 ودس يده في جيبه ، واخرج علبة سكاثر قصديرية صدئة ، وراح يلف له
 سيكارة مدلياً مسبحته من معصمه . ونظرت اليه صامته . وبدا لها رجلاً رزيناً مملوءاً
 حكمة وورعاً بمسبحته الطويلة ، وباطراقة المتهجدين ، وبهذه الاقوال التي تنفذ
 الى قلبها غير المحصن . قال :
 - والزمن ديتقدم ! الانسان ها الايام وما عنده غير رجلية وايديه . الكهرباء
 والمكاين ، هالايا ، تخلي الانسان مرتاح ٢٤ قيراط . . اذا كدر ، مثل ما يگولون ،
 يستعمل عقله .
 تابعت حركات شفثيه مسحورة . ومصبيتها انها لا تعرف كيف يستعمل
 الانسان عقله .
 - مقصود الكلام - تابع قوله ، وهو يشمر يده اليسرى ذات المسبحة ،
 والسيكارة بيده اليمنى - الدنيا يوم على يوم دتغير . . يعني بغداد زمن العصملي هي
 مثل بغداد هالزمن ؟ وليش تروحين بعيد ، من دخلوا الانكليز دخلتهم الاولانيه چان
 وره طولة حاج احمد آغا بستان چبيره توصل للكراده . وهسه روجي شوفيها . .
 قصور وشوارع وميخانانات وسينمات .
 سمع صوت بائع فجل في الشارع ، فتوقف عن الكلام . وقالت سليمة :

- هذا يا فجل، والناس كلها تعشت؟
اخرج مصطفى ساعته من جيبه، وفتح غطاءها ونظر فيها مميلًا بقرصها نحو
التنور.

- ساعة تسعه إلا عشرة. . . نعسانه؟
قالت بصوت ناعس:
- لا، عيني، نوم الدجاج؟
صمت، وكأنه لم يسمعها. ثم بدأ بداية أخرى.
- أشوحسين ماكو؟ نايم؟
أهت له.

- أها! يطلع من المغرب، وما يجي إلا نص الليل.
- دشوفي! قبل من چان يگدر يطلع بالليل؟ حتى يطلع له جني من طولة حاج
أحمد آغا. چانت الناس تشيل بجيوبها مخايط للطنطل، والحراميه أكثر من
الملايكة في بيت مسكون. وهسه، ما شاء الله، طفل ما يخاف يجي نص الليل.
اشكك عمره محصن بالله؟

- نزول عليه، شمدريني؟ . . . يمكن عشرين.
- يعني بعده صغير. . . سليمة خاتون الدنيا د تتغير، تركض ركض. ولازم
واحد يلحك بيها. . . ابويه الله يرحمه - اراد ان يقول ابوج الله يرحمها، فأبوه لم ير
بغداد - چان يروح لسلمان باك على دابة. واليوم د يركبون سيارات، وطيارات،
وباچر، من يدري اش راح يصير. يمكن يصعدون لسابع سما!

اهتزت لهذا الكفر، فقالت مستغفرة:

- اعوذ بالله. لا عيني، هذوله كفار.

- لا، سليمة خاتون، كل شي بارادة الله.

- ويصعدون لسابع سما؟

- اذا قبل الله يصعدون.

- قادر على كل شيء قدير.

- والناس تريد فايدته. يعني، الله يرحم ابوج، اذا السيارة توصل للكاظم
بنص ساعة ليش نركب عربانه توصل بساعتين؟ يعني اذا اكو كهرباء تخلي الليل
نهار ليش نشعل شمعة؟ واذا اكو فرن يسوي صمون د يطلع مية صمونة كل ربع

ساعة، ليش الخبازة توکف عالتنور، والدخان عامي عيونه، وهي كل ساعة تطلع
عشر گرص؟

استنشق نفساً عميقاً من سيكارتته، ونفثه من فتحتي انفه، وصمت طويلاً
ليحرك لسانها. ولما رآها معتصمة بصمتها قال ثانية :
- القرن كتر، خصوصاً بها الأيام السوده.

ومال برأسه نحوها، وخفض صوته ليهمس لها، وكأنما يذيع سراً لا يريد ان
يسمعه الجيران.

- يعني، متعرف شلون يسوون الطحين؟ رבעه حنطة، والبقية شعير ودخن
ونوى وتراب. والناس تاكل، وتعبي بطونها. . تعرف لو ما تاكل الصمون الاسود
تموت من الجوع.

ونظر اليها من خلال دخان سيكارتته. كانت جامدة الاسارير، مطبقة العينين،
فلم يعرف ماذا وراء سهومها فعاد يقول :
- القرن يعادل خمسين تنور.

قالت في يأس :

- والخبازة منين تجيب القرن؟ يرا له دنانير.

- ثلاثين دينار. . اذا عندج ثلاثين دينار، هسه اسويج شريكه ويه واحد أرمني
عنده أحسن قرن بذاك الصوب.

ولمّت سليمة نفسها حين ذكرت الدنانير. وحاولت ان ترفع جفניהا
السميكن، ثم قالت :

- ومنين تجي لي الثلاثين دينار؟

- على كيفج! بس مو أحسن، تنامين للظهر وتجي ليج الفلوس الحلوه؟

- اشلون انا للظهر؟

- متشتغلين. . . گاعدة بمكانج، وحصتج تجي للباب

- بس منين أجيب الفلوس؟ من التنور المكسر؟

- ما ادري! . . حسبت عندج فلوس، چان كسبت ذهب.

- واشلون اكسب ذهب؟

- بسيطة! . . الانكليز مالين العراق. مليون انكليزي وهندي وسيك وكركه.

وما علينا من كل شي. اذا راد القرن يبيع للانكليز يوميه الف صمونه. هذا مو ذهب؟

الانكليز ما ياكلون إلا صمون . واتركينه من النصارى واليهود .
- والفلوس منين؟ . . ومعقولة الأرمني يتحنن على مسلم؟
- مضطرا وخوش آدمي . تريدن الصلوك؟ لو آني عندي فلوس چان اطيته ،
واشتركت وياه .

- يا ريت جوه ايدي فلوس .
- التنور يهد الحيل سليمة خاتون ، شتا وصيف وانت واكفه .
تنهدت وقالت في حسرة :
- من هسه مهدود حيلي .
- انت لازم تنامين مرتاحه .
- ويسعدني الحظ؟
- شكومنها؟ يا ما ناس تعبوا ، وبعدين صارت عدهم فلوس . وراها تطبق عينيه
وكأنها تحلم فقال :

- اليوم اكوناس دىحصلون من الحرب ذهب . واحنه ما نريد نغش بالجاي
والحنطة . . شغله حلال ما بيها اصعد وانزل .
- عايزه اشتغل بالحرام .
- عجيب ! الفرن بيه اجازه .
- ويطلع ألف صمونه باليوم؟
- يطلع أكثر . . راح تشوفين بعينج .
- وأروح لذاك الصوب؟!
- منطقة انكليز من الاول؟
- خوش ! . . اشتغل ويه الانكليز هالمره
- وانت اش جاييج عليهم؟ الفلوس تجي ليح حاضرة .
- ويكون حظي چيبر؟
- سليمة خاتون لا تقلقين . . قلُ توكل على الله ، فهو خير المتوكلين .
- واخلص من التنور؟!
- تخلصين وتعيشين رغد . . اش وكت اجي عالفلوس؟
- فلوس؟ - وكأنها استيقظت من حلم - وين الفلوس؟
- على كيفج

- وتعرف الأرمني زين؟
- مثل ما چنت اعرف المرحوم عليوي .
صمتت صمتاً طويلاً غارقة في تفكير غامض توجس منه خوفاً فأخرج ساعته
من جيبه وقال ، وهو يتظاهر بأنه سينهض .
- الساعة عشرة . . ما ظل وقت
قالت مطبقة اسنانها على الفرصة :
- زين عيني . . اذا هيچي تعال بعد يومين تشوف الفلوس حاضرة .

- ٢ -

في تلك الليلة ظلت تفكر فيه طويلاً وهي مستلقية على سريرها الخشبي في
السطح . كانت النجوم تومض فوقها مثل نقاط من الزئبق على فوطة زرقاء قاتمة .
وسكن الهواء فلم تشعر بغير انفاسها . ومن الجانب الأيمن كانت تسمع صهيل خيل
متعبة ، ووشوشة . وكان الطريق خلف رأسها صامتاً ، لا وقع اقدام ، ولا دمدمة
اصوات ، ولا مواء قطرة شريرة ، ولا صفير جرخجي يغالب النعاس . كانت وحدها
مستيقظة وسط عالم مستسلم للنوم . وفكرت للمرة العاشرة «صدكّ راح اتخلص من
التنور؟! أنام مثل الناس للصبح»؟! وقلقت لان ذلك بدا لها شيئاً غير معقول .
تقلبت من جنب الى جنب ، وأحست بالمخدة صلبة تحت رأسها كالجليد .
فنهضت ومدت بصرها عبر ظلمة السطح . ولكنها عجزت عن ان ترى . وبلغت
انفها رائحة روث جاف دحرجتها اليها نسمة هبت من جوف الليل . واهتز السطح
من وقع خطاها . اقتربت من سرير حسين وحملت ، وتلمست يديها . ثم قالت
بصوت خافت «المكسور الركبة ما يجي إلا نص الليل» . وجلست على سريريه ،
وقالت «يمكن راح يطلع الفجر» ونقمت على نفسها . ونزلت الى الحوش مستهدية
بضوء الفانوس . وبعد ان عبرت الليوان قابلتها النخلة القميثة . كانت يقظي مثلها
وحائرة . وضعت الفانوس على ظهر الجاون ، وجلست على مقربة من حزم الحطب
التي لم تحس بالرغبة في تكسيورها بعد حديث مصطفى معها . بدأت تكسر
الحطب ، فداهما الوسواس من جديد . وطنّ صوته في طبلية أذنها «حقّج ! تنامين
مرتاحة ، تنامين للظهر ، وتجي ليج الفلوس الحلوه» وتعسرت الاعواد عليها . لم تشم
غبار البراري ، ولم تتذكر شيئاً من ماضيها . . ولكن ! . . أكو ناس د يحصلون من

الحرب گواني ذهب. كانت تراود ذهنها، وتجعل كل شيء ماسخاً في ذاكرتها. ذهب. ويجي من غير تعب؟ حاضر محضر؟ أكو هيچي بالدنيا؟ أكو. . ليش ماکو. . يگولون حمال بالشورجه صار تاجر پچاي وشكر. ويمكن آني أصير. . يمكن الله شافني مظلومة وكال آخر عمرها أسعدها. .

كانت تكسر الحطب بصورة لا ارادية، فلم تشعر إلا والحطب قد تكسر كله، فحملت الفانوس، وصعدت الى السطح ثانية، واستلقت على سريرها، واغمضت عينيها، ولم تعرف اغفت أم لم تغف. سمعت صوتاً يناديها فجفلت، واحست بنفس الاحساس الذي احست به يوم أمس، وأول أمس، وأول أول أمس على مدى السنوات الست التي قضتها تعمل على التنور، الاحساس بان النوم قد غلبها، وأنها تأخرت عن موعدها.

- مرهون، ساعة بيش؟

- وحده ونص

- انهجم بيتي. تأخرت على العجين

- بعد وكت

ونفضت وقالت:

- ما نمت. يمكن الى الساعة وحده وآني اكسر الحطب.

قال مرهون.

- النوم حلو. . بلاكت من يگدر ينام؟ آني - كفيلچ الله - من العشا كاعد.

غسلت العربانه مرة لڤ، وعيني على الحصونه. اثنين وجعانه. . معجزة. . لو ما آني چان من قبل سنة فاطسة بالجوع.

قالت وهي تتلمس الجرغد تحت المخدة:

- خل يشترى لكم حصان حصانين. شنوه ما عنده فلوس؟

فأجابها بلهجة نسائية.

- أها! . . ما عنده فلوس! ليش منو اشترى القصر بذاك الصوب؟ ليش. . .

وسمع وقع اقدمائها على السطح، فعرف انها عافته. وبعد قليل اضيء الفانوس في الحوش. رأى الضوء الرجراج يتمايل، والظل العملاق يرتسم على الحائط، ويقعد ويتنفخ، ونبت له جناحين يروحان ويجيئان.

وبعد ان فرغت من عجن الاجانة الثالثة صعدت الى السطح، وغفت قليلاً.

ثم سمعت صوته ثانية عند الفجر.

- أم حسين!

- هبت كالمذعورة. وقالت قبل ان تفتح عينها:

- اي عيني، آني كاعدة.

ورأت كرة رأسه المسوذة من فوق الطوفة. وفي الحوش راحت وجاءت بلا ظل. والحموضة ولدت بالاجانات. وبعد قليل هست النار هسيسها المعهود، واضطربت اعماق التنور وهدرت، وأخرج التنور لسانه الاحمر المشعّف بدخان أسود. ولفح الوهج وجهها فتراجعت، وانسلت الذرات السود الى حلقومها فسعلت. والآن كان في ميسورها ان تسمع صوته في الطولة المجاورة. الناس كلها نائمة. . منو كاعد هسه؟ «فقال لنفسها» آني وحدي كاعدة، والنهار كله راح او كّف على رجلي. . . وين الله ويسويها! . . أناّم للضحى وتجيّني الفلوس. وين الله ويكون آخر يوم او كّف بيه على التنور! ولما فرغت من «الشجار» الاول سمعت الصوت المألوف. «يا الله يا كريم. . دبع!»

كان ذلك النهار طويلاً افرى مرارها. كانت تسهو فيخرج الخبز أسود في أشكال قبيحة. وكانت تسترسل في أحلامها، وهي قرب التنور متكئة على المحراث فيتوهج اللهب على غفلة، ويلهب وجهها. وكانت تطرق الارغفة بأصابع رخوة فيسيل العجين بين يديها. والناس، في ذلك اليوم، أكلوا قلبها، خاله سليمة اطينه خبز زين. . أم حسين هاي اشلون كرسة محروكة. . أم حسين تكول أمي هاي ليش عجيج فطير اليوم؟. . خاله سليمة هاي كرسة خبز لو صمونه؟ «وكانت تكز على اسنانها. وتقول: هذا الموجود! اللي ما يعجبه يروح للفرن. . الصمون أحسن» تقول ذلك محاولة ان تقنع نفسها قبل الآخرين. وبعدها تستغرق في حلمها بالفرن، في ذلك الصوب. اشوكت اروح لذاك الصوب؟ باجر يجي وياخذني لذاك الصوب. . مختار ذاك الصوب. . هوب. وقع المحراث من يدها فالتقطته. ورأت حسين ينظر اليها بعينين ثعلبيتين من وراء العباءة السوداء التي تنشر ارغفة الخبز عليها. وذعرت لانها سهت عنه أيضاً. ضاع الحساب فلا تعرف كم سرق. وبعد الظهر دعت ليعينها على حمل الاجانة الثالثة والاخيرة. زفرت في وجهه متأففة مستثقلة العجين، مستبطئة العصر. وكانت تحس مثل لدغ النار تحت جفنيها، ومثل ثقل الرصاص في مفاصلها. وتكوّمت الارغفة الثالثة في طبق خاص سوداء

منفوخة وممزقة . وقالت سليمة لنفسها : عبالك دا اتعلم الخبز من جديد . اليوم راح أطلع خسارة . ومضروب الجلوة حسين أخذ من غير حساب . لا ، عيني ، لا . خلي أكعد يوم يومين انتظر الرجال ! لا راح اغتني بهاليومين ولا اطلع كسر . أحسب نفسي وجعانه . آني وجعانه من صدك . وتنفس الصعداء حين فرغت من عمل اليوم . جلست على الأرض بعد ان خلعت الجوربين الاسودين اللذين تضعهما في ذراعيها اتقاء النار ، وثوب الخبز الاسود الذي صلّبه العجين اليابس . احست بحرارة الحائط المفخور في ظهرها . وسهت ، ثم تذكرت انها لم تجمع الفلوس بعد ، فانتفضت . ونظرت إلى حسين في ريبة . كان جالساً قرب النخلة يغسل رجليه . زحفت إلى العباءة السوداء ، وتناولت طاسة الفلوس ، ووضعتها إلى جانبها ، وغطتها براحة يدها .

نهض حسين من التختة فرفعت اليه عينيها المتفتختين . كان وجهها ينم عن شيء غامض تريد ان تبوح به .

- خير ان شاء الله !

اسبلت جفنيها وقالت :

- باجر ما راح اشتغل .

- الويش عود ؟

- اريد استراح چم يوم . . غاديه جنازه .

كان صوتها واهناً متضرعاً ، فقال لها :

- على كيفج .

إلا انه بدا لها متعجباً بلا مبالاة فقالت :

- وين رايح ؟ ميصير تظل يوم بالبيت ؟

- واشعندج وياي ؟ . . اعجن ليج العجين ؟

- لا . . عيني . . روح اسهر بالكهاوي .

ومشى يخفق بقبابه المبلل الى حجرته . كانت شبه مظلمة . السماية تنير جزءاً من اعلى الحائط . ورأى وجهه المدور في مرآة مغبرة معلقة على الحائط . كان شاحباً مظلاً مثل لقطة فيلم جهنمي . ولما ابتسم ، في تكشيرة تمثيلية ، انفرجت الظلال على صفحة وجهه العريضة ، وصارت عيناه هالتي من السواد ، وبرز انفه . وقال لنفسه : خوش ممثل اطلع ! . ومشط شعره وارتنى بنطولونه السرج ، وثوبه

الازرق، وخرج.

كانت على حصيرتها لما نزل.

- اليوم هم ممسويه عشا؟

- عندي تشريب طماطه مال الظهر.

- اشصار تشريب الطماطه هذا؟ غدا وعشا؟

- لعد الناس اش تاكل؟

- تشريب طماطه. قال بسخرية فردت عليه بغيط:

- حسين ليش ما تروح تاكل بالسينما؟

- والدهرم؟

مدّت يدها الى الطاسة وتناولت درهماً والقته عليه، فانحنى يلتقطه.

- الله يجازيك!

وهشّم الثريد بنفسه، ودلق عليه المرق الاحمر، وجلس يأكل مرفصاً بالقرب منها. سمع انفاسها خشنة، وهي جالسة جلستها الاولى، ممددة الساقين، هامدة لا يعرف ماذا يجول في خاطرها، ولا يريد ان يعرف. وبعد العشاء ذهب وتركها وحدها.

استراحت قليلاً ثم نهضت، وملأت الماعون الذي أكل فيه، وشرعت تأكل. قررت ان لا تفكر، وان تدع كل شيء للغد. غدا سيأتي مصطفى ويأخذها الى ذاك الصوب، ويتم كل شيء فلماذا تشغل فكرها؟ وهي تعبئة مستنفذة القوى. ولكنها سمعت بائع الفجل بعد دقائق، وتذكرته. بالأمس كان هنا جالساً على ظهر الجاون، وفي يده مسبحته، وفي اليد الأخرى سيكارة. وقال لها أفكاراً داخ لها رأسها. بالأمس تحدث عن الذهب، والنوم الى الظهر، والفلوس تأتي وهي قاعدة في مكانها. فهل يبرّ بوعده؟ والقت الثريدة من يدها، وركضت الى الباب تدعوبائع الفجل. كان الشارع مملوءاً بالأطفال، ولا اثر لبائع الفجل. وازدادت شهيتها للفجل. وعادت مغمومة. ذهبت الى اللبوان لتشعل الفانوس. ونست ماعون الثريد. كانت تستعجل قدوم الليل. وضعت الفانوس في مكانه على ظهر الجاون المقلوب. وانهدت على حصيرتها. وفكرت به مرة أخرى. تساءلت: صدك راح اتخلص من التنور واعيش برغد؟ وخامرها شك به قالت لنفسها آني بزواجي ما تهنيت، عاد من ورا أرمي؟ ثم ردّت على نفسها الحظ أعمى ميشوف وين يخلي

أيدته . يمكن يخلبها على رأسي واستراح ، وأنام للضحى .
صعدت الى السطح تحمل ابريقاً . وتقدمت من الطوفة التي تفصلها عن
طولة حاج احمد آغا . وقفت على اطراف اصابعها ، وأشرأت بعنقها ، وصاحت :
- مرهون ، عيني ، مرهون !
كان ليوان الطوفة مضاء بضوء أحمر كدر . وتحرك ظل من داخل الليوان مكوراً
من الاعلى . وطلع مرهون وناداهما :

- ها . . أم حسين .
- عيني ، لا تكعديني . باجر ما راح اشتغل .
- خيرج أم حسين ؟
- باجر أحجي لك . . هسه فعسانه وتعبانه .

جلست على السرير ، وغسلت رجليها الحافيتين . واستلقت على فراشها .
أحست به بارداً ، وبجسمها ثقيلاً . ونوت أن تنام نوماً طويلاً ، نوت أن تجرب النوم
الى الضحى ، نوم المحشمين . عذمت على ان لا تستيقظ حتى ترحف الشمس
عليها من الجانب الآخر للسطح وتوقظها ، حتى تحس بحرارتها تلسع جسمها .
ستنم الى الضحى كما يريد لها مصطفى أن تنام ، وتستسلم الى النوم بكل
جوارحها . وفي الضحى من غد ستقعد وراء ابريق الشاي وتنتظره حتى يناديها
«سليمة خاتون» ! وسياخذها الى هناك . والآن ليس عليها إلا ان تغمض عينيها ،
وتنام . كانت نسمة خفيفة تهب عليها من لا مكان ، وفيها خدر النعاس . وصمت
الشارع من وراء رأسها . كانت الدنيا ومنى مثلها ، تغرق ، وتغرق في لجة النوم .

ولكنها فتحت عينيها في منتصف الليل ، في نفس الوقت الذي استيقظت فيه
أمس ، وأول أمس ، وأول أول من أمس على مدى السنوات التي قضتها تعمل وراء
التنور . كان منبه ساعة رن في أذنها ، كأن الساييس مرهون نسي وأيقظها . تركت
النجوم خلفها ، وحملت في الطوفة . لا . استيقظت بنفسها . وظلت تتقلب في
فراشها ، وفكرها خال من كل شيء ، وعيناها مفتوحتان ، والنسمة تمر على وجهها .
وبعد فترة سهوم استيقظت كل جوارحها . فمن الذي وخزها في خاسرتها؟ عاتب
نفسها على استيقاظها دون حاجة الى الاستيقاظ ، وعلى بقائها هكذا تحت السماء
النيلية المنظومة بالنجوم . حاولت ان تغفو . اغمضت عينيها وارتخت جوارحها .
ولكن رأسها اصبح مثل سوق الصدرية . وهمت بالنهوض لتفعل ما فعلته في مثل

هذا الوقت من أمس، وأول من أمس، وأول أول من أمس، على مدى السنوات التي قضتها تعمل على التنوير. ولكنها استرخت. قالت لنفسها سيأتي غداً ويأخذها الى ذاك الصوب فلمن تترك العجيين؟ عليها ان تنسل من بيتها دون ان يفطن اليها احد. ولكن لماذا استيقظت؟ لماذا؟ ألم تقل انها لا تستيقظ حتى تأتي الشمس وتوقظها؟ حتى تحس بحرارتها؟ ظلت راقدة حتى يأست من اقبال النوم عليها فجلست على فراشها، وهزت جسمها ضجراً وحنقاً لأنه لم يستسلم للنوم كما ارادت. في مثل هذا الوقت من أمس كانت تعجن الاجانة الثالثة، وتتحرق للعودة الى السطح لتنام. والان تأوهت ضجيرة، وهمت بالنزول الى الحوش، ولكن الطحين لم ينخل، والحب لم يكسر. وقالت لنفسها: شيكولون الناس عليّ اذا شافوني كاعدة؟ وجعانة! ست سنين متوجعت اليوم اتوجع؟ ونهضت ثم انهبت على السرير. خافت ان يستيقظ حسين. ويسألها لماذا تلوب؟ ارخت مفاصلها، وقالت لازم أنام. . . أنام. . . أنام. وعندما استيقظت كانت السماء بلا نجوم. ولما تماكنت وعيها هبت فزعة، وراودتها نفس الفكرة الازلية. انها استيقظت متأخرة. ولكنها عادت فتذكرت انها لا تعمل اليوم. اليوم يوم القرن. ولكن لماذا استيقظت مبكرة؟ وقعدت على فراشها، واحست بنفس التعب الذي تحس به كل يوم. بل كان التعب يوقر روحها.

تملكتها قوة خفية انزلتها من السرير، وهبطت بها الدرج. ولما وصلت الى باحة البيت لم تعرف ماذا تعمل، وكأنها في بيت غريب. قابلتها النخلة القميئة وكأنها في انتظارها. نخلة متهدلة السعفات، مستكيئة، مؤرقة مثلها. وظلت سليمة تدور في أرجاء البيت كأنها تبحث عن شيء مفقود. دارت دون غاية مثل قطعة حبيسة. رجلاها تتحركان بتلك القوة الخفية التي انزلتها من السطح. وألقت نظرة طويلة الى التنور الهامد، فبدا لها ذليلاً مهجوراً. لم تشم منه رائحة خميرة، ولا طيب خبز طازج.

واسترخت على حصيرة الخوص، واغمضت عينيها. وقضت بعض الوقت هكذا حتى سمعت من يقول لها من خلف الباب «خالة سليمة عندج خبز؟» وبعد دقيقتين «أم حسين اليوم ماكو خبز؟» وبعد دقائق «خالة سليمة عندج خبز؟» وبعد دقائق أخرى «أم حسين. . . ما عندج خبز؟» حتى زفرت. كانت تعجب بضيق «اليوم كاعدة. . . كاعدة. . . اليوم كاعدة. . . ماكو. . . ماكو» ونهضت ودارت في البيت دون

هدى مسلوبه العقل ، حائرة . كانت الشمس تتدلى على حائط الطاولة .
ذهبت الى باب الحوش ضجرة ، وفتحت الباب ، وخرجت الى الشارع .
تلفتت يمنة ويسرة . كان الاطفال يلعبون قرب بركة من الماء الاسن ، وحمير علوان
ابو الجص تخرج من بيته مطأطأة الرؤوس ، بيضاء الجسم والبرذعة . وفتحية باعة
الباقلاء تفرش الارض وحولها زبائنها . وعلى مقربة من الطولة حلقة من العباءات .
وقفت سليمة قرب بابها قليلاً . وشعرت بالخجل والاضطراب ، وكأنها تسير في
الشارع بلا عباءة . سيسألها الناس لا محالة . ها أم حسين . . أشو اليوم كأعدة ؟
وساورها شك في ان تلك العباءات السود تغتابها . مشت نحوها في تردد . وحين
اقتربت رأت مرهون السائس وسط الحلقة . كان يبرك على الارض ويبدو حائراً .

سمعت امرأة تسأله :

- يعني ما تعرف إلْمَن ؟

- شمعرفني ؟

قالت امرأة أخرى :

- اش اله بالطولة بعد ؟

قالت ثالثة :

- عيني ، شبع

فأطمأنت سليمة ان الحديث لا يدور حولها . خطت نحوهن خطواتها الاخيرة

بثبات . وسألت :

- خير ان شاء الله ؟

ردت امرأة عليها :

- عيني ، الدنيا خربت

- شكو ؟ . . اش صار ؟

- بعد كل شي يصير

- يمه تگولي . . شكو ، اشصار ؟

- حاج احمد آغا باع الطولة

- والویش ؟ - سألت ببرود . وكانت عينا مرهون الحزيتان تتضرعان اليها .

فاضافت :

- يعني ، اش وازاه ؟

قالت امرأة جاءت من زقاق مجاور:

- صارت عنده فلوس... شبع

وقالت اسومه العرجاء:

- اشو الطوله من آني انخلقت موجودة.. عيني من يذكر على طوله حاج

احمد آغا؟

قالت زوجة حمادي العرينجي:

- عيني شبع، والناس من تشيع تسوي الآكو والماكو.

فخزرتها سليمة بنظرة. خافت من شيء لا تدريه. ودفعت بالتي هي أحسن:

- واحنا اش مدرينه؟ يمكن ما شاف ورا الطوله فائدة. كل واحد يركض وراء

مصلحته.

تجهم مرهون، وعرفت حديثه العارية، وقال في عتاب:

- هذا شلون حجي أم حسين؟ الدينارين والثلاثة تجيله حاضرة ما بيها فايده؟

وانت يا مرهون يا ابن الجايقه، وانت يا حمادي يا بومة الجوال كد واتعب من الصبح

للمغرب.

فاتحت زوجة حمادي العرينجي بصورة غير مباشرة:

- بومة الجوال، هو واللي خلفه.

صاحت اسومة العرجاء:

- يمه متسكتون! الناس من تصير عدها فلوس تتخبل. ليش احنه منعرف

حاج احمد آغا؟ چانت صايته الزركة مركعة.

قال مرهون بصوت ناحب:

- چان بنام ويايه بالطوله

- ماعون باكله ما چان يهله ينكع

- وهسه صار يملك نص الدنيا

- يمه، منو عنده افلوس بها الدنيا وما صار براسه خير؟

كانت سليمة تتلفت في الوجوه صامتة، وتشعر بارتياح غريب من تلك

الاقوال. هذا رجل من المحلة كانت عنده بعض الفلوس فاستعمل عقله وصار

يملك قصراً بذاك الصوب، فهل يكتب لها الله ان تصير مثله؟

عادت امرأة تسأل مرهون السائس:

- يعني انت متعرف إلمن باع الطولة؟

صدك، إلمن باعها؟

حتى مرهون وقال :

- أهوه! موكلت لكم ما اعرف . قابل دا احجي بالكردى؟

ونهض متأففاً . وترك النسوة وجهاً لوجه . أبصرت شابة بسليمة الخبازة أمامها

فنظرت مشدوهة، وشبكت اصابع يديها تحت ثديها وسألت :

- خيرج أم حسين . . اشو كاعده؟

كانت سليمة الخبازة غارقة في عالمها المذهب فاستفاقت منه وقالت :

- عيني، خيرية، اش حالي؟ . . الليل كله ما نمت

وتركتها في عجالة، وسارت نحو بيتها.

- ٣ -

كانت طولة حاج احمد آغا مسترخية في شمس آب . قطعة من الارض مستطيلة مسورة بصفائح مضلعة متأكلة بلون الحناء، مثقبة بثقوب مجهولة الاصل . وفي الداخل كانت المعالف تحت سقيفة خربة واطئة تشترك مع سليمة الخبازة في جدار واحد ينتهي بالطوفة التي تمتد شمالاً حتى السطح، وعلى امتدادها يقع الجزء الذي يشرب منه مرهون ليوقظ سليمة في منتصف الليل، وقيل اطلالة الفجر . وعلى يسار المعالف ليوان صغير فيه حجرة صغيرة للاشياء المستهلكة، وحجرة ذات فتحة سقيفة ينام فيها مرهون في الشتاء، ووسط الحوش حنفية غير محكمة الاغلاق، وعلى مقربة منها وقفت عربة غبراء مثل خنفساء خارجة من تراب .

كان الوقت ظهراً . والشمس تتوسط السماء لاهبة الارض بشواظها، ومرهون السائس يتنقل بين العربة والمعالف ضاوياً عرق الجسم، قبيح الحدة . وكان حمادي العربي قد جاء بالعربة لتستريح الخيل المتعبة حتى «تكسر» الشمس، وينال غفوة . ولكن مرهون أسر له بالنبا، وهو بعد لم ينزل من مقعده، فوجم العربي، ثم نزل من العربة متهاكاً . كان يبدو تعباً فلاذ في الليوان، واستلقى على الارض زمناً . ثم حرك ساقيه، وطوى ركبته، ونهض . ذهب الى حنفية الماء ليغسل رجليه، ويشرب . وكان مرهون يغسل العربة على مقربة منه فقال له مؤاسياً :

- ميخالف، ابن الحجية .

قال مرهون بصوت مفجوع :

- اش ميخالف؟ .. كل شيء عالبال .. بس حاج احمد بيع الطولة .. ما چان عالبال .

قال العربنجي :

- آني عرفتها من رحل له لذاك الصوب . ردت يشتري لنا زوج خيل .. كُلي : ذيل حصان ما اشتري لكم ، لو تطلع براسكم نخلة . آني اش كاسب من الطولة ، ليش اش كاسب؟ الدنانير اللي يجي ياخذها الاسود مو فلوس؟ وهو اش عنده بالطولة؟ خلّك ثلاث خيوله تذكر على جدي ، وعربانه برشقه من زمن مدحت باشا ، وهو كاعد بذاك الصوب لا يتحمل شرطي يركض وره واشر ، ولا حصان إنبهض ولا أوخ انكسر ، ولا قمجي .. قمجي على ظهر أمه وابوه .

وأحتد ، فزلت قدمه المغسولة ، ووقعت في الوحل الاسود المحيط بالبرميل المغروس في الارض فعاد يغسلها من جديد . فانتبهز مرهون فرصة انشغاله فقال :

- انت عربنجي ، وصنعتك بيدك . بلاكت آني وين أروح؟

قال العربنجي :

- لا تخاف . بغداد مليانه طواله .

- هذا حجي ما يوكل خبز .

- لثخنها . ماكو واحد ميت من الجوع .

- والطولة اللي عشت بيها عشرين سنة تروح؟

وضع العربنجي قدمه المغسولة من جديد في نعاله ، ورفع قامته القصيرة ، وشمر يديه المغسولة ، وقال في حدة :

- يعني الطولة مالتة؟ مالة اللي خلفنا؟ نظل بيها خمسين سنة وانت سايس .

وكان السايس لا يريد ان يقتنع بذلك . كانت الطولة قطعة من عمره . كانت بيته ومأواه ومملكته .

قال العربنجي بعد ان فرغ من غسل القدم الثانية : وابتعد عن الحنفية بأمان :

- اش گلّت لك لما جوا الافندية وذرعوا الطولة؟ ما گلّت لك لازم وراها دوتة

راس . گلّت لي هذوله بلدية ويقدرن الحواش . يا بلدية يا دكان شناوه؟

لم يجب السايس . فرغ من مسح العربية ، ونظر إلى جلدها الكابي غير راض ، فانصرف عنها إلى السقيفة حيث الخيول الثلاثة . وقف منها على بعد ذراع يتأملها . كانت تلوك التبّن بتوان ساكنة الذبول . فقال في اشفاق :

- مدا تاكل زين
- قال العربنجي خلفه :
- بطنها قبض ، مثل بطن حاج احمد اغا
- فرشقه السائس بنظرة شزراء وتقدم من المعالف ومسد عرف حصان أشهب ،
- فالتفت الحصان اليه ، وشم بطنه العاري . وقال السائس :
- انت هم احسن من حاج احمد اغا .
- معلوم - صاح العربنجي من ورائه - اذا ها المدارة
- لا تخاف . . حاج احمد هم داريته . . جنت أحيـر اش اسويله .
- اعرف جنت شسويله .
- جنت ادلك له مثل ما أدلك للحصان .
- مرتي ما داريني هييجي .
- تضحك؟
- لا ، واحد يحجي ناموسه .
- وطوق العربنجي رقبة حصان آخر . وناغاه
- هلو . . باباتي
- لم يلتفت الحصان اليه ، بل نخر نخرة قوية . وشم العربنجي رائحة التبن
- الترابية ، وارتاح لها . ولكنه احس بقدميه اللتين غسلهما ، قبل دقائق ، تغوصان في
- الروث المفروش على ارض المعالف . وتضايق ، وهم بان يشتم حين سمع صراخا
- منبعثاً من وراء السور الصفائحي للطولة .
- انزلقت يده عن الحصان ، ونظر إلى الباب الذي توقع أن يأتي منها الصارخ .
- كان يعرف صاحبة الصوت . وسرعان ما ظهرت عند باب الطولة امراته تصرخ
- باعلى حنجرتها :
- لك حمادي . . لك حمادي
- فقال حمادي وكأنه يخاطب الحصان ، من أولها؟
- لك حمادي . . يوم الأسود اللي تزوجتك بيه . . لك حمادي . .
- فقال حمادي موافقاً : اسود . . ويعروري !
- اقتربت المرأة من السقيفة وهي تقول :
- لك حمادي . . تعال خلصني

قال وهو يحاول ان يرفع قدميه من مصيدة الروث

- شكو؟

- تعال خلصني

- ليج اشصار؟

- لك خلصني . . خلصني

كانت محمرة الوجه ، متوترة الرقبة ، مبللة الخدين لا تكاد العبادة تستقر على رأسها . بلعت ريقها وصرخت :

- راح نغرك

- اجه الشط للبيت؟

- لك راح نغرك .

- على كيفج . . يواش .

- لك اش على كيفي؟ . . راح نغرك .

- على كيفج لتخوفين الخيل

- اش على كيفي ، والخان راح يغررك؟

- منين يغررك . . نزيرو؟

- من طوشة الماي اللي تجيبها خيرية مرة رزوقي . . لك عيني راح نغرك . .

راح نغرك .

فقال العربنجي متضايقاً :

- اشلون وبه الحكومة الله يسلمها؟

- يوميه تشرلي عبايه على الجبل ، وتغسل بالطشت بنص الحوش ، لو هي

لورجلها ، وتذب الماي علينا . . لك عيني راح نغرك . . راح نغرك .

- على كيفج لتخوفين الخيل

- وشايله راسها علينا .

- يعني ما حد اشتغل عند الحكومة؟

فصرخت زوجته بصوت عارم :

- روجي خلصت . . خلصت

- على كيفج لتخوفين الخيل .

- لك راح نغرك . . نغرك .

- تغرگین بالجهنم . . لتخوفین الخیل .
 نخرت من انفها الاقن . ودفعت طرفي عباءتها إلى ظهرها، وشمرت بيدها :
 - سويلي چارة . . يوم واحد ما راح ابقى بالخان .
 - متبقين إلى جهنم . . راح تخوفين الخيل .
 - لك ما أبقى ، ما أبقى .
 ورفست الارض برجلها فارتجفت كفل الحصان، فصاح العربنجي في غيظ :
 - خاف الحصان . . بس عاد . . الحصان خاف .
 وحملق في وجهها المجزع من الشمس والانفعال فخاف ايضاً، وراح يرضيها .
 - خل يجي رزوقي . . اصبري
 وقبل ان يتم كلامه سمع هبدة على الباب الصفائحي فجفل . وما هي إلا
 طرفة عين حتى رأى خيرية نفسها تخرج من وراء العربة مثل قطة هائجة .
 - وين ابو رواه ؟
 وراها تقترب مشمرة بيديها . فعرف أنها المصيبة بعينها . صاحت بصوت
 مصمّم
 - شوف عربنجي . . آني صار لي خمس سنين بالخان وعتبة الطوله ما
 دايتها . اعرف شنو أنتو، شنو احنه . . انتو مليانين كراد . . عوع ! . . واذا غسل
 واحد تغارون منه
 قال العربنجي محاولاً ان يجاري نبرة صوتها العالية :
 - يعني انت وحدج كاعدة بالخان ؟
 - كاعدة بحجرتي .
 - والمايات ؟
 - والمايات يم حجرتي .
 قالت زوجته :
 - لك يا حجرتها . . وصل الماي لليوان .
 - على كيفج لتخوفين الحصان
 صاحت خيرية مغیظة :
 - اشو بكيفي - وضربت الارض برجلها .

- بكيفج اشلون؟ الخان مالج؟

قالت زوجته:

- مال رجلها أبو. . . . الجبير

والموصوف شيء لا يجوز ذكره! فاستدارت لها خيرية، ومدت عنقها،
وتخاصرت دافعة العباء بكوعيهها. وقالت بسخرية:

- واش دعوة غايرة، رديفة؟ رجال واحد مو كافي؟

وهنا رأى مرهون الساييس أن من الضروري أن يتدخل. قال:

- عيب خيرية، يمچ رياجيل

صاحت خيرية به وغمته:

- اسكت، ابو قنبورة، تحسب نفسك رجال؟ - ثم عادت إلى زوجة
العربنجي - من هذا تعالين علينا من شگوك الباب؟ يعني شتردين يجري بين
المريه ورجلها؟ يقرون الفاتحة عالميتين؟

- عيب خيرية قال العربنجي هذه المرة.

- اسكت عرگچي! . . يومية جايته سكران، وروالتك تخر. . متسحجي على
شيبنتك.

- غاري منه قالت رديفة زوجة العربنجي

- أغار من العربنجية!

- واش جايچ عالربنجي؟

- وانتواش جابكم عليه؟

- اسكتوا لتخوفون الخيل!

ولكن المراتين تصايحتا، واختلط صوتاهما في زعيق نافر غطى على احتجاج
الرجلين، وخافت الخيل قدر ما تشتهي. وكانت شمس الساعة الثالثة حادة لاهبة
أسالت العرق من عنقيهما، ولونت وجهيهما بلون مدمى مزرق حتى تعبتا دون أن
تنتهيا إلى شيء. فخرجت خيرية من الطولة تقول:

- خلصنه من الجيفه. . باعوها الطولة. . الله يسلمها الحكومة!

ولكن الخان ضمهم في المساء ذاته. كان الخان بيتاً كبيراً يجاور بيت سليمة
الخبازة من الناحية الاخرى. . بيتاً من بيوت خلق الله الاعتيادية سماه الناس «خاناً»
لتنعد حجره، وكثرة نزلائه. فيه يسكن حمادي وزوجته رديفة وطفله في حجرة،

ويسكن رزوقي وخيرية .

«الحكومة الله يسلمها» في حجرة ثانية، وثلاث عوائل في حجرة ثالثة،
وفتحة بائعة الباقلاء في شبه حجرة . . وهناك شبه حجرة أخرى لا يقبل مخلوق ان
يؤجرها .

- ٤ -

مساء! كانت سليمة الخبازة مسترخية على حصيرة الخوص ساكنة . ومن
مكانها راقبت الشمس تتسلق برج الكنيسة، وتغيب، وتصطبغ الجدران والارض
بلون رمادي يغمق، ويزداد اسودادا، ثم يلوح حائط الطولة أمامها مبتعداً عنها، داخلاً
في الغبش، ساحباً معه النخلة القميئة .

كانت عيناها تشهدان قدوم المساء المبشر بمجيء مصطفى، واذاها
تسمعان حسين يغني في حجرته غناء كريهاً يشعرها بالاختناق . كانت ترى يده ان
يخرج قبل ان يأتي مصطفى ليحدثها عن القرن والذهب، والذهاب إلى ذاك
الصوب .

كان حسين قد جاء عند العصر تفوح منه رائحة النهر . شمت رائحة الطين
الرملي الزفر من صدره العاري حين صبت له ماعون الباميه، فالتهمه بشهية . ولم
يقل لها كلمة واحدة . لم يسألها هل ستشتغل غداً . جال ببصره في ارجاء البيت،
ولم ير اعواد الطرفة مكسرة عند التنور ففهم كل شيء . وبعد ان فرغ من طعامه دخل
حجرته، وظل يغني غناؤه المكروب الذي يفري مرارتها .

سمعتة يغني «ذبني السريع لليل» فقالت في سرها «ذاك إيبر اللي ما تطلع
منه» . ثم حدثت نفسها «لا، عيني، خل يطلع، ينزاح عن كلي . هسه الرجال على
جيه، واش آكول له اذا شافه؟ واش نكدر نحجي بعد؟ لا، عيني، خل يطلع» .
وكأنه سمع افكارها . تحرك ضوء الفانوس في حجرته وخرج بالفانوس إلى
الليوان، وثوبه الازرق يسطع في ضوء الفانوس . وفي عنق الليوان سألتها :

- وين أخلي الفانوس؟

- تعال جيه هنا

تقدم اليها يساقين مظللتين . وقالت له :

- خليه عالجاون .

فوضعه، وصفر بلحن، فصاحت :

- لتصوفر، وتلم الملايكة

- العورين لو الشرحين؟

- اسكت كافر! بعد الشط وين راح تروح؟

- وين ماريد اروح اروح.

بدل متكضي النهار بالشط والكهاوي، روح دور على شغل، وأني حرمة.

- أدور اذا تريدن تبطلين من الخبز للتالي!

- وين تدور بسينما الزوراء لو عند صاحب ابو البايסקلات؟

- انت اش مدرّيج، والنهار كله ممدة عالحصير مثل الوحدة الكامعة ابنها؟

وابتسم، وغرس في قلبها مخططاً. فشتمته :

- روح ابو الدروب.

واطبق الباب عليها. كان الليل بلون الرماد. وفي الشارع العريض كانت الجواميس تعدو عائدة من دجلة إلى حي المعدان حيث يقاسمها الناس حظائرها.

لطخات سوداء في لوحة مساء داخن يزفر رائحة دهن محروق، وماء آسن تلهث به أرض طينية، ونكهات اطعمة ممزوجة برائحة رماد ساخن ونفط لم يحترق بعد. سار حسين على مهل بمحاذاة البيوت، فتخطى الخان حيث الباب مفتوح على مصراعيه، وفي البيت مواقف وعباءات سود وبيت علوان ابو الجص حيث الجميع في الحوش بلا براذع فتلوح بيضاء في رمادية المساء. وتوقف. ونظر إلى امتداد الشارع الموصل الموصل إلى حي المعدان. وقال لنفسه «صار الوكت». كل العمال رجعوا لبيوتهم وعاد ادراجه إلى الجهة الاخرى من الشارع. فمر ببيوت صامتة مغلقة الابواب، ثم بيت اسومة العرجة، وابتعد ماراً ببيوت النصارى ذات الشناثيل الملونة، وبعدها دكان صاحب ابو البايסקلات :

- مرحبة ابو مهدي. . اشولسه مفتح؟

- اش اسوي؟ . ابن الحولة، أخذ بايسكل من الظهر، ولسه ما اجه.

لم يعلق حسين بشيء. وضع قدمه على حافة الدكان وحشر يديه في حزامه، ولم يقل كيف رآه على الشاطئ يدور في الدراجة خوفاً من ان يطول الحديث.

وتكتكت الساعة الخضراء الموضوعة على «التزكاه» فرغ حسين رأسه وقال :

- همزين شفتك. . اريد ربع دينار

- شن هاي؟ - نظر اليه صاحب مندهشاً - البارحة نص، واليوم ربع؟
 - ميخالف، محتاج.
 صمت صاحب برهة ثم قال:
 - تعرف اش كد اخذت هالشهر؟ ست دنانير! يعني عالحة هاي فلوسك راح
 تخلص بالعجل.
 - واذا يتراد لي؟
 - عجيب امرك. . شنو وراك بيت؟
 - تقريباً.
 فنظر اليه صاحب بارتياح، وهز رأسه وهو يمد يده في جيب بنطلونه.
 - تريده دراهم لو قاغد؟
 - دراهم.
 وعد له خمسة دراهم، وهو ما يزال ينظر اليه نظره المرتابة فاراد حسين ان
 يصرفه عنه فقال:
 - اليوم مرة ابويه كاعده!
 - ها! . . الويش؟
 - شمدريني! . . براغيها مفكوكه . . تكول شم حصله من الخبز؟
 - الحق وياها. اذا تاخذ نص فلوسها. . بس آني المذنب همينه. بس چنت
 اريدك تجمع وتكمل دراستك. بيع الخبز ما يوكل خبز.
 وانت صرت رجال. الله يرحم ابوك چان يريك تطلع دكتور.
 فقال حسين بسخرية:
 - راح أتطلع دكتور من التنور. . بيض بليّه گشور
 قال صاحب وكأنما لم يسمع كلامه:
 - بلاكت صار لك شهر وانت تجر بفلوسك. ووين كلامك. . ورا الصيف
 اكعد بالمدرسة؟
 - ابو مهدي. . الصيف بعد ما خلص
 - راح تخلص فلوسك قبل ميخلص
 - البركة بالحجة - يقصد زوجة ابيه - قابل راح نظل ممددة عالحصير كل
 عمرها؟ . . آخرتها ترجع.

- ان شا الله مترجع . . هذا احسن لمستقبلك
فلاح الضيق في وجه حسين :
- ابو مهدي يامستقبل؟ . . المستقبل راح من مات ابويه
- لا ، اذا دخلت المدرسة ما يروح .
- واذا نسيت القراءة والكتابة؟ . . ست سنين مو قليلة
- تذكر بالعجل
- واش تريدني اطلع؟ محامي لو دختور؟
- على الاقل تدخل مدرسة الصنائع بعد ما تخلص السادس .
فهز حسين كتفيه في ارتياب ، وقال :
- هذا عمر!
نظر اليه صاحب بعينين شفيقتين وقال :
- بعدك شاب . .
- موت يازمال لما يجيلك الربيع . . ماريد هالمستقبل . . اريد اعيش اليوم .
وران صمت . وتكتكت الساعة الخضراء الموضوعة على «التزكاه» . وبعدها
سمعا كركبة عربية وراء عطفة الحمام . ثم اطلت كتلة سوداء ذات ارجل كثيرة . ومّر
حمادي العربيّجي ، رافعاً سوطه بالتحية .
صاح عليه حسين :
- ها ، ابو شيبه ، بيش طلعت اليوم؟ . . بسبعة قاصر؟
قال حمادي في نشوة :
- لا ، بنص ربع عرك من ابن مروكي .
وبعد لحظات سمعاه ينادي مرهوناً : «ابن الحجية عمشة ، افتح باب
القلعة!» فضحك الاثنان .
الا ان ضحكتهما كانت قصيرة . سمعا جرس دراجة فالتفتا . ورأيا ابن الحولة
يشحط برجليه على الارض . ترجل ابن الحولة ، وقاد الدراجة إلى عتبة الدكان وكان
حسين وصاحب يتبادلان النظر في صمت مكبوت فقال ابن الحولة :
- ها ! . . اشو مثل البزازين واحد مكابل اللآخ
قال صاحب وقد تجهم :
- اكو واحد يظل ليهسه على بايسكل؟

قال ابن الحولة في لا مبالة مغيضة :

- شنو . رّوحت صلاة المغرب عليك؟

وصعد عتبة الدكان، ووقف ازاء صاحب وجهاً لوجه . كان فتى مديد القامة
هزيلها، طويل الوجه والذراعين والساقين لا ينم مظهره على قوة خاصة لولا عيناه
الواسعتان الوقحتان، وفكاه العنودان المتصلبان .

نظر صاحب إلى الساعة الخضراء وقال :

- صار لك خمس ساعات .

- لا عشرين .

- من ساعة ثلاثة تقريباً .

قال ابن الحولة :

- جان البايسكر ممطول بالكهوة .

- واش عليه آني ؟ البايسكر طالع .

- هاي من كثرة بايسكلاتك الطالعة ؟ اشو كل النهار مصفوفة عالحياط .

قال صاحب في تأزم :

- بعد اربعة ايام يجي راس الشهر . . عود انت تدفع لي الكمبياله لحسقييل

لياهو .

قال ابن الحولة :

- صرت تكدي ؟

لمعت عينا صاحب في غضب، وتحرك شعر وجهه غير الحليق . ولكنه كتم

غيطه وقال في عتاب :

- هاي المربوده من ابن الحولة !

حذق ابن الحولة بصاحب تحديقة طويلة هوجاء قابلهها صاحب بأخرى

مستهينة . كان كلاهما طويلاً نحيلاً ولولا تلك الانحناءة في ظهر صاحب، وكبر

سنه لبدا اقوى منه، وأكثر رجولة . نظر اليه دون ان بدري ماذا يقول له . ولما طالت

التحديقة قال صاحب :

- اشود تعالين ؟ . . تريد تخلقني من جديد؟

قال حسين بصوت غير صوته :

- يلّه باجماعة . . انتو من طرف واحد

قال صاحب :

- لا ، اريد اشوف ، يريد يخلقني ؟

كان جبين صاحب عرقاً ، وشعر وجهه غير الحليق قد تفصد بقطرات عرق لامعة . وكان حسين لا يرى من ابن الحولة غير استدارة الفك القوية المنذرة بالشؤم ، ونتوء الانف المستدق . وكان قرص الساعة ينبئه بان ذهابه قد حان . واعاد محاولته المرتجفة ليصب الماء على النار . واخيراً قطع ابن الحولة تحديقته الطويلة ، قائلاً وهو ينزل عتبة الدكان :

- زين . . آني الك !

رد عليه صاحب بحدة

- زينين . . شتريد اتسوي لي ؟

والتفت ابن الحولة إلى صاحب ، ونظر في وجهه صامتاً ، ثم استدار بعدها ، وسار في الشارع المظلم يهز رأسه بوعيد .

قال حسين :

يله ابو مهدي . . عزّل

كان صاحب ينظر اثر ابن الحولة . ولاح جبينه العرق متغصناً مكفهراً . وانفجر قائلاً بعد أن غيب الظلام ابن الحولة .

- اريد اشوف شي سوي لي . . زين زينين . آني هم اكدر الزم لي خنجر ، وأوكّف بالعكّد ، ويا هو اللي يجي أطبره . . ماكو حكومة !

قال حسين وعيناه على الساعة :

- ميخالف ابو مهدي

وتحرك صاحب واخذ ينقل الدراجات إلى اقصى الدكان . . دراجات مستهلكة ، حائلة اللون ، صدئة النيكل . وسمع حي الصانين صراخ الدقة الحديدية الوحيدة في الحي كله .

- ٥ -

انحدر من السدة الترابية تدفعه نسمة ليل خفيفة . وبعد السدة لم يعد يرى اضاءة المدينة ، بل خطأ اشعث من الضوء مثل رؤوس مشاعل بعيدة . وفي الوهدة استقبلته رائحة روث تحرقه تنانير ليلية . واكتنفته تحتهما ، متوجساً خوف الانزلاق

في ساقية جافة كان يعرف انها هنا، شاقة «الكعب» نصفين . وبعد قليل سعل رجل على مقربة منه، وتحدث اثنان في وشوشة . ثم انعكفت ركبته بغتة، وعرف أنها الساقية . . انزلق اليها دون ان يدري . وعبرها، وترك قدميه تدبان على الارض باطمئنان . ورأى مستطيلاً عمودياً من الضوء النحاسي، فعرف انه في أول الزقاق، الزقاق المترب المقعر مثل مجرى جدول قديم، والملتوي المنتهي إلى أرض فضاء، والمحصور بين حيطان طينية بلا شبايك . دب فيه صامتاً، قدماء مخنوقتا الوقع، والتراب الناعم يدخل بين اصابع رجليه، والصراصير تغني في اذنيه، وانفه يستقبل روائح الروث المحروق . لا نفط، ولا دهن، ولا رائحة جواميس . ودلف من باب . واستقبلته ثلاثة مخاريط ضوئية متقاطعة . وسار عبر مخروط . ونادى بصوت مهزوز:

- تماضر!

نما للمخروط شبح امرأة عكفت يديها على الباب وتطلعت اليه :

- ها! جيت؟ . . اشو متأخر اليوم؟

دخل الحجرة دون جواب . كان فانوس نفطي معلقاً على الحائط بمسمار . وفي اقصى الحجرة سرير حديدي، وعلى الحائط مرآة قربها مشجب تحته حصيرة، والارض عارية . وفي الزاوية قدر أسود وبعض المواعين . جلس على السرير، وجلست تماضر امامه . حذق احدهما في وجه الآخر . وكان ضوء الفانوس سقيماً القى على وجه الفتاة تموجات قاسية . ولكنه لم يمح كل ما فيها من حسن . مازال هناك شبابها، ونضارة بشرتها، وسواد عينيها الكحيلتين، والشفتان الممتلئتان المتحركتان في حذر .

سألته مرة أخرى في صوت أسيان :

- اشو تأخرت اليوم؟

لا، لم تكن الظلال التي على وجهها من سقم المصباح . كان حزناً حقيقياً رآه في صوتها الشقي، وعينيها الحزبتين، واضمامة شفثيها، وفي كل التعبير الضارع المرتسم على وجهها .

قال لها :

- تأخرت بالشغل .

قالت :

- هذا يا نجار يفتح لها الوقت؟
 - چان بيدينا شغل، ما عزلنا الا خلصناه
 - ومن الشغل لهنّا؟
 هزّ رأسه جواباً. فنظرت إلى وجهه بعمق واستغراق، ورفعت بصرها إلى
 شعره الأسود اللامع. وكانت في عينيها ريبة، ريبة مسحوقة.
 فقال ليزيل ريبتها:
 - الشط يم الدكان. . وغسلت.
 - ما تكول لي وين تشتغل؟
 - بعيد. يم قبر الملك.
 كانت لا تعرف بالضبط اين قبر الملك. ولكنه هناك، في العالم الآخر خلف
 السلة الترابية التي هبطت منها ذات يوم. ومرّت في خيالها شوارع مشجرة، شوارع
 بلا اسماء، عريضة ومشمسة.
 قالت:
 - وآني وبه الشراكوه بها لحم
 - انتِ رِدَتِ هالخم. كل محلة چنت تگولين اخاف يشوفوني اهلي. جنت
 تريدن تطلعين من بغداد وتسكنين بسلمان باک.
 - حسبت اتخلص منهم
 - واش دعوة هالخوف؟. . وتحلمين بيهم
 - ميجوزون مني إلا يقتلونني
 أمسک لسانه عن قول كلمة تؤذيها. كانت جالسة امامه ذليلة ممتعة الوجه،
 تبدو مقطوعة الصلة إلا به من دون خلق الله. ولم يشعر بالشفقة عليها قدر ما احس
 بالسطوة، وبأنه اقوى.
 حكّت له ما رأيته اليوم:
 - اليوم الصبح طلعت اشتري خبز، شفت واحد واكف بالباب. اعربي لابس
 عباية سودة وعگال. خنزر علي عبالک يريد ياكلني، وآني وحدي. والشراكوه کلهم
 طلعو للشنغل، واني والعجايز والجهال. - رجعت للبيت ارجف مثل السعفة.
 وظليت للظهر وآني جوعانه.
 قال:

- هذا كله من الخوف .
- خوف؟ .. لا ، مو خوف . الظهر طلعت وشفته كاعد شويه غاد من بيتنا .
يخنزر . وما ادري ارجع لو أمشي بطريقي ، إنثولت ، وكلي من الجوع عصري .
چان ورايه .

- وراچ؟
- لحگني لأبو الخبز . ولما رجعت رجعت ورايه .
أحس بمزيج من الغيرة والخوف ، وسأل منجذباً بقصتها :
- ومنين هذا؟
- ما اعرف . . اهل العُگل يشباهون
- وما حاجاج!
- لا ، بس يخنزر . يريد ياكلني . . من بعته علي؟ . . أهلي لو ذاك الساكن
بالعماره؟

وسكتت . واحس بخوف حقيقي هذه المرة . ولما سألت :
- لما خشيت مشفته بالباب؟
هز رأسه نفيماً ، وتابع في ذهنه مسيرته بعد انحداره من السدة الترابية . كان
الليل بهيماً ، والسكون شاملاً . ولم يجد ما يريب . ولكنه الآن ، وهو يحدق بوجهها
البيضوي الممتليء ، احس بانامل الخوف تدب على ظهره . وضعت تماضر كفاً
باردة على كفه ، وقالت متوسلة :
- نام اليوم هنا .

ارعبته هذه الفكرة ايضاً . قال لها :
- اشلون انام ومكاني بعيد؟ وماكو سيارة من الصبح .
فلوت رأسها ، وغرق وجهها في ظل أسود بينما تلالات خصللات شعرها
في ضوء الفانوس . وسمعا نباح كلب عبر الجدار اجابه كلب آخر بعيد ، واستشعر
كلاهما وكأنهما في بلدة غريبة . ولكنه عاد يُكذّب نفسه لا ! . . انها اوهام فتاة هاربة
تجد في صورة كل رجل اباه المباغت لها . وهز رأسه طارداً عنه الخيالات :
- لا ، كل شي ماكو .

- نام عندي بس هاليلة
- ما اكدر . ما خبرت اهلي - ثم صمت لحظة حتى اهتدى إلى كذبة - باجر

لازم آخذ المنشار من البيت . ما راح يگولون لي : وين چنت؟

- فقالت في حيرة :

- اشلون؟ . . الليل كله ما راح أنام . ما أكدر اعيش هنا .

قال :

- وين تريدین تروحین؟ . . لسبع قصور؟

قالت :

- لا ، اعرف مربة من اهل الطرف اسمها نسمية . . ساكنة هسه بالكرادة يم

البايزين خانه . . يمكن نندلها وتسكننا عندها .

قال :

- هسه تذكرت؟

- چنت بليه فكر . . چنت ماريد اشوف كل واحد يذكرني بأهلي .

وساد صمت . وفكر كلاهما بشيء . فكر بلقائه الأول معها على باب سينما

الرافدين ، وفكرت هي بالشط وعالم ما وراء السدة الترابية ، وسرى في عروقها

اطمئنان ناعم اعاد ماء الحياة إلى وجهها ، فبهتت تلك الظلال القاسية الملحاحة ،

واكتسى وجهها لمعة نحاسية . وحين جذبها نحوه متلذذاً بلينها وطواعيتها ، ودفع

نهديها على صدره لم تشعر بما شعرت به يوم امس من عذاب ، حين نام معها ،

كانت تفكر بالشط . شمت رائحته في ثيابه واستكانت له ، وسألته وهي تستسلم بين

يديه :

- ها ، حسين ، شتگول؟

ولكنه كان اخرس ، تحولت حواسه كلها إلى شم ولثم . دس انفه في

صدرها ، فوضعت يدها تحت ذقنه :

- ها . . حسين شتگول؟

وأحست بحركة شفثيه بين اصابعها . ولم تفهم شيئاً .

- ها . . حسين . . نروح باچر؟

ورأت عينيه خاليتين من اية معارضة . وتحرك ذقنه :

- تملدي . . نروح .

وبعد ذلك تعشيا على السرير . كان السرير كل ما يملكانه في تلك الغرفة

العارية . واعادت عليه السؤال فقال لها :

الاعور يسوون عينه مثل الساعة، والشايب ابن العشرين، والركاع قندرجي، وابو بيع بزاز بسوگ الجده . . سووها بيه . . اعرفهم . . قق . . قق (الكلمتان الاخيرتان موجّهتان للديك الذي اراد ان يصعد الحائط مرة اخرى)
- خالة نشمية، شفته مرة وحده واخترعت. دخلت للحجرة، وظليت النهار كله خاتله.

- حقيج، عيني حقيج
- بعمر ابويه، لحيته ضاربه صفح
- ومنين لاكيه؟ من يا زباله؟
- يجيب لأبويه دهن.
فتحت الخالة نشمية فمها لتقول شيئاً. وفي تلك اللحظة اطل على الباب رجل معقل صاح:

- نشمية، هذا اشلون ويّه ديچچ؟
صاحت غاضبة:
- هاي اش بليتوني بديجي؟ ما حد عنده ديچ بالدنيا؟
- هو هذا ديچ لو بلا اسود
- يعني، شتريدون اسوي له؟ أخلي برجله كلبچه؟
- آخر ميصير يانشمية . . دجاجنا توجع من الكشف.
ابتسمت نشمية بنشوة، وتهدل لغدها، وقالت بصوت باسم:
- كل لي، اش اسويله؟

- لو تذبحيه، لو تبيعينياه احنه نذبحه
غاضت الابتسامة من وجهها في الحال، وصاحت بصوت مختنق
- روح، روح علي شغلك، والله لو تطيني خروف.
قال الرجل مهدداً:

- چا اشلون؟ خل يجي منا وغادي
قالت نشمية وهي تشير بيدها،
- عود گصوا . . .

ونجملت ان تذكر المقصوص، واختفى الرجل، وفرغ الفضاء وراء الباب، ولاح جانب درب مترب، والنصف الاسفل من نخلة. نظرت الخالة نشمية إلى

سرب الدجاج، والديك يتبختر بينها مثل محارب ذي قلنسوة حمراء، وجبة بيضاء ينود برأسه في صلف وكبرياء. وشع الرضى في وجه نشمية، وانخفض انفها في برزخ وجنتيها الممثلتين، وقالت في فخر:

- هذا اشلون ديچ! . . اشقياء يهز الكاع هز!

واستغرقت في لحظة اعجاب، ناسية ضيفيها. ثم تذكرتهما فقالت:

الچاي عالنار، ونهضت في جهد، وتماوجت الاليتان من ورائها. وركضت تماضر لمساعدتها. كان ابريق الشاي موضوعاً على موقد نفطي في زاوية في أقصى اللبوان، قالت الخالة نشمية انها تضعه هناك خوفاً من أن يقبله الدجاج «اللي مشعوطني وملعوطني. . . دجاج هيچي وكٲ». وعادت إلى مقرها. وضعت تماضر صينية الشاي على «طبله» مخلخلة المفاصل. وهذا الدجاج وانحصر في زاوية من الحوش الطويل يتحرك بهدوء، وكأنه يشعر بغضب صاحبه.

سألت الخالة نشمية وهي ترفع قدح الشاي:

- أي، عيني، چچايتنا. . وهسه وين گاعده؟

- خالة نشمية، بكم الارمن.

- وين صاير كم الارمن؟

- يم السدة، بعيد!

كورت الخالة نشمية شفتيها وقالت:

- أوه! ولبش قحط حواش تروحين لسدة الهندية؟

- خالة نشمية، سدة بغداد. . بس بعيد، واحنه جينه عليچ، بلكت عندچ

مكان.

صمتت نشمية، ثم سألت بمكر:

- ورفيچچ، محروس بالله، اش يشتغل؟

أجاب حسين:

- نجار، بس من صلك!

- قالت الخالة نشمية:

- ديين، محروس بالله.

والتفتت إلى تماضر وقالت:

- ولأهلچ. . ماكورجعه؟

- خالة نشمية، بعد هاي هي . الامل اللي يريدون يبيعوني لا اعرفهم ولا يعرفوني

- هذا يعود اليج . بس اريد اعرف . وبعدين اطلع موخوش آدمية . ش تكول، محصن بالله؟

اجاب حسين :

- خالة نشمية، آني انجير . من الشمغل للبيت .

- اذا هيجي ، اكدر اطيكم ذيج الحجرة الفارغة . الحوش بيه حجرتين . حجرة الكم ، وحجرة الي . تعالوا شوفوها .

ونفضت من التخت . وقالت قبل ان تتحرك خطوة :

- بس اريد اكول الكم شي . . الدجاج تره ماجوز منه ! اش عندي بالدنيا غير الدجاج !

قال حسين مبتسماً :

- خالة نشمية ، البيت ماليج . ان شا الله تربين طيور .

أمت الخالة نشمية ، وقالت وهي تتحرك نحو الجانب الآخر من اللوان .

- طيور؟! . . ياريت !

واطلقت زفرة . وتدحرجت لتريهما حجرة مستطيلة مبلطة بالطابوق يتدلى مصباح كهربائي من وسطها . وعلى بابها اتفاقاً على الايجار . قالت الخالة نشمية :

- آني حالفه يمين ما أجّرها لأحد . بلاكت الله غفور رحيم يعرف شكو

بكلي . . . آني اعرف دكايبك الامل . يريدون يكسرون رغبة البنية مثل ما كسروا

أهلي ركبتي ، وآني بنية مثل الكمر . بلاكت شوفتهم نجوم الظهر . وذاك الوكت

خوب مو مثل هالوكت . البنية ما چانت تكدر تفك حلگها . والمريه هسه تطلع

بالجادات .

ضحك حسين وقال :

- وتروح للسینمات .

فحدجته تماضر بنظرة . وقالت نشمية :

- اي عيني ، محصن بالله . كل شي تكدر .

قالت تماضر :

- خالة نشمية متغیر شی . .

ردت نشمية

- لا، عيني، لا.. ليش احنه مدا نشوف!
وضحكت ضحكة ذات معنى

- ٦ -

- سليمة خاتون!

سمعت سليمة هذا النداء على غفلة منها، في لحظة غياب ذهني بعد أن ارمضها طول الانتظار، وسحقت صبرها ايام ثلاثة ثقال.
كانت تقلب الرز في موقد من التئك قرب التنور الهامد. وعرفت صاحب النداء في الحال. ومنْ ينعم عليها بلقب «خاتون» غيره؟ القت «الجفجير» من يدها. وقالت بقلب خافق:

- منو، عيني، منو؟

- آني مصطفى.. نسييتني؟

ولم تعرف هل تفتح الباب رأساً أم تترث متظاهرة بعدم المبالاة. ولكنها خافت ان يراه احد في الجانب الآخر من الباب. كانت هي وحدها في البيت. فتحت الباب فمسأها بالخير. وقادته عبر الحوش، واجلسته على الجاون. كان الوقت عصراً. والشمس تلون رؤوس الحيطان. وتمنت من الله ان يبعد شر حسين عنها. وجلست أمام مصطفى جلستها الأولى: الجسم ملفوف بالعباءة، واليد محشورة تحت الفوطة، والقم العريض مطبق، والعينان متدثرتان تحت جفنين سميكين.

- آني متأسف، سليمة خاتون، أناخرت عليج.

قالت:

- لا، عيني، يس خليتني بالواهس.

فهز رأسه وقال «حقج!». ثم القى نظرة عريضة على التنور، وقال:

- يبين ممشتغله اليوم.

لم تقل شيئاً عن ليالي سهادها، عن اللهفة التي زرعها في صدرها. بل قالت له كما قالت للناس الآخرين:
- أها!.. إش حالي؟

- خير، ان شا الله !

- صحتي، ابو ابراهيم، تلف

ثم استدركت وهي لا تريد ان تُبدي ضعفاً امامه :

- الانسان خوب مو مكينة يشغل اربع وعشرين ساعة . لازم يستراح .

قال مصطفى :

- حتى المكينة لازم تستراح .

ونظر إلى المكينة في خبث، كانت مكورة امامه سوداء من طول ما اخترقت،

لا يرى منها غير عينيها الخربتين مثل مقياسين من مقياس آية مكينة تالفة .

وخلال ذلك، أثبت سليمة نفسها على قولها الذي بدا ليس بصالحها

فقالت :

- باجر راح ارجع للخبز . . عيني، ليرحون يسحبون الاجازة مني . . وهي

مدا تتحصل الا بالبراطيل .

وانتظرت مفعول كلامها فيه . ولم تكن النتيجة مشجعة . بدا لها بارداً بطيء

الحركة، معقود اللسان . وكانت تريد ان يقول لها فوراً ماذا جاء به لها . ولكنه ظل

على بروذته، ولم يحل كلامها عقدة لسانه . خلع سدارته الشبيهة بسدائر اليهود،

طويلة يبرز طرفاها من امام ومن وراء . ووضع السدادة على فخذه ومسح صلعته

بظهر كفه، واخرج سبخته وعلبة سكاثره بحركة مزقت اعصابها . وقال ببطء قاتل :

- آني تأخرت عليج . . بلاكت النبي عليه الصلاة والسلام قال لتستعجلون

فان العجلة من الشيطان . والآية الكريمة تقول وعسى ان تكرهوا شراً وهو شر

لكم . . الحاصل كل تأخيري وراه خير .

فاتجهت اليه بكل جوارحها . فتحت قوقعتي عينيها اللزجتين، واخرجت يدها

من تحت الفوطة . ولاح الترقب على وجهها المنتفخ عارياً من كل خبث . وانفجج

فمها العريض في بلاهة وكأنها تريد ان تتلقف كل كلماته، وتمسكها بين اسنانها .

وحسد مصطفى ذلك فأطال صمته، وانشغل عنها بلف سيكارته حتى خانها

صبرها، فقالت برعونة :

- وهسه صارت؟

ضحك ضحكته المكركبة، وقال بثقة :

- صارت ونص .

- إي !

وفي « إي » كشفت عن كل تلهفها، عن سهادها وانتظارها الممض . قالتها بقوة وكأنها تطلق زفرة كانت تجثم على صدرها .

- خاجيك ما يجان متأكد راح يشترون منه الانكليز صمون لو لا .

- وهسه ؟

- وهسه متأكد . البارحة جاء له كتاب من الضابط الجبير أبو سبع نجمات . يوميه الف صمونه . والحبل عالجرار . سليمة خاتون ، الله رايد ليج الخير .

رفعت سليمة خاتون جفنيها السميكين في محاولة فاشلة للنظر إلى السماء دون ان ترفع رأسها مخافة ان تكشف عما في سريرتها . ولكن التلهف كان مرسوماً في كل ثنية من ثنايا وجهها . ولم يكن هناك ظل لرية .

عرف مصطفى ذلك فقال لها :

- ان شا الله الفلوس حاضره .

وعلى ذكر الفلوس خفق قلبها، وساورها شكها الموروث فقالت :

- بس مولازم اشوف خاصيك ؟ مولازم اعرف اشلون ؟

قال على الفور :

- لازم . . لعد اشلون ؟ قابل تذبين فلوسج بالشط ؟

- اي ، عيني ، احسن .

- اذا تريدن باجر الصبح آخذج عليه لذك الصوب .

وفي صباح اليوم التالي ذهبت معه إلى « ذاك الصوب » . وبعد الظهر كانت فرحة نشيطة مثل صبية في ربيعها السادس عشر، تتحدث كثيراً، وتشمربيدها، وتضحك، ولا تستقر في مكان .

كان التنور ملتهباً تخبز عليه بدرية بنت اسومه العرجة . وكانت الفتاة تشكو من المعجين « التلف » الذي يسيل من بين يديها، ولا يلتزق بالتنور . وكانت خيرية زوجة رزوقي قد جاءت من الخان، ورفضت الجلوس قائلة « الانسان من يكد يدبك ! ووقفت منفرجة الساقين كالبرغال حتى تسمح لمزيد من الهواء بالدخول بين ثيابها . وكانت سليمة الخبازة منصرفة عن « تلف » المعجين، ولزوجة الحر إلى سرد جانب من رحلتها الميمونة إلى ذاك الصوب .

- عيني ، خيريه ، هاي بغداد اشلون صايره ؟

قالت خيرية وهي تمسح العرق من وجهها الاحمر؟
- اي، عيني، الحكومة الله يسلمها خوب مو مقصره؟ واحد يحجي الحق.
هالجادات العريضة، والقصور الحلوة. والحدائق اللي ترد الروح، والسيارات. . .
فأتمت سليمة:

- والانكليز، والسليك مالين الدنيا.
وكانت قد رأتهم بأم عينيها ما ان غادرت حبيها القديم. كانت سياراتهم تنطلق
في شارع الرشيد مجنونة، وجوهم حمر، وشعرهم اشقر. . . كلهم زبائنهم. . . رأت
بعضهم يتجمهر عند باب سينما الوطني. «كب، تب، بب» هكذا كانوا يרטنون.
وفي الارض الفضاء مقابل الجسر الجديد رأت الكركة والهوند جالسين على رفار
سياراتهم أو واقفين «يكركون» سود الوجوه، مستديرو الرؤوس، حليقو الشعر،
وأحياناً، بلحي تكفي الواحدة منها لحياكة عباءة.
سألت خيرية:

- عيني، ام حسين، ليش وين رحت اليوم.
- رحت للقسطخانه اداوي عيوني. وشفت اللي شفته.
شافت الجسر الحديدي الذي لم يهتز أو يتأرجح بها مثل جسر الكاظم.
وكانت السيارات رايحة جاية. وشافت الصالحية. وابو حصان فيصل. وركبت
سيارة ام العانة، ومرت بجادات عريضة، وحدائق واسواق، وأناس بعدد النمل،
وكانت تحسب كل بيت مهيب جامعاً، وكل حشد من الناس سوق هرج، وكل دخان
تنوراً. وكان مصطفى إلى جانبها يحدثها عن بغداد، ويدلها على الأماكن حتى
داخت، واوشكت ان تفرغ ما في معدتها في حضن رجل مقابلها. واختلط عليها
كل شيء، واصبح رأسها مثل صندوق الولايات. وأذت الشمس عينيها فدمعتها،
وغشت الدموع على كل شيء. الا ان عينيها في هذه اللحظة كانتا صافيتين.
نظرت خيرية اليهما فلم تراثراً لقطرة، فسألت ملحاحة:

- اسم الله على عيونج. . . ليش اشيها؟
قالت سليمة وهي تكبت موجة فرح جديدة:
- شرح! ليش التنور يخلي عيون سليمة؟!
قالت الفتاة وقد حركت جوف التنور فالتهب
- لو مو التنور چان شكلوا الناس؟ هالصارن الأسود اللي يلعب النفس؟

تضايقت سليمة فقالت :

- الخبز مو احسن من الصمون . . آني خبازة واعرف .
وكانت تعرف ماذا تقول . منذ اليوم اخذت تؤمن بالصمون ايماناً عنيماً . آمنت
به منذ أن خرج خاجيك من الفرن مثل فأر خارج من كيس الطحين ، صغير الجسم ،
مثلث الوجه ، يهز رأسه كثيراً . وبعد ان وقفوا قليلاً في الطريق دعاهما إلى الفرن .
وكان الفرن جهنم فاستجاروا إلى حجرة ضيقة لصيقة به ، وتمت الصفقة خلف بابها
المغلق . في البدء خافت سليمة الخبازة حين اغلق مصطفى الباب عليهم ، وعرق
وجهها حياء . ولكنها ، بعد خمس دقائق ، ايقنت من ان اغلاق الباب كان ضرورياً .
قالت مدافعة عن شغلتها الجديدة :

- الصمون يتباع اكثر من الخبز . . عيني الناس تمدنت .

قالت خيرية مؤيدة :

- صدك . رزوقي ، الله يسلمه ، ما ياكل الا صمون . والمدير ماله ، ذاك
المدير الجمار اللي الله يرضه عليه ويفتح له قصر بالجنة ، ما ياكل الا صمون . .
اي ، ، عيني ، الموظفين ما ياكلون الا صمون .
ركبت الفتاة رأسها ، وشمرت يدها وقالت :
- والله لو اموت ما آكل صمون . . إخيّه !
- ليش والله ، ورزوقي يجيب النايومية من الدائرة صمون عبالك بالوته .
وبلغ الغضب بسليمة أشدّه ، واندفعت إلى غرفتها واخرجت لخيرية صمونة
مقطوعة من رأسها :

- شوفي هالصمون . . ياخبز احسن منه ؟

- اي ، عيني ، الصمون للمحتشمين . احنا موظفين ونعرف . . الحكومة الله
يسلمها تسوي ميتين فرن ، ولا تسوي تنور واحد .
واصرت سليمة :

احنه نظل بهالعقل ؟ ذوكي . . عليج الله ذوكي . .

وكانت سليمة قد ذاقته من قبل ، وهي في الغرفة . جاءها خاجيك بهذه
الصمونة من فرنها طازجة حارة تنهافت بين يديه ، وأطعمها اياها قائلاً
« . . ذوكي ! . . ! اشلون صمون احنه نسوي »

قالت فخرية :

- لا، عيني، عبالك شكر لمة!
ولكن الصغيرة ظلت مصرة. عندت عناداً شديداً اتعب سليمة الخبازة،
واتعبها ايضاً. وجعلها تنصب عرقاً.
- خليه بالجاي شويه، وشوفي اشلون يصير حامض.
ضحكت خيرية ضحكة مكتومة، واشاحت بوجهها لتخفي ضحكتها.
ونظرت اليها سليمة بعتاب. كانت الفتاة تقف امام التنور في ثقة، وفي عينيها بريق
تحد، وشفاتها تحفران لتقولاً شيئاً.
الا انهم سمعوا صوتاً من الشارع ينادي خيرية، فلوت هذه رأسها نحو
الباب، وقالت في اعتزاز «شوفوا، عيني، مثل الولد الجاهل، من يجيء من الدائرة
ما يكدر يقي دقيقة من غيري.
وخرجت مستأذنة، ولمع ذيل ثوبها الاخضر في وهج الشمس عند الباب.
كانت عباءتها قصيرة تنحسر عن طرف ثوبها، وعن ساقين بضتين.
جلست سليمة الخبازة على الحصير. كان الحصير حاراً. هزت عجيزتها
عليه بخفة الفرج، ولذة الانتصار. وكذلك كان خاصيك خفيفاً مرحاً، رجلاً قصير
القامة، ضئيل الجسم، ارميا ابن ارمي. تكلم بصوت عصفوري عسر عليها أن
تفهمه. ولكنها فهمت حين تحدث عن الافران والانجليز. كانت الافران، زمن
العصملي، قليلة. ولما دخل الانكليز دخلت معهم، مثلما دخل تمثال الملك
مود، وابو الحصان فيصل. وصار الناس يأكلون الصمون اسوة بالانكليز. والصمون
خلق للانكليز، وللمحتشمين، وحتى للذين يريدون ان يكونوا محتشمين. وصدقت
بالكلمات التي قالها خاصيك، وفسرها مصطفى. في محلتها لا وجود للانكليز،
ولا للمحتشمين واهل محلتها، لهذا السبب، يتمسكون بأكل ارغفة الخبز بشكل
عنادي، ويعتبرون الصمون أكل النصارى. تعودوا على ثريد «الباجة» ونقيع
الباقلاء، واتخذوا الشاي اداماً للخبز، واتخذوا الخبز اداماً للبصل، بل وأكلوا الخبز
بلا ادام غير الماء. ذلك لانهم لا انكليز، ولا محتشمين، ولا يريدون ان يكونوا
محتشمين. ولكن الحرب ارسلت إلى بغداد الانكليز، والهنود والگرگه والسيك،
واصنافاً اخرى من خلق الله. وتمدن الناس قليلاً، وصارت ارغفة الخبز عجيباً اسود
مثل صمون السجون. نخالة نوى وتراب. وما زال اهل محلتها مصريين على الخبز.
الا أن فرنها ليس في محلتها، قرب حمام سيد رؤوف، ولا بعكد المعدان، ولا

بالعوية. . بل بذاك الصوب. !

ولاح الرضا على وجهها. ونسيت حرارة الحصر الذي فخرته الشمس.
وفكرت بخاصيك. كان عاقلاً، وخجلت أن تكون «معيدة» ومشايقة امامه، وهو
جالس وراء الطاولة، وامامه دفاتر طويلة، واقلام، مثل احسن مأمور بلدية. وسلمته
الثلاثين ديناراً. فتناولها مصطفى بسرعة:

- اشو اكتب سند للخاتون.

قال خاجيك بصوته العصفوري:

- آني يكتب بالارمني. . . شيعرف عربي!

اعترض مصطفى «الله يرضى عليه»

- لا، لازم بالعربي، الخاتون متعرف الا بالعربي

قالت:

- لعد شتريدني اعرف، مسقوفي؟

وكتب مصطفى ورقة بقلم جبر لا بالبصمة. وآمنت، واستعملت «اي،
عيني!» كثيراً. وعاد بها مصطفى إلى الصالحة. سألها قبل ان يودعها:

- ندليتي الطريق؟

قالت كاذبة:

- موكلش

- مرة اللوخ تندلين كلش زين.

- عيني شسم المحلة؟

- الارضروملي

وتعذر عليها نطق الكلمة فتحولت في لسانها إلى «الرضروملي» ثم انقلبت
عند الجسر إلى «الرضوملي» وعند سينما الزوراء إلى «رضومي». وهي الآن تفكر
أهي رضومي أم رحومي؟!

ولكنها الآن تملك نصف فرن. والحقيقة انها لا تعرف أتملك نصف فرن،
أوربعاً، أو سبعاً. الا انها شريكة في فرن وكفى!

سمعت بدرية تقول:

- هذا اشلون عجبن عيني؟. . . ميتلزم بالايدي.

ورأتها تخرج خبزاً مقطوع الاوصال، مكوراً كالصمون. وقالت للفنّانة:

- آني أخليه بالتنور، وعبالك شكر ويموع .

قالت سليمة في انفعال شديد:

- يعني الصمون مو اشرف؟ احنه نظل بها العقل؟

نظرت اليها الفتاة نظرة شاردة. كان وجهها شاحباً، وفي عينيها ظل لحيرة، وشفثاها الرقيقتان منضمتان في عناد. وتحولت إلى التنور تخرج منه كتلاً من العجين هي مشاريع فاشلة لأرغفة خبز. وارتجفت الشفتان في اختلاجة، وادارت وجهها إلى سليمة متوجعة:

- هذي آخرتها؟! آخرة التعب. اشراح اكول لامي؟ أوف، خالة سليمة، لو تدرين اشلون حصلت عالطحين. لجنان بجيتي عليّ. طلعت من الغبشة، والضوايات بعدها ممطوية، والدرايين ما بيها الا الجرخجية اركض حتى اوصل للعلوة ساعة كبل. ولما وصلت شفت الناس نايمين بالكعك، بايتين من البارحة. وكعدت إلى أن فتحوا العلوة. وبدا التدفع والصياح والهريسة. وانكسرت عظامي لما حصلت جارك طحين. وأجي اخبزه يطلع هيحي .

قالت سليمة من طرف لسانها:

- ما ادري الله اش راح يسوي بالنديا

وتابعت الفتاة كلامها:

- وتكولين عالصمون!.. الصمون مو أحسن من الخبز. هذا فرن سينما الزوراء. تكعدين ثلاث ساعات يله تحصلين صمونتين ثلاثة، صمون السجون أحسن منها.

- ٧ -

كان مصطفى أحمد من اصل كوفي جاء إلى بغداد وهو فتى في العشرين من العمر مؤملاً فيها مغنماً، وحية عريضة. وتقلب في اشغال شتى، وجاب بغداد رصافتها وكرخها. ولكن مسعاه كان ينتهي دائماً بالخيبة والخذلان، في اللحظة التي يحسب فيها أن نجم سعوده يوشك أن يطلع. وكانت كل خيبة تترك جراحاً في جسمه وروحته. اشتغل مصطفى، ضمن ما اشتغل، في علوة للمخضرات، وتسلق، من مجرد كاتب يسجل الخضروات، إلى وسيط لا غنى لكل تاجر عنه. ولما اوشك ان يصبح تاجراً رفسه حصان كان يحمل طماطما حتى كاد يفري مثانته،

واصاب الشلل مصطفى فكان يحمل في نقالة . وصرف كل ما جمعه على الاطباء . وقضى فترة من الزمن عاطلاً حبس البول ، محني القامة . وفي تلك الفترة اصابه ورع فجائي ، وتقوى جعلته يغشى مجالس الذكر والدعاء على الحسين حتى حفظ بعض الآيات القرآنية هي الآن ذكرى من ماض سقيم . ولما اعتدلت قامته اشتغل في كراج للسيارات يسجل صناديق البضاعة ، ثم دلّالاً . وفي تلك الفترة تعرف على عليوي زوج سليمة الذي كان صاحب سيارة . وتعلم مصطفى السياقة ، بل واشترك مع رجل آخر في شراء سيارة عمل فيها زمناً في طريق بغداد - الكوت ، وبعدها احتال على شريكه فاشترى حصته ، ووضع أول قدم في طريق الغنى . الا ان النكبات توالى عليه . تصدت له كوكبة فرسان مسلحة ما بين العزيمية ونقطة الشادي ، وأوقفته عنوة ، وسلبت فلولسه وفلولس ركابه السبعة ، وشقت بالخناجر اطارات سيارته . ومرة غطست سيارته في الوحل قرب ديالى ، وتفرق الركاب يخوضون في الوحل إلى أقرب مكان مأهول خوفاً من أن يجمد البرد اوصالهم وأصرّ هو على ان يبات في سيارته ، وقضى ليلة ليلاء في العراء الزمهريري حتى اصيب بالحمى ، ثم بالتيفوئيد . وباع السيارة بثمن بخس . وجاءت فترة بطالة انتابته فيها نوبة ورع ثانية انتهت حين اشتغل عند الانكليز كسائق لوري . وهناك ذاق الويسكي ، وطعم المعلبات يشترىها من الجنود الانكليز المفلسين حتى ظفر به ضابط محملاً بالمعلبات حمولة تكفي سرية كاملة من الجنود فطرد ، وعانى البطالة مرة أخرى . ولكن عمله في الجيش البريطاني دلّه على تجارة رابحة لا تكلف غير رأسمال متواضع ، واستخدم ذكي لبعض ذوي الصلات والخبرة بالجيش الحليف . وكان خاجيك من هؤلاء .

التقيا بعد يوم واحد من زيارة سليمة الخبازة لذلك «الصوب» . وكان اللقاء في مقهى في الشوكة يتردد عليه عاطلون يلتقطون اي عمل عابر لقاء وجبة طعام ، وسواق سيارات ما زالوا وراء مقادير سياراتهم ، وآخرون يحملون بها . وكان المقهى خالياً حين جلسا ينتظران حتى سمعا خرخشة الساعة المعلقة على بعد ذراعين من مجموعة السماورات . وكان مصطفى متمالك الاعصاب رصيناً بادي الثقة بعكس خاجيك الذي بدا متوتراً ممتنع الوجه يكثر النظر إلى الساعة . طلب مصطفى ماعون كباب والتمه بهم ، ثم طلب شاياً «يكعد الرأس» ولما فرغ منه دقت الساعة الواحدة وبعدها بقليل جاءوا .

في البداية جاء شاب قصير بلا رقبة يشمر ردني ثوبه الازرق عن عضلتين مفتولتين، وسلم وجلس إلى جوار مصطفى. فنظر اليه خاجيك بعينين قلقتين وسأل:

شنواخبار؟

- كل شي زين.

الا ان مصطفى نظر في وجهه وسأل في ثقة:

- شفت المستر كلاب؟

- اليوم الصبح وصلته لمعسكر الرشيد.

- اي؟

- احنه متفقين.

مدّ خاجيك عنقه وسأل في تطلع:

- هو يشتغل بالمخزن إلى هسه.

قال الشاب:

- لا، بلاكت شعليك؟ . . . جيب فلوس اشتري لك معسكر الصالحية كله.

هزّ مصطفى رأسه وقال:

- هاي معروفة. . . ميراد إلها روحه للقاضي.

وبدأوا يتوافدون على المقهى واحداً بعد الآخر. سواق سيارات ما زالوا وراء

مقاود سياراتهم. وكان على كل واحد منهم أثر من الجيش الحليف: قميص أو

بنطلون أو حزام أو حذاء خاكي اللون.

قال احدهم وكأنه يهدد:

- والله، عرش الملك. . . عرش الملك همينه.

- اش بيه عرش الملك؟

- اقدر اشتريه. . . عاد شكر وجكاير وملابس وويسكي.

قال مصطفى:

- لتطلع حسك.

وبدأت العملية في اليوم التالي. جلس مصطفى في مقهى في الشواكة.

وارسل خاجيك في مهمة تسلل إلى الذين بأيديهم مفاتيح المخازن. ونجحت

المهمة. وبدأ السواق يتوافدون تقف السيارة على بعد من المقهى حيث لا يراها

أحد . وينزل السائق منها ويناول البضاعة ملفوفة . وعند العصر تحولت دنائير سليمة الخبازة الثلاثين إلى سيكائر، وشاي، وسكر، ومعلبات وويسكي سكوتش . وتجمعت البضاعة أمانة في دكان حلاق . وفرك مصطفى يديه وهو ينظر إليها متشياً . وساجى نفسه : خلي ابدأ من جديد ، واشتغل بعقلانة ، وما خليها تفوت مني . ايه يا دنيا آني الچ !

وقبل ان تدلف الشمس إلى خدرها دلف مصطفى وخاجيك إلى حانة قرب سينما الملك فيصل الثاني في جانب الكرخ . كان النهار في خارج الحانة . وكان الليل في داخلها هماً . الموائد حمراء مثل عيون محتقنة ، مبتلة وقذرة عليها أكوام من القشور واعقاب السيكاائر ، وفضلات كؤوس مراقبة . وكان الساقى يروح ويجيء بين الموائد والمنصة حيث وقف رجل اصلع مدبب الانف . واستقبلهما الساقى بترحاب . واختار لهما مائدة فرش عليها مفرشاً جافاً . وسأل مصطفى :

- اشو اليوم خبصه؟ . . الليلة موليلة جمعة .

قال الساقى ولهجته لا تنم عن شكوى :

- عمي ، يايوم ما بيه خبصة؟

جلسا على كرسيين متقابلين . واحنى الساقى رأسه متسائلاً فقال مصطفى :

- نص اليّ ، وربع للأخ من الأصلي

قال خاجيك معترضاً :

- آني يشرب نص ربع

- نص ونص ربع ، ومزة من اخ لأخوه

قال الساقى :

- تؤمر ابو ابراهيم

ارتفع صوت مكروب بأبوزية من اقصى الحانة . وكان بالقرب من البار سكران

يترنج ويجادل بنوعية العرق الذي قدم له . وكان دخان السيكاائر الذي تنفثه الافواه

يظل معلقاً فوق الرؤوس لحظات ثم يتصاعد ببطء نحو المصابيح .

جاء لهما الساقى بالمشروب ، وبطائفة من الصبحون الصغيرة صفها على

المائدة الحمراء .

قال مصطفى :

- عاشت ايدك . . لو هيچي المزة لو متراد .
- على بختك ابو ابراهيم . . هذي كل الاصناف اللي عدنه ، وخل يموت ابو
خشم الدرنفيس
قال مصطفى وهو يرفع زجاجته من عنقها كطائر اسود ذبيح :
- بس الثلج وازنه بالمثاقيل .
- ابو ابراهيم وين اكو ثلج هالايا . . اسأل عالخام ولا تسأل على الثلج .
- زين روح جيب إلهه فصين ثلاثة
- على كيفك وبياه ، وكل شي يجرى لك .
وانسحب الساقى . افرغ مصطفى ثلث زجاجته في قدحه . ووضع قطعة ثلج
بتؤدة ، وصب على الكأس ماء فلاحث الخمرة بيضاء مزرقه يلوح الثلج من خلالها
مثل قطعة بلور . ورفع الكأس بمحاذاة حنكه ، وقال :
- يله ، ابو فلان ، صحتك
بدا خاجيك يهيء كأسه بيد مرتجفة . كان كما رسمته سليمة الخبازة ضئيل
الجسم ، مثلث الوجه . وانسلت الخمرة في حنجرتة لاذعة فشمها في خياشيمه .
وقال مصطفى بعد ان تسلق ضباب إلى اليافوخ :
- اليوم خوش بدايه بدينه
- معلوم ، انت ميصدك .
- هاي شنو منك أبو فلان؟
- شنو شنو؟
- يعني لو ما الفلوس اش تكدر تسوي؟
- انت يروح ويعجي عالفلوس .
- لتسوي قنزّه ونزه . . لو مالفلوس ما صار شي . . صحتك .
ايتم خاجيك مسيراً وقال :
- مو كل الفلوس على راسي (يعني ليس بالفلوس وحدها تسوي الامور)
- شن هاي منك ابو فلان؟ يعني احنه ما خاشين ما طالعين؟ انت صحيح
تعرف مستر كلاب وجم واحد . . بلاكت آني هم عاجنهم وخابزهم . عندك درهم
يقدروك على كده . سيد خاجيك الدنيا واكفة على فلوس مو على كرن ثور . . وانت
شم عرفك اشلون رحت على كرايبي ، وسويتها مثل البرغوث المفروك؟ تركض

والفلوس شادتها بالفوطه . وآني خوب ما راح انسه فضلك؟ كل شي حساب
وكتاب . . صحتك!

ورفع كأسه ، ورأى عيني خاجيك الحزيتين . كان خاجيك عابس السحنة ،
ينظر اليه وهو يعب الخمرة اللاذعة بيسر فقال :
عباك يشرب ماي .

- وهذا هم تحسبه عرك؟ . . مغشوش . . الله وكيلك كل شي بالدنيا مغشوش
وكان يشعر بخدر العرق مثل جيش من النمل يتمشى في اوصاله . واستقر
رأسه على الحائط ، وراح يفكر بالدنيا المغشوشة . نظر إلى نقطة معينة من السقف
ومرت سليمة الخبازة في ذهنه . ماذا تفعل الآن؟ ساءل نفسه ، وبماذا تفكر؟ ألعها
ستعود إلى الخبز لتكسب موردين في آن واحد ، أو تخلد إلى الراحة مؤملة أن يدر
لها فرنها في الارضروملي ، أو الضرروملي كما سمعها تقول . ومن يدريك ! فقد
تنسى الاسم رغم أن خاجيك ليس في الارضروملي . . كل شيء جائز . ما دامت
تحسب بيت السويدي جامعاً ، وحشد العاطلين امام المفوضية الانكليزية سوق
هرج ، وعربات القير تانير . والتعامل معها أسهل . وسرته النتيجة ومّر العرق على
ظهره لمسات عاطفية . فخاطبها . . هلو سلومي ! خاطبها مغمض العينين ،
مسترسلاً مع خدر العرق والعاطفة ونشوة الظفر . سويتي نفسج متعرفيني ! عجب!
متذكرين لما چنت آني وعليوي نسكر بالظلمة بالسطح ؟ عجب ! انسي احسن ،
وخليني يفكرچ ابو سبعة سودة ، قاري قرعان . چتتي مثل الحزوره ملفوفه بعبايه
سوده ، تحچين ، وأنت يم الدرج ، يم الجداري والمواعين وحسين مكسور الركبة .
واحنه نشرب العرك يم الطوفة . وكان يحملق ، آنذاك ، في الظلمة ، والخمرة
تخشب عينيه . كان لا يرى غير قامتها الفارعة تروح وتجيء هناك . وكان يحس
بالسطح يهتز تحت قدميها الحافيتين في رنين بديع فيتخيلها لابسة خلخالاً . وكم
تمنى لو رآها سافرة . ولكنه رآها يوم دفنوا عليوي . . . اوه ، انه لا يريد ان يتذكرها
بتلك الصورة لا يريد .

وهز رأسه نافياً الافكار . وفتح عينيه ، ونظر إلى كأسه الفارغة في امتعاض ،
فادهقها ثانية وشرب نصفها

وسأله خاجيك :

- الغراض يبقى عند جاسم المزين ؟

قال مصطفى :

- لا ، لازم نشوف إلهها مكان أمين .

قال خاجيك :

- بالبيتى

ضحك مصطفى ضحكة مصطنعة وقال :

- يامعود، لحلك السبع؟

- ما حد يكدّر على انت

- العفو، مستر خاجيك، بس الانكليز زعلانين عليك شوية .

وفكر، وكان التفكير غائماً كالحلم . واجتاحه فرح عفوي أت من لا مكان ،

ولذة استرخاء . وعاد يفكر بسليمة مرة اخرى . نظر إلى خاجيك وهو مسترخي

الجفنين ، ثم فتح عينيه المحوصلتين وقال :

- گرايبي وأنى أعرفها

- انت يروح ويجي على گرايبيك

- ماكو احسن من هالمكان ، حوش چبير وهي وابن رجلها، ولو ما ادري شنو

حسبته ، و . . . واكو حجرة فارغة .

وأسند رأسه إلى الحائط فرأى للمصباح قروناً ضوئية . وفكر . محلة أمينة لا

يعرفها أحد ، وسليمة كنز لا يفنى . الدينار يجيب عشرة ، وارتاح لذلك ، واعتدل في

جلسته فقابلته وجه خاجيك العرق فقال له في انفعال :

- خاجيك ليش زعلان؟ قابل عندك أحسن من هالمكان؟ محلة مستوره ماكو

بالدنيا أحد يعرفها . انت سامع بصبايغ . . . المثقال؟ . . سامع بطولة حاج . . .

رشيد . . . خاجيك أنى اعرف ذيجي الصفاح . . احسن منها ماكو، محلة محشوكة

بفد زوية . وأهلها ملتهم بلگمتهم . وميعرفون اش يعجري بالدنيا . لا يعرفون

عمك شرشل ، ولا ابن خالك هتلر .

وشعر بارتخاء مخذول ، وكسل عن تحريك لسانه . وانسحب إلى عالم

افكاره حتى اخرجه منه صوت بالقرب من اذنه :

- أنى اعرفكم منو . . من جماعة هتلر . هيع .

نظر مصطفى إلى يساره فرأى رجلاً قصير القامة ، ممتلىء الجسم ، متهدل

الجزاوية كان يمس قرب المائدة ، ويتفوق بدون انقطاع .

قال مصطفى في صوت ممطوط :
- يا معوذ . . هالطلابه شلك بيها؟
قال السكران بعد أن ماس ميستين :
- يعني هاي هم يريد لها روحه للقاضي؟ هيع . . هسه
قال خاجيك بارتباك :
- دير بالك . . يحجي حجي !
وكان السكران عثر على لقطة . ماس ميسة واحدة واستدار نحو خاجيك ،
وحدق به لحظة متكتأ بيده على الطاولة وقال وهو ماض في تفوقه :
- عينا . . هيع . . نواية ومقسومة قسمين . . . شكلك شكل هتلر هيع ،
هالحنج ، وهالعيون ، وهالهيع النازل على الكصة ، وهالشوارب السوداء . . لتنكر؟
هيع !
نهض مصطفى وأطل على السكران من عل :
- ليش تبلي الرجال بطلابه؟ . . هو وهتلر شنو؟
رفع السكران اليه عينين حمراوين وقال من أقصى حنجرته
- واشدعوه تنكرون؟ تخافون ، هيع ، يروحون جلدكم للدباغ؟ أشوا الفاومثل
حمام العليل ، هيع .
جاء صاحب الحانة على الصوت يخفق كرشه أمامه وقال :
- ابو فتوحي ، اش بيك اليوم دتعارك؟
قال ابو فتوحي بصوت مخن :
- مادا اتعارك ابو رمزي . . هيع . . بس ميعجبني واحد هيع يخاف . . نازي ،
هيع ، يگول نازي . . شيوعي يگول شيوعي . . اروح فدوه لهالخشم اللي عبالك
رحاتي . .
كان صوت السكران یرن في الحانة المستطيلة كلها . فتحولت اليه الانظار ،
وقال احدهم من أقصى الحانة :
- اش دعوه مخششين راسكم بالعليجه؟
فنفى ابو فتوحي ذلك قائلاً :
- كل عليجة ماكو . . بس الأخ ، هيع ، يشبه هتلر .
قال مصطفى :

- وانت تشبه موسوليني !
فارتاح ابو فتوحى لهذا الشبه وقال منتشياً :
- ارجوك، خلي جلدنه ساتر عليه
قال مصطفى :
- كل الطليان لها الطريق
وتفوق ابو فتوحى وفوت عليه فواقه فرصة الرد . فعاد مصطفى يقول :
- روح اشرب لك كاس حتى تروح الشهيكة
قال ابو فتوحى :
- يعني نجوز من الحسبة؟
فنعق احدهم من مكان قرب المنصة :
- حي العرب
قال صاحب الحانة متوسلاً بمن حيا العرب :
- سيد مختار، دخيلك
فزق آخر من وراء صاحب الحانة
- ظلمت حي العرب، وجنود هتلر يتراكمون كدام الجيش الأحمر مثل
الغنم؟
فالتفت صاحب الحانة في رعب :
- ارجوك خليها سنطه
قال له السكران في مرج وهو يهزّ له اصبعاً عرجاء :
- كل الصوج من عركك . . طابور خامس!
وقال سكران آخر لم يرد ان تهدأ الضجة .
- يعني، هيچي، يروح هتلر بوله بشط؟
حاول ابو فتوحى ان يحتج فتفوق . فقال الذي اعترض على «حي العرب»
- النصر لنا، ولحلفائنا . . نخب الجيش الأحمر.
فظل صاحب الحانة يدور برأسه ذاهلاً، ويهدى زبائنه بحركات عصبية
قصيرة من يديه، فقال ابو فتوحى مغتاضاً :
- هاي شيفلها وياك؟ انت بيا صفحة؟ اشو هتلر تخاف منه، ومن الجيش
الأحمر ترجف . . يعني شنو مقصودك؟ نخب ابو صماخ؟ لا سيد، الرزق عالله .

صاح ابو «العليجة» بصرامة هذه المرة:
- خاطر الله، اشبيكم مخبوصين بالسياسة؟ فكروا بالتموين، بالغلا الاسود،
وبالطحين المغشوش، والصابون، بالشخاطة اللي اشتريتها اليوم بسطعش فلس.
رضى مصطفى بهذه الفكرة وقال:
- بنا موسي تمام.
فقال الذي شرب نخب الجيش الأحمر:
- صدك، خلصت كلوبنا من الحرب. . ياربي اش وكت يموت هتلر، وتفرج
علينا.

- ٨ -

قبل ان ينزل مرهون من السطح ليعد الخيول والعربة للمرة الاخيرة صعد
الطابوقتين الموضوعتين في اسفل الطوله الفاصلة بين الطوفة وبيت سليمة الخبازة،
ونظر، ورأى السطح فارغاً الا من حسين وتألم. كان بحاجة إلى ان يتحدث اليها،
إلى تلك التي كان ساعتها التي لا تؤخر ولا تقدم. فهذا اليوم الاخير من حياة الطولة
يأتي، وقلبه مملوء بالشجون، وهو وحده مع الخيول والعربة.
اشرب ونظر إلى صحن الدار فراها مقرصة هناك قرب النخلة القيمة
حاضنة ركبتيها بين يديها، تطيل النظر إلى النخلة جامدة فعجب بما رأى، وخاطبها
في سره، هاي إش صار بيج سليمة، مثل حظي؟ . . بعد ذبح الهمة والفلس
الحلوة والناس خاشه طالعه تصيرين هيچي؟ شكور هالصفنه؟ «نزل من
الطابوقتين، وهيد الدرج خائباً مدمداً، واتجه نحو المعالف، واخرج الخيول منها،
وقادها إلى الحنفية وسط الطوله وغسلها. وذلك جلدها بكيس اسود، ثم تركها تعود
إلى معالفها. كانت مثله تعرف اين المعالف، واين الحنفية. بل وهم احدها، ذات
مرة، بان يصعد الدرج عندما كان حصاناً فتياً. وملا مرهون صفيحة بالماء، واخذ
يغسل العربة. وبعد ان فرغ من عمله دخل اللوان، واشعل الموقد النفطي، وهياً
الشاي. وجلس ينتظرهم. وقبل ان يصب قدح الشاي جاء حمادي بضجته
المعهودة:

- وينك ابن الحجية؟ ما اجو الشرايه؟
ودخل، وتلفت في الطوله وقال مرهون:
- مد تشوف بعينك

- لتزعل ابن الحجية! .. اشو صب لي چاي

وجاءوا بعد ارتفاع الضحى . اثنان احدهما اصلع . والاسود موفد من حاج احمد اغا . وفحص المشترىان العربية طويلاً، وصعدا عليها، وهزّاهما حتى قال العربنجي في سره «راح يكسروها!» وبعد ان نظرا اليها من وراء ومن خلف قال الاصلع «برشقه!» وتحولا إلى المعالف وفحصا الخيول الثلاثة بدقة . فتحا فكوكها، وعدا اسنانها، ورفعا الذبول، ونظرا . ثم ضربا على اعجازها . وقال الاصلع «كلها فوكّ العشرة» عجباً اشكّد راح تعيش؟» وبدا عدم الرضى على وجهيّ الغريبيين . وجالا يبصرهما في ارجاء الطولة . فرأيا على اليمين اشلاء عربية متربة ملقاة جنب الحائط . عجلتان صغيرتان . . ونصف رفرف قديم، وهيكل صدىء لمقعد . نظرا اليها وهما لم يبرحا المعالف، وزاد من يقينهما بأن كل شيء في الطولة مستهلك وغير صالح للاستعمال . كان سقف المعالف فوق رأسيهما مبقورا، والحصيرة الهمة تتدلى في وعيد، والأعمدة الثلاثة التي يستند اليها السقف سوداء منحوبة في الوسط . وكانت احجار الحيطان كلها مخلخلة لا يشد بعضها إلى بعض شيء . تفحص الرجلان كل شيء في الطولة بعيون قلعصها وهج الشمس . وكان مرهون وحماذي والاسود يتبعونهما اينما اتجها . وعادا إلى العربية ثانية، ثم إلى المعالف، ثم نظرا باتجاه الحنفية . ثم قال الاصلع في سلطة :

- زين احنه نتفاهم ويه الحججي

وصر الباب خلفهما . وصاح العربنجي وهو يمسح يده بدشداشتته :

- عبالك دبشترين الدنيا! .. صار لهم ساعتين يروحون ويجون . . وهي حصونة ثلاثة مينة حي عالصلاة، وعربانه تعرف من غمرة وحدة .

واتجه إلى الليوان في زعل . وكان مرهون مايزال ينظر إلى الخيول . ناداه

العربنجي

- يله ابن الحجية، خلّ نكمل الجاي

قال السائس :

- هذا يا چاي اكشر!

- يله، خوب ما نموت نفسه . . سليمة الخبازة من مات رجلها مسوت

هيچي .

وصب له قده شاي بارد، ووضع في فمه ملعقة سكر أحمر، وجرع جرعة

كبيرة. وجلس مرهون على الارض. وقال :

- شوف الأسود، كلمة وحده ما حجه ويانه . اشدعوه!

- ميخالف ابن الحجية، ظلت على هذي؟

فغضب مرهون فجأة على لقب «الحجية» فقال في زعل :

- هاي، اش باليها لأمي وهي بغيرها؟

- ليش داسبها؟

- منين جا لها الحج، وهي للنجف مرايحه؟

- يعني اذا عدها عشر ما عد حاج احمد اغا مراحت واخذتاك وياها؟

- راح تأخذني هسه.

- ظل اسحن.

- حمادي ليش متروح تسكر. اليوم ما عندك شغل

كشر حمادي عن انياب ثلاثة ضائعة في فم اهرت، وطاب له الاقتراح وقال :

- هاي انت مثل ام خشم الاقچم (يقصد زوجته) تسوي من الحبه كبه.

خاطب مرهون نفسه «هاي يا حبه، ياكبه . هاي بليه سوده»

ونفض ماداً بصره عبر الطولة. كانت الشمس تزحف باتجاه العربية، والخيوله

ساكنة مسبلة الذيول، والحنفية ترسل بقبقتها الابدية، مشى مرهون يجبل البصر

فيما حوله. هذه القطعة المستطيلة من الارض، المسورة بصفائح نخرة، المكشوفة

للحر والبرد كانت ماواه، وشاهد ايامه الماضية. جاء اليها حين كانت الحياة ربيعاً،

والطولة في سامق عزها. وكان مثل السلطان على مملكة. كانت هناك سبعة خيول،

وعربتان، وعربنچيان، وسائس آخر. وكان الحاج أحمد اغا لا يبارحها، ويشترى

لها ما تحتاج اليه. اذا فطس حصان جاء بأخر في حوله الخامس، واذا بلي شيء

من العربية اسرع في تجديده. وكانت الدنيا غير الدنيا، والناس غير الناس.

وللفلس قدره، والاربعة فلوس توصلك للكاظم. وذراع الخام الابيض بأثني عشر

فلساً، ورغيف الخبز بفلسين. وحين كانت العربية في الشارع يصفق لها الاطفال.

ثم جاءت الحرب، وهزت كل شيء من الأساس، وجعلت الاسعار في نار. والأكثر

من ذلك حملت حاج احمد اغا إلى ذاك الصوب. وصارت الطولة، مثل مريض

ب «ذاك الداء» كلما مرّ الزمن اعرج، وتحولت العربية الثانية إلى اشلاء ملقاة الآن

في الطرف الثاني من الطولة، واستغني عن سائس وعربنچي. والآن يأتي يوم

القيامة، ويضيع . . .

- ابن الححية آني رايع

أجابه دون أن يلتفت:

- شعليه منك، روح.

وكان يحس بالعرق يتحدر على حديثه، وبحرارة الأرض تحت قدميه. وعاد إلى اللبوان. وكان لا يعرف ماذا يفعل. دخل الغرفة إلى يمينه. فحياء السقف بحفنة من تراب ناعم نزل على حديثه. فرفع رأسه إلى السقف، وقال في نكد «هذا حظي . . حفنة تراب؟ . . الحمد لله والشكر». كانت الغرفة مربعة الشكل، فيها سرير خشبي عار، وصندوق قديم قرب السرير عليه «بشطمال». وكانت على الأرض مشربة، ونعال بُني، وعلى الحائط علقت دشداشة بجيت أسمر إلى جانبها حزام عريض في مسمار آخر، وعرقجين، وفي الزوايا مخطان الشيطان.

جلس مرهون على سريره، وتلفت في أرجاء حجرته وكأنه يريد أن يحكم، هو الآخر، على طولة الحاج احمد اغا. وبعد أن ادار رأسه قال في استسلام «صدك يا به صابره عتيكه . . وياجر عكب باچرتوكع من كيفها . . من يذكر على طولة حاج احمد اغا؟» وعاد يرمق الجدران، وينظر إلى الشمس تنحدر على ذرات زرق من «السماية» فتكشف جانباً من الحائط المنفوخ اسفله بالهواء. وهز رأسه وقال:

- بلاكت هم لكّت شرايه . . الطولة انباعت، والحصونه والعربانه راح

تنباع . . بلاكت انتّه يابن الماكلها الدود من يشتريك؟

وصمت لحظة وكأنه يفكر في الشاري. وخطابه هاجس في داخله:

- همّ اكو!

- منو؟

وسمع الهاجس يقول:

- الموت . . احسن مش تري.

- ايه، ميخالف.

وتنهّد مرهون متحسراً. فقال له الهاجس:

- على ويش دتنحسر؟ . . اش عندك بها الدنيا حتى تنحسر عليها؟ خايف

تفاركها؟ ماما، بابا؟ ولد، تلد؟ . . خلّك دشداشة تلفها على بدنك وتنام، وذبيحي

النومه.

- اي ، هذا هم نصيب
 - كل شي قسمة ونصيب واردة الله .
 قال باحتجاج فجأة:
 - وشمسوي الله حتى يطيني هيچي قسمة؟ سبيته؟ حجيت عليه؟
 - لتكفر مرهون، لتكفر
 - والله اريد أكفر بلكت يصير براسي خير. . . ليش حاج احمد اغا مچان
 يكفر يوميه؟
 بعد يومين جاءوا ليتسلموا الحصانين والعربة . وتركوا الحصان الثالث
 لمرهون ليأخذه إلى وراء السدة، ويتركه في البرية هائماً حتى يفتس، فقد كان
 حصاناً عجوزاً حسبوه لا يقوى على جر عربة . وخلت طولة حاج احمد مما تعودت
 ان تضمه اكثر من ربع قرن من الزمن . وبدت هرمة فارغة مثل فم عجوز، ساكنة لا
 يتحرك فيها الا تلك الحنفية وسط الحوش ترسل بقبقتها الأبدية .
 وبعد اسبوع جاءوا ليقبلوا الطولة من الوجود . وكانت مستسلمة متخاذلة .
 فكوا بابها الصفاتحي في الصباح، واستباحوها وفي ايديهم المعاول، واعملوا
 الهدم فيها . بقروا سقفها، ونفذ الهواء النقي والشمس إلى الأغوار العفنة
 الكسيحة . وفي الضحى تجمهر عدد من اهل المحلة قرب دكان صاحب ابو
 البايסקلات، وظلوا يحدقون بها في دهشة وامتعاض، وكأنهم احسوا بوجودها لأول
 مرة وبكل ما يحمل هذا الوجود من عفونة وقذارة وقبح . حدقوا صامتين في أول
 الأمر . ثم امتلأت نفس خيرية بالمرارة وقالت:
 - عيني، هاي اشلون عتيكة وجيفة ولعبان نفس! . . زين سموت الحكومة الله
 يسلمها!

التفت اليها صاحب ابو البايסקلات وقال:

- لا تخافين، لويهدون بيوتكم، لا سامح الله، جان شفتي نفس الجيفة!
 تحركت رديفة زوجة حمادي العربنجي وقالت في حرقة:

- اي، عيني من المايات

صاحت «الحكومة الله يسلمها»

- لا، من الوساخة والتكرفع .

- من المايات والسيان المالي البيت والعكد .

صاحت سليمة الخبازة، وكانت قد خرجت ايضاً لتودع جارتها الجنب .
 - اسكتوا عيني ! . . خل نشوف اش بينون بمكانها!
 قال صاحب :
 - مدرسة بنات .
 أهت رديفة وقالت :
 - الدورة راح يخششون براس البنات جني (ربما كانت تشير إلى اسطورة
 قديمة هي أن الطوله مسكونة بالارواح)
 هرّ صاحب ذراعه :
 - الجني براس الجاهل مثلج . . انت عمرج شفتي جني ؟
 - اها . . . يعني الله شافوه لو بالعقل ؟
 قالت سليمة الخبازة :
 - اكو جني ؟ اشو ست سنين اكعد يوميه مرتين بالليل ، وما تراءى لي أي
 جني . . يمه اصل الايمان ال بالكلب .
 انتهزت خيرية هذه الفرصة لتوقع غريمته أكثر :
 - بعد ظَلَّت جناني ، والحكومة الله يسلمها ماليه الدرايين بالضوايات ؟
 اغتاضت رديفة فقالت في برود وسخرية :
 - صدك نسيت . . الحكومة الله يسلمها لمت الجناني من الدرايين .
 فهقه صاحب وقال :
 - هسه كمت تفهمين
 وخجلت خيرية لأن النكتة موجهة اليها فقالت مستميتة في الدفاع عن
 الحكومة :
 - الحكومة كل شي تكدر تسوي . . الله يرضه عالالحكومة .
 فانبرى صاحب لها :
 - مستكتين ، ملة تلفخ ! حكومتج مثل طولة حاج احمد اغا جايفه يراد لها شلع
 من الاساس . . لتخليه نحجي ويعتبرونه نازي !
 قالت خيرية متأففة وقد عكفت بيديها تحت ثدييها الناهدين :
 - أوي عيني . . انتو متخششون بالعب .
 فخشست سليمة الخبازة في الحديث وتساءلت مرة اخرى :

- اسكتوا عيني . . . لو يسوون قصطخانة يداوون بيها عيون الناس .
قالت خيرية :

اي ، هاي المريودة من الحكوكة . . . أكو كل عيون مخنفسه ولا اللخ .
وكانت تشير بذلك إلى عيني غريمتها رديفة ذات العينين المغوليتين مثل
شقين في خشبة سمراء . ولكن سليمة الخبازة حسبت انها تعنيها ، فنظرت في عتاب
وقابلتها عينا خيرية الواسعتان السوداوان .

- مو الله يطلي الجوز للما عنده سنون !
قالت رديفة مؤيدة :

- الله يرحم والديج . . الزمال هم عيونه چييرة
قالت خيرية

- أها . . . سوتنه زمايل !
قالت رديفة :

وانت منو وياج . . انت وحدج عيونج چييرة . قحط !
- رديفة . . الطولة راحت ، ليش متروحين وياها ؟

- لو تموتين . . راح اكعد على گليج
- اي ، الذبان من يگنر يكشه ؟

- الذبان انت والخلفج .
صاحت خيرية :

- رديفة ، تسكتين لو أجي أشكجج وصله وصله .
قال صاحب في سخرية :

- اي ، مكتوب بالتواريخ . . من تنهدم الطولة بصير دما للركاب .

- ٩ -

كان حسين ينظر باتجاه الشارع العريض . وكان يرى من مكانه على سرج
دراجة مسندة على الحائط صبياً يحاول ان يمتطي دراجة «ام الثمانية والعشرين»
بالقرب من الطولة . ويحاول ان يصعد على السرج ، ولكنه يتمايل في الحركة
الثانية ، ويرتطم على الارض على بعد ذراع ، ويترك الدراجة ممددة على الارض ،
ويتحسس يده . خمن حسين أنها مقشولة . كان يعرف ذلك من تجربته ايام زمان .

ورأى الصبي يرفع الدراجة مرة أخرى، ويعيد الكرة ويرتطم. كان حسين يحس بصوت الارتطام دون ان يسمعه. وقال في نفسه «لويشوفه صاحب چان تخيل». ولكنه لم يجد الرغبة في ان يقول له. بل فكر كم من الوقت قد مرّ دون ان يركب دراجة. وعجب من نفسه كيف ماتت تلك الرغبة الشبيهة بالادمان. وقال وكأنه يتابع سلسلة افكاره:

- اش گد چان يعجبني اركب بايسكل!
- وهسه؟ سأله صاحب دون ان يرفع عينيه عما بين يديه
- كل شي ميعجبني. كبرت بالعجل.
- چبير. . لو ما مرة ابوك چان اخذوك جنديه
- كانت تلك الحقيقة توخزه. وتابع نظره إلى الشارع. كانت الدراجة ملقاة على الارض. ربما هذه هي السقطة الخامسة. ونهض الصبي شابكاً يديه. فخمن حسين بأن يد الصبي دامية الآن ما محالة. ولكن الصبي اعاد الكرة. وقال حسين في نفسه «مو هذا الوكت ديروح عليك» وشعر بثقل الزمن. هو الآخر يفوت الوقت عليه ولكنه يشعر بتراخ وهو على السرج. والآن اراد ان يتحدث.
- ما ادري اش گد راح تظل كاعده ام العيون المتفتحة.
- گعدتها عجبية، متعرف السر؟
- علمي علمك
- متحجي؟
- لا، خاشه بالسبت. النهار كله مطروحه على الحصير، مثل المويه الكامعة رجلاها.

- وتخيلها منطرحة على الحصير قرب الغرفة الخالية. وذكره ذلك بشيء
- وگعدت رجال بالحوش
- نزل؟
- تگول ميبات بالحوش، بس يخلي غراضه بالحجرة.
- ومنين هذا،
- چان دلال مال سيارات. تگول يعرف ابويه.
- وبعد هالسنين الطويلة؟
- قال حسين بغيط:

- بكيفها، كل شي تسوي . . عبالك الحوش مال اللي خلفها
قال صاحب وهو يلقي عقب سيكارته، ويلقي نظرة على الشارع :
- اشوانت تروج وتجي على الحوش . . شنو فكرك؟
- والله لو ظل بعمري قد يوم لبيعه وأهجو لها . . هالدملة اريد اتخلص منها .
- الحوش صار دمله؟ حقت مجربت مذلة العيش كل شهر بحوش . متعرف
غصة اول الشهر وابو الحوش يدك عليك الباب .
- وآني اش عندي بالدنيا حتى أأجر حوش؟ بطرك نفسي . . طير وين ما وكر
انام .

وصمت صاحب . وفكر حسين بالحجرة المرصوفة بالطابوك والمصباح
الكهربائي ، وزادت كراهيته للبيت فقال لصاحب :
- هو اشلون حوش! يذكر عالصملي
قال صاحب : . . وخلي . . موفوك راسك سكف؟ . . هذا هو
وفكر حسين في نفسه «حكه . . مذايك سكن الكرامة»
وقال صاحب مرة أخرى :
- انت بدل متفكر بالحوش، دور على شغل، اتعلم صنعه . . تظل تعتمد
على مرة ابوك؟

- راح ادور . . رايح هسه لذاك الصوب . . بس اطيني ربع دينار
والقى نظرة خاطفة دون ان ينتظر الرد عليها . كان يراقب الغبار المتصاعد من
الطولة ويشمه . سمع صاحباً يقول :
- عجيب أمرك! . . بلوعه مال فلوس؟ يومية ربع دينار . . عل هالحسبه
فلوسك مراح تطول شهر . . بعدين شتسوي؟
- واذا يراد لي؟
- حسين اخاف تعلمت تشرب؟
- وداعتك ابو مهدي مستحيل اشرب .
وكانت تماضر ملء خياله . أحس برغبة في ان يتباهى بها، ويقول هي
السبب . ولكن نظرة صاحب الجدية جعلته يقول :
- ابو مهدي لدقق ويابه .
- آني على مودك . والفلوس فلوسك وممشغلها بالتجارة . . البارحة استحققت

عليّ كميّاله لحسقيّل الياهو. وماهلني آخذ فلس منها.
وعدّ له دراهم خمسة. فنزل حسين من سرج الدراجة وقال:
- رايح للوكّنه.

- روح.. صير رجّال

القى حسين نظرة أخيرة على امتداد الشارع. كان الصبي قد اختفى.
والظاهر انه وفق في ركوب الدراجة آخر الأمر. وكانت الطوله ترسل غباراً مثل
الدخان الذي يتصاعد من نار أطفئت بتراب. وخلف النقاب الترابي بيته، و «ام
العيون المتنفخة». وأحس بنفور، سار في خطى متخاذلة حتى رأى امرأة تخرج من
حمام النساء فصرفته عن نفوره. كانت تبدو حمراء متنفخة الوجه. حدّق بها وقال
في نفسه «اش عجب طالعه من وكت؟». ولما اقتربت منه عرف انها خيريه
«الحكومة الله يسلمها». مرّت به تخطر موردة مكشوفة الصدر، فوّاحة بالبخار
وصابون ابو الهيل. فقال لها «سّلمي على رزوقي» وعرفت ما يعني فلم تجبه.
ورزوقي زوجها. وظلت رائحة الصابون عالقة في أنفه. فقال لنفسه «لا تخاف»
هسهه يجي المغرب وتروح الها. هسه انت بالشغل «نجار صاحب مصلحة». .
طيّط. . ام العيون المتنفخة خلّنتي اتعلم صنعه؟» ومرّ بسينما الزوراء دون ان يرفع
رأسه إلى الاعلان. راح ذاك الوكت - قال لنفسه - كبرت بالعجل، وصار عندي
مرية. . مالتى. . آني دشتتها! ومرّ بسينما الوطني. فلم روسي حربي. ومن على
الجسر كان في وسعه ان يرى درب الحطب قرب المسيح المكتظ بالناس. نقط
سمراء وسط شريط الشمس الفضفي المتلاّلىء. وشمّ رائحة الماء الزفرة الطينية
الحارة. ونازعته نفسه إلى ان يكون هناك. وقال لها «العصر أسبح قبل ما روح
لتماضر» وفكر بتماضر. يوم امس كانت تشمه كالقطة. ورأى انحناء النهر. وهي
هناك. ثم جاءت سينما، وحانة الملك فيصل، وتمثال الملك فيصل. ثم المفوضية
البريطانية على اليمين. وهناك رأى الساحة تفور بالناس، والباب الصغير في
اقصاها مغلق. دار حول الجميع يبحث عن منفذ ليقترّب منه فلم يفلح. اجسام
على اجسام. وأخيراً استقر قرب شاب هزيل الجسم وسأله:

- متعرف اش وكت يفتحون الباب؟

- بالتسعة.

- وبالتسعة اشلون وهسه فوكّ العشرة؟

وادار الشاب اليه وجهه الهزيل المستطيل . ولكن حسين لم ير الا حول عينيه . كانت العين السليمة تنظر اليه ، والعين الحولاء تنظر باتجاه آخر .

قال الاحول وقد احس بتحديث حسين :

- تريد الصدك؟ .. يفكوها على مزاجهم . . اشوكت ميريدون ناس .

- ومتعرف ياناس يريدون؟

- كل واحد عنده مصلحة . . سواق ، فيترجييه ، نجاجير ، حداده

- ومسجلين؟ .. سمعت يريدون مسجلين

- تعرف انكليزي؟

- لا .

- لعد اشلون؟ .. انت راح تشتغل عند انكليز خوب مو بعلوه؟ على الاقل

تعرف ارقام . . وان تو ثري .

فقال حسين في سره «شوف ابن الزفرة د يقنزع عليّ» ثم قال بصوت مسموع :

- اكدر أتعلم . . بس أكو فائدة من هذوله؟

- تريد الصدك؟ .. كل شي قسمه . . اني بصف ثاني متوسط ، وصار لي

عشرين يوم اجي للوكتفه ، وما حصل شغل . وأكو ناس ما عدهم اي شهادة ، وحصلوا شغل بنفس اليوم .

كان على مقربة منهما رجل يلف رأسه بكوفية . كان يتصنت اليهما صامتاً .

فلما فرغ الاحول من حديثه التفت اليهما وقال مؤكداً :

- صدج يابعد رويحتي صدج . . خريبط يانوبة ما تناها . حذف حياره وطاح

على درهمين بالنهار . وأنه هالتشوفني . الخلك تروح وتبي وأنه جاعد بحدر الباب

قال الاحول :

- انتظر وانت تطيح .

- أنه طايح الحظ مني طايح .

وفتح الباب الصغير في أقصى الساحة ، وخرج جندي انكليزي يتدلى على

فخذه مسدس ذو قراب أبيض معلق بحزام ابيض أيضاً . وكان إلى جانبه شاب أسمر

صغير . وتحركت الساحة . وماج الناس . ووطن الانكليزي ثم قال الاسمر :

- منو فيتر؟

وكان في الساحة فيترجيون كثيرون صعدوا الدرجات الأربع في صف واحد ،

وغابوا في الداخل .

وبعد قليل عاد الأسمر يقول :

- منو سايق؟

وتدافعوا . وابتلعهم الباب . ثم اغلق . وتعالصت اصوات في الساحة .

وقال الاحول للعجوز:

- شفت؟ ليش متصير فيترجي؟

- والله ، يا عمي ، لو عارف أصير قنديرجي چان صرت .

- مو قنديرجي ، فيترجي

- الحاصل محفوطك ما يعرف غير المسحاه . والمسحاه منها نافعة بهالايام .

قال الاحول يقلد لهجته الجنوبية

- كل شي منّه نافع بهالايام

وحقق حسين بعدم ارتياح ، لأن العجوز صرف الاحول عنه . فقال بسخرية

وترفع :

- اش جابك لبغداد ، اش جابك؟

هزّ العجوز رأسه وقال :

- سالفه طويله

- خلص الزهدي؟

كشر العجوز عن اسنان تالفة وقال :

- ما يخلص . بس الناطور يزكط .

- زحاره التزحرك .

- شني؟

- اكل اش لون الصحة؟

- هالشوفه .

- تشبه بدر لاما .

- شنهبي؟

- يا فيلم يعجبك : ممنوع الحب لو الوردة البيضاء

- مني فاهمك

- كان الاحوال يضحك في سلطنة . وشعر حسين بسيطرته ، وتابع مناكفته :

- ليش متركب فد كفه منكوبه؟

- لوين؟

- للفتاهه.

- جا يحصل شغل؟

- ابو الدفرة.

- والله، يا بعد شيبتي، مني فاهمك.

اكتفى حسين بذلك، ونظر الى الاحول بانتصار. ولكنه نظر إلى الباب المغلق واغتم. كانت الشمس لاهية تنفذ إلى الجسم عرقاً لزجاً. وكانت انفاس الناس مثل زفرات تصاعد مخلوطة باصوات كالههمهمات. وانتظر في أمل كاذب أن يفتح الباب. وسرعان ما أحس بالشمس على علباته. فتأفف كالآخرين. وغاضت من نفسه تلك الشوة الطافية التي خلقتها مناكفته للعجوز. واشتبك الاحول في حديث مع رجل. كلاهما قال للآخر «ها. . لسه ملكيت شغل؟». واشعره حديثهما بالأس. اذن سيظل مثلهما ومثل العجوز يأتي كل يوم إلى الساحة، ويحترق بالشمس ونار الانتظار الطويل دون ان يحصل على عمل. تلك تجربته الاولى في البحث عن العمل. أحس بثقلها ومرارتها. ولم يصطبر لها. ونظر إلى الجانب الآخر من الشارع. في الجانب الآخر من الشارع ظل ومقهى وغيفة اسكندر تذيع مونولوجاتها. وقرب المقهى عربة سيفون، وأبو لوبيه. والتفت ورأى الاحول يمسح عينه السليمة بباطن كفه، ويرنو مثله إلى الجانب الظليل. هو الآخر قد ضجر. وقال حسين «الله يساعده. . لو أني مثله چنت اقتل نفسي». وكان يحس باطمئنان غريب، وبأنه احسن حالاً من كل هؤلاء المتزاحمين السابحين بعرقهم. لماذا؟ على الأقل عندي حوش. وانزاح جانب من ثقل الخيبة. ونظر إلى الجمع المحتشد في حياد عاطفي. وراقب الاحول يتحرك نحو الجانب الظليل ببطء فلاحته قامته أكثر نحافة. والبنطلون الفضفاض يخفق على عجيذة فارغة. وقرص الاحول قرب ابو اللوبيه. واشتهى حسين ان يفعل ذلك. وتلملم. وترك العجوز يثرثر بلهجته الجنوبية خلفه. ولكنه احس بالعطش أكثر من الجوع فأكتفى بان شرب زجاجة سيفون وغادر الساحة.

عاد إلى البيت عند الظهر. دفع الباب ودخل. لاحت امامه النخلة، ثم الحصىرة فارغة. فسأل في نفسه «وين أم العيون المتفتحة؟ طالعها؟» واحس بفراغ

الحوش وسعته . وقال لنفسه «لو ينباع اش كد يجيب له؟ مئآت» واستدار إلى ليوانها
فراها منكبة على ثوب بنفسجي تخيط شيئاً فيه ، ثوب لم يذكر انه رآها تلبسه . لم
يذكر قط انها لبست ثوباً ملوناً ، وكأنما فتح عينيه ورأها في ثيابها السود .
رأته يحرق بالثوب بريبة ، فضمته بين فخذيه وكأنها تحجل من ان يراه
وسألته بلهجة حيادية :

- ها . . أشو اليوم من وكت؟

قال :

- جوعان .

- هسه خلصت من چاي الصبح . بعد الظهر ما صار

- ساعة تنتين

ونظرت إلى الحوش لتعرف وقتها من موقع الشمس

- الشمس بعدها ما كسرت عالنخله

قال في ضيق :

- ليش تعاندين؟ . . كولي ممسويه اكل . . مشغله بالتطريز

القت الثوب من يدها ، ونظرت اليه في عتاب وقالت :

- حسين ، انت هوايه تظلمني . يا تطريز هذا؟ . . طلعت النفوف حتى

أصبغه .

صمت قليلاً ثم قال لها :

- بيش أجرت الحجرة؟

- بيش ما چان .

قال بقسوة :

- إليّ نص الايجار .

قالت محتدة :

- خلف الله عليك . . هاي بدل متجيب لي فلوس وتعيشني . . المختار باچر

يجي عليك عالجندية . . منوراح يخلصك؟

- ١٠ -

في الأصيل كانت النسمة تهب من النهر عبر شجرة توت معمرة تماوج الذهب
على ذوائبها الغربية . وكان قلبها اسود انطلق منه سرب من العصافير ، ووقع على

أرض الحوش في زفرة حادة. وجفل الدجاج. وتذكرت تماضر شجرة التوت التي كانت تتسلقها في بيت الخالة نشمية عندما كانت صغيرة، وتخفي بين اغصانها الكثيرة.

- خالة نشمية تذكرين النبكه؟

كانت الخالة نشمية جالسة على التخت إلى يسارها وفي يدها قدح شاي فارغ، فقالت وقد ارتج القدح بين اصابعها
- أها . . فتحت عيني عليها.

- وراح كصوها . .

- هم ركبت كصوها . . عاد النبكه!

- خالة نشمية، الأهل يغدرون.

واضطرب القدح حين وضعته نشمية على «الطبله» المخلخلة. وقالت وهي تتلمض:

- الأهل يريدون صخول موبنات حتى اشوكت ميريدون يذبوحوا.

- خالة نشمية، انت متدري اش سوا بيه أهلي.

- آني ادري بدگيك الأهل . . تعلميني بيهم؟

- چانوا يريدون يلبسوني عبايتي، ويدزونني للعماره.

قالتها بلوغة، وكأنها تخاطب احداً غير الخالة نشمية. وكان بصرها عالقاً بالباب، وقدح الشاي الفارغ في يدها فأدركت الخالة نشمية مبلغ ما تكابده. وقالت مواسية:

- حقج . . العشك شيعمله؟

قالت تماضر بين العتاب والاستغاثه:

أوي، خالة نشمية، على بخنچ.

فكورت الخالة نشمية شفتيها وقالت:

- اسألني مجرب، ولا تسألني حكيم. جنت ما اعرف اشوكت تكسر الشمس،

واصعد أرش السطح، وأشوفه فوك الشناشيل.

عرفت تماضر عمّ تتحدث الخالة نشمية. قصة حب قديمة سمعت عنها اقوالاً متضاربة. الا انها الساعة لم تجد ميلاً لأن تستوضحها. كانت مستغرقة في شيء تملك كيانها. وفي مستطيل الباب الترابي الذي تتسرب حياتها عبره مرت

عجلتا عربة قادمة من مكان لا تعرفه، وذاهبة إلى مكان مجهول لها. فزرع ذلك الشوق في عينيها، ونهضت من التخت، ووقفت في مكانها، وعيناها شاخصتان إلى الباب، وفي نظرتها كل روحها. وسمعت الخالة نشمية تقول:

- هسه على جيئه. . ما تشربين استكان الجاي الا وتشوفيه جاي. . .

أملت ببصرها نحو الخالة نشمية باسمه ابتسامة استشهاد. وذهبت لأقصى اللبوان لثملاً قدحَي الشاي. بينما تابعت الخالة نشمية قولها وهي تنظر إلى دجاجها.

- چانت كل شوفه ترد الروح. چان يوكف فوك السطح بطوله الحلو، والدشداشة البيضه، وعرقچين الكلبدون وبنات الطرف كلهن يعاينن عليه. وليش هو داير الهن بال؟ وچنت أشيل راسي، واشوفه عبالك طير أورفلي وهو يشوفني ينكس عرقچينه على عينه. يعني: مرحبه ويگوم يناغي الطيور: أروح فدوه لأبوزلف وترچيه، ياايض يازاجل يابو عيون الوسيعة خذلي المحبوبي تحية.

رنت ضحكة تماضر في اقصى اللبوان، فقالت نشمية:

- لتضحكين. . موبس اتتو!

وجاءت لها تماضر بقدح الشاي باسمه، وقد زال من عينيها السوداوين الواسعتين ذلك الشرود القانط، وحل حنان ندي. وجلست تشرب الشاي مرسلة بصرها إلى قلب الشجرة الأسود. كانت هالة النور قد بهتت، وسرت الظلمة من القلب الأسود إلى الاطراف. ولكن العصافير مازالت تزقزق.

جاء حسين قبل غروب الشمس. وقف في مستطيل الباب الترابي، ونادى:

- تماضر!

- تعال، عيني، تعال! البنية د تنتظرک.

ودخل بقامته الربعة الممتلئة يرتدي بنطلوناً رمادياً وثوباً أزرق طوى ردينه، وقلب ياقته على قفاه. وكان شعره الأسود الكثيف قد صفّ فوق رأسه كالأكليل. وسلّم، فقالت الخالة نشمية:

- محصّن بالله. . يلمع!

وفي سرها قالت «بعده أخضر. . شوارب ما عنده.»

قالت تماضر:

- ما شاء الله، اليوم من وكت

- حتى لتزعلين... اخذت رخصة من الشغل .
 - وسابح بالشط؟
 وشمّت رأسه ، فقالت نشمية من مكانها :
 - أفيش... اشلون ريحه حلوه! أوليلي عاللي عشكوا وما ذاكوا
 - خالة نشمية ، هي مادا تشمني ، تشم الشط .
 - اسكت ، عيني ، تريد تعلمني؟ .. يعني اذا باجر سبحت بالشط . راح
 تشمني هيچي؟
 واشفعت قولها بضحكة . كانا في الطرف الآخر من التخت متسابكي
 الايدي ، متلاصقين بانسجام تام . وكان يبدو أقصر قامة من تماضر ، وأكثر امتلاء ،
 بل واصغر سنّاً . حتى لعجبت من جسارته ، وتساءلت مع نفسها : عجباً أهله
 يعرفون؟ .. مستكعد وحده؟
 - خالة نشمية ، شوفي اشلون يلعب اذنه .
 وجرتّه إلى الخالة نشمية ، فحرك اذنه ثانية وقال :
 - خش باذني ماي ، ودانظفها .
 فقالت خالة نشمية وقد ازعجها هذا الدلال :
 - جريه من اذنه ، وخششيه بالحجرة .
 ضحكت تماضر ، وحاولت ان تمسكه من أذنه فصدّها . ويدا امام الخالة
 نشمية مزاح بالايدي حتى قالت :
 - عيني ، لتخرعون الدجاج .. اذا دجاجة ضاعت بالليل منو يلكيها؟
 وفي الحجرة سألت تماضر :
 - أصب لك عشا
 - لا ، تعالي اكعدي هنا .
 فجاءت تتهادى نحوه إلى السرير . وكان قرب الباب .
 - انت تعرف حچاية الخالة نشمية؟
 - منين اعرف
 - چان تحب واحد مطيرچي
 - عال!
 فهمست : اصبح إليها تحچي لنا؟

- لا، سدي الباب وتمددي
- بعد وكت.
- تعالي، احجي لي انت شنو قصتها!
- مثلي، چان أهلها يريدون يزوجوها لواحد متحبه.
- ومثلج وكفت على باب السينما؟
ضربته على يده، وابدت له وجهاً عبوساً. فقال لها:
- لا تزعلين.. منين چان أكو سينما ذاك الوقت!
نهضت، وهمت بالخروج من الباب، فامسكها من يدها. واجلسها على
السريـر، وسحبها نحوه، وقبلها من عينيها بممانعة
- بالعجل تزعلين.
- قاسي هوايه.
فطوق رقبتها بذراعه، وأغلق الباب باليد الأخرى، وبحث عن شفتيها في
الظلمة.

تمتمت: ماريد، ماريد
قال بحدة: اكو واحد ميريد. وأصر على ان يقبلها
- راح أصيح.
ولكنه كز على امسانه حتى وضع رأسها على المخدة
- الا هيچي تريدين؟
وشعرت بثقل جسمه عليها، فمانعت، وحاولت بكل قوتها ان تخرج من
تحتـه. كان ابزيم حزامه يوجع بطنها
- حسين، جوز عني.
- ما جوز.. لو السما تنكـلب.
فظلت تردد:

- حسين... حسين... حسين... تتزع بنطلونك!
وكم كانت مشتتة اليه. كم كانت تترقب مغيب الشمس وحضوره. والآن
تحسه ثقيلاً عليها، ومضجراً: تأوحت. وأحست بانفراج حين نزل من السريـر.
وضربها على ردفها. اغمضت عينيها. وظلت كما كانت مستلقية على ظهرها. ثم
شعرت بموجة ضوء باهت تمر على جفنيها حين فتح حسين الباب. واستلذت

بالظلمة حين اطبق الباب، ظلمة هشة مثل قطن اسود تغوص فيها. وطاف في خيالها ذلك السرب الخائف من العاصفير الذي رآته يفر من قلب الشجرة الأسود. ثم تذكرت «نبكة» الخالة نسمية. وتخيلت نفسها مخفية بين الاغصان كما كانت تفعل وهي صغيرة. تذكرت كم كانت خفيفة، وطيقة في صغرها. كان الناس يسمونها «أم عيون» لأن عينيها واسعتان كحيلتان من غير كحل. وتذكرت، والذكرى تسلمها إلى ذكرى، كيف كانت تحب ان ترى عينيها في مرايا الجيران. كانت حلوة وذات خصر نحيل، وصدر ناهد. مكتبلية، ولو كان ابوها عطاراً. كانت تحب الوقوف في عنق الزقاق ساعة خروج الطالبات من مدرستهن لتختلط بهن، وتشم رائحة عباةنهن، وتشعر بلذة لمجرد التخيل بانها واحدة منهن قائلة لنفسها «يعني شكوفرق بيني وبينهن؟». قابل كلهن بنات الشابندر؟ ماكو وحدة ابوها عطار، نجار، رگاع. . زين اكو بنات يلعبن النفس، لو مصويات لو وجهن مرگع، لو عيونهن مثل عيون الجريدي. وآني عبالك مدامه. لو أكبر أسبي الناس سبي». وتذكرت، في غيوبتها الحالمة، أول عشيق لها. ذات مرة رأت تلميذين يتجادلان في حماس وهما منكبان على دفتر مفتوح بين ايديهما، فاقتربت منهما وتجرأت ان تقول لاحدهما «انت ساقط بالحساب». رفع التلميذ اليها عينين صغيرتين مبهورتين تدلت على احدهما خصلة شعر كثة، وقال لها «وانت ساقطة من فوك السطح» وضحك منها هو وصاحبه. ولأنها أمية لم تكن تعرف ان الانسان يمكن ان «يسقط» من السطح ايضاً. فقد دهشت لجوابه، وارتيكت. وفي ذلك اليوم عاودتها حسرتها «لو آني بنت مدرسة چنت أحچي مثل حچيه». وفكرت بتينك العينين الصغيرتين، وخصلة الشعر السوداء الكثة، ولم تغب عن فكرها حتى بعد أن أوت إلى فراشها. وفي اليوم التالي وقفت خصيصاً له، ولم تحفل بالطالبات حين مررن بها، بل استثقلتهن حتى جاء مع تلميذ آخر يتجادل. ومرّ بها دون ان يلحظها تاركاً في قلبها لوعة. فتى يميل إلى الطول ذو وجه شاحب مصفر، وعينين صغيرتين لامعتين، وشفتين ذابلتين، وشعر غزير. وفي اليوم الثالث رآها فسألها «ها سقطت من السطح لو بعدچ؟» قالت له بصوت لم تكن فيه جسارة المرة الماضية: «ماكو ساقط الا انت» قال لها «اليوم أخذت خمسة وثمانين» فقالت «أهب!» أجابها بحماس وكأنه يجادل تلميذاً مثله «تريدين تشوفين بعينچ؟ هاچ شوفي» وفتح لها دفتره. ورأت تماضر سطوراً مكتوبة بقلم رصاص، ودائرة حمراء. ولم تفهم شيئاً بالطبع. ولكنها قالت

تغيظه: «جذب!». قال لها «مدا تشوفين؟!». مو عيونج، ما شاء الله، مثل الساعة». أعله حسبها تلميذة مثله؟! وتركها. وهرعت هي إلى بيت الجيران لتري عينها في المرأة، لأن في بيتها لا توجد مرآة. ساعة. قال لها عيونج مثل الساعة. واضرمتها الجملة بلهيب، وجعلت تنتظره كل يوم. ونشأت تلك العلاقة الاولى. همّ هو بأن يقبلها من خدها فصدته، وهمت هي بأن تجذب شعره بنوع من التجميش. ثم كانت رغبات كل واحد منهما مقبولة لدى الآخر. وكان العصر أجمل اوقاتها حيث كانا يسرحان بعيداً عن أعين الرقباء. وولع الفتى بتقبيل خدها، وشغفت هي في العبث بشعره الكثيف. كانا يجلسان في خلوة على دكة قديمة كانت من قبل مسقى ماء للسابلة. فيطوق ظهرها بيد، وينهال على خدها تقبيلاً. وكانت هي تعبت بشعره متحسنة خشونته بيدها؛ فرحة باستسلامها له، مستلذة برائحة الطباشير التي تشمها في شعره، حتى رأهما، ذات مرة، احد التلاميذ. وفي اليوم التالي نشر الخبر في المدرسة. ولما تخاصم هذا مع فانها ذهب إلى امها ليشتكى «روحوا شوفوا بنتكم اش د سوي بالصقخان!» وحبست تماضر في البيت، واخذتها أمها في جولتها على البيوت لبيع الدبس.

وتنهدت تماضر نافضة الأفكار عن رأسها. وقالت لنفسها «عندما يجت بنية جنت اسوي كل شيء». ولما كبرت خطبني بياع دبس ودهن بالعمارة، وهسه رفيعة واحد ما أعرف الا اسمه»

- ١١ -

سمعت سليمة صوت مصطفى خلف الباب.

- يا الله!

فلبست عباءتها على عجل. وقالت من مكانها: تفضل ابو ابراهيم! ودخل مصطفى يحمل كؤنية ينوء ظهره بها. ولما اقترب رأت وجهه العرق غير الحليق، وجبهته العريضة الملساء، والسدارة تكاد تسقط من رأسه. بدا لها في انحناءته تلك، ورقبته المتوترة وساقيه الطويلتين النحيلتين رجلاً شغولاً يحمل الدنيا على منكبيه. قالت في اشفاق:

- ابو ابراهيم اساعدك

- لا، أم حسين، أشكرك. الحماميل صايرين هالايا م يتحچون.

وألقى الكؤنية عند باب حجرته. وزفر من خدين متفتخين، ومسح عرقه،

واخرج المفتاح وفتح باب الحجرة . وقال :

- هسه جاي ليح .

تراطم شيء زجاجي في الكونية حين رفعها ، فثبتت سليمة بصرها في الكونية دون ان تفكر بشيء . ودخل مصطفى الحجرة ، واغلق بابها عليه . وظلت هي في انتظاره قرب ليوانها وهي تقول لنفسها «يبين رجال انجبر يتعب هواية . هالكونية حمال - ارادت ان تقول زمال - ميشيلها ، وهو شايها على ظهره . . هذولة الرياجيل من صدك . . ينحطون بالعين .

وخرج مصطفى يمسح العرق بمنديل قدر وقال :

- وين انت ام حسين ؟

- بالليوان . . هنا أبرد .

- شلون حر هذا ؟ من هذا العراقيين ميخافون من جهنم . . متعلمين .

فابتسمت له وقالت :

- عيني ، اجيب لك الجاون تكعد عليه ؟

لا ، ام حسين ، الحاصرة أبرد .

وبرك على الحاصر بجانبها . وترجع . ولّمت هي نفسها في طرف الحاصر . وكان واضحاً لعينها الكليلتين وضوحاً حاداً . كانت ترى رقبة الهزيلة مثل رقبة ديك مسلوق ، واستدارة حنكه الطويل ، والشعر النابت على وجهه ، والانف الصغير ، والصلعة ، وذراعه الطويلة كانت ملقاة على ركبته باسترخاء مثل حبل مبلى متين رآته ذات مرة في إحدى الدوب عند شريعة السيد سلطان علي . وبدا لها هزلاً جداً ، قفصاً من العظام الطويلة . ورأت على وجهه ابتسامة حلوة رغم تعبته وهزاله . وكأنما باطرافته يفكر بشيء مفرح بهيج . وتركته غارقاً في تفكيره ، وفي ضوء الضحى الساطع ، استطاعت حتى ان ترى تمتمة ابتسامته السفلى . ولاح لها وهو متربع على الحاصر ، مثل فتاح فآل يكشف عن بختها .

بعد دقيقة تمطت حتى صارت دهرأ رفع فتاح الفأل رأسه ، وقال كمن يتذكر

شيئاً :

- ها . . نسيت - ودس يده في جيبه واخرج ورقتين نقديتين - هاي دينارين من

خاجيك .

فتناولتها قائلة :

- اي ، عيني ، فدوة أروح لك .
 - واني ممنون - ثم تتمم في صوت خفيض - ما طول الانكليز بالوجود .
 - من أجل خاطري ، وأني حرمة .
 - ربنا يسمعك .
 ارتفعت ذراعاه الطويلتان قليلاً إلى الأعلى ثم وضعهما على ركبتيه
 المطويتين فتصورته مثل ايراني يلطم على الحسين .
 ادار رأسه اليها دون ان يحرك جسمه وقال :
 - أم حسين ، لو ما الانكليز چان هسه ميتين من الجوع
 - صدك - وافقته بسهولة - بس اش كد راح ييقون ؟
 - ييقون ، أم حسين ، ييقون ليوم القيامة . . . الانكليز ميدخلون ولاية
 ويطلعون منها . انت نفطين عالانكليز ؟
 كان يريد ان يقنع نفسه قبل ان يقنعها . نطق بالكلمات بقوة واصرار ، ومن
 وراء شفثيه المزمومتين كزّ على اسنانه وقال يخاطب نفسه :
 - الدوره هم تغلت ؟
 فسمعته :
 - ش يفلت ؟
 - هيچي ، ام حسين ، دا احچي وبه نفسي . آني ما افطن على بغداد بليه
 الانكليز .
 - لا ، من يفطن ؟
 - لعد خليهيم ، وخلّ الشغل ماشي .
 تلك كانت رغبتها . ولما كانت لا تعرف ماذا في قلبه اعجبها ان يكون حريصاً
 على مصلحتها على هذا النحو . وتذكرت كيف اصّر على ان يكتب الوصل بالعربي
 « الخاتون متعرف الا عربي » . والآن تطلعت إلى شفثيه .
 - مو طلعا شهر واحد . اش صار بغداد؟ فرهود .
 - ودانات وضرب الرصاص - أيدته في قوله - چنت الليل كله ما انام .
 - شفثي ام حسين . واكو ناس يگولون الانكليز موزينين .
 - منو عيني ، ماكو غير اللي ما عدهم عقل .
 - اكو ، ليش ماكو ، اشو هسه طلعاوا نازيين وما أدري شنو .

ولم تفهم من اولئك الذين يتحدث عنهم . ولكنها قالت له :
- العدو اللي تعرفه احسن من الصديق اللي متعرفه
فحدجها بنظرة رأت فيها عدم الرضا . فقالت تصلح خطأها :
- ما ادري اشلون ينكّال المثل .
قال مصطفى :

- لا ، ام حسين ، الانكليز مو اعداء . . ماكو عدو ينفع . وانت دتشفين .
واحست به ينظر إلى يدها الماسكة بالدينارين . وساورها شعور غير مريح .
أحست بأن عليها أن تفعل شيئاً بيدها . ولكن لم تعرف ما هو بالضبط . وانبتت نفسها
لأنها لا تعرف كيف تتحدث . شعرت بأنها قالت ما لا يجوز ان يقال . ولكن ما هو؟
وكيف تصحح خطأها؟ وعاد مصطفى إلى اطرافه . ووجدت نفسها مسوقة إلى ان
تقول له لترضيه :

- عيني ، ابو ابراهيم ، اسوي لك چاي؟

- لا ، ام حسين ، الدنيا حارة .

واسكتها بهذه الجملة القصيرة ، وأرادت ان تقول شيئاً ولكنها رأتها ينهض من
جلسته ، ويدير لها ظهره فقالت وكأنها قد زعلت :

- عيني ، هالدينارين مال اشككد؟

- شنو مال اشككد؟

- يعني ، كل اسبوع كل اسبوعين؟

قال بلهجة جافة؟

- حسب الشغل . الرجال خوب مو عنده حوش وماجره؟

ومرة اخرى افحمها ، قالت :

- اي عيني حتى اعرف . . ارجع للشغل لو لا؟

- والله اش أكوّل لج . . احسبها برانيه .

- يعني ارجع؟

- احسن ليش تظللين متجيلة

وانطوت يداها على صدرها بحركة لا ارادية . ونظرت إلى علباته النحيلة ،
ورأسه العاري . وجمد تعبير قانط على وجهها المنتفخ . ولما فتح باب حجرته ،
وغاب فيها داهمها شعور بالذنب . وكأنها كفرت امامه .

اقفل مصطفى عليه الباب. كانت الحجرة مربعة الشكل عارية الا من صندوق خشبي من صناديق الشاي الفارغة موضوع في زاوية. وكيس جنفاص من أكياس الحنطة ذات الخط الأحمر، وصرة ملابس كبيرة، وحذاء عسكري جديد. وجلس مصطفى على لوحة خشبية كانت موضوعة بين الصندوق والكيس قرب الحائط المثقب بعشرات الثقوب، ومال بجسمه على الكيس. وأرسل صوتاً ممطوطاً مثل الصوت الذي يرسله عطشان وقد بلّ غلته بالماء. وعاد يقول لنفسه «هالدوره هم تفلت؟. . هالدوره اعضها بسنوني. . هالدوره أريد اطلع حك الرفسه، والتسليه، وكل سنين القهر. . بس عاد. . ييزي قهر. . صار لي عشرين سنة أدك وكل شيء محصل. . لا بيت ولا مريه ولا فلس جوه المخده. والدنيا مال فلوس. . صدك اللي ما عنده فلس ميسوه فلس. . ومحد ينفع بالدنيا مثل متنفع الفلوس. ومنو أغني من الانكليز. . نص الدنيا الهم. . ويعيشون ناس من الملك ورئيس الوزراء وانت نازل إلى سايق السيارة. . ظلت علي. . آني المنكوب بنطروني! . ييزي. . ييزي قهر. . خل أدخل وياهم. . وجم واحد إغتي منهم؟. . ياما سورا بيوت. .

- ١٢ -

سار حمادي العربنجي في شارع المحلة العريض سكران يترنج، وقد وضع «جراويلته» على كتفه، واغمض عينيه نصف اغماضة اتقاء لوهج الشمس. كانت الساعة في نحو الثالثة، والشمس تلهب كل شيء، ولا تترك الا ظلاً هزياً قرب الحيطان. ولما مرّ العربنجي من حمام النسوان وشمّ بخاره داهمته نوبة غريبة من الطرب فأنشأ يغني دون ان يرفع عينيه من الارض.

شفته بعكّـد الخلاني صدر بصدر لاكـاني
ردت بوسه ما طاني صغـيرون شوفوا شـكده
ومضى يغني حتى دكان صاحب ابو البايـسكلات. ولما سمع صاحب صوته
الأخن الخدر، اطل من دكانه على الدرب فرأى حمادي في سلطنته:

- هاي شنو، ابو فلان، متونس؟

عند ذلك رفع العربنجي بصره، ولم يثبت به شيء، بل قال بصوت حنون:

- اي، والله ابو مهدي .. داعيك متونس
- شنو .. د تحضر لرمضان؟
ضمّ العربنجي شفتيه ثم بدأ يتحدث :
- رمضان على راسي، وانت على راسي، وكل الراس على ناسي .. حتى
حمام النسوان على راسي .. بس هالابن مروكي جوه كالتى .. زمال مربوط من
اذانه .
- شنو غشك .. اخذ فلوسك؟
- لا، أبو مهدي، وداعتك . كلما أروح عليه أشرب حليب السباع يطيني ابو
الكليجة ويغشني . يوجع راسي .
- وبها الحر؟!
- أوه، ابو مهدي - وزفر حمادي زفرة طويلة - اش اسوي ابو مهدي . لوانت
بمكاني چان شربت قرابة عرّك .
- ليش؟ .. مقهور عالطوله؟
ضحك العربنجي وقال :
- قحط! .. كعدتي مطولت اسبوع .. بغداد مليانه طولات لعد ليش؟
.. على مرهون؟
- لتخاف على ابو قنبورة . طلع لي صايم مصلي من أول باب . وملازم
الجامع يضرب بها الثمن والدجاج على روح الميتين .
فأثار السكران فضول صاحب . نظر إلى وجهه الاشيب العرق . وتبسم له في
اشفاق وقال :
- تعال خش من الشمس .. احجي لي شنو القضية؟
- ميخالف .. الشمس متوجع راسي .. اليوم مو جمعه؟
- بلي ..
- ركبت عندي خاتون .
- اي ..
- اي وداعتك ابو مهدي مدام من أورزدي باك .
كان صوته نشوان خدرا، وعينه متقلصتين، والشمس على علباته . ولما فتح
فمه في ابتسامة لاحت انيابه الثلاثة المتباعدة في اللثة العليا .

- كَمر خوب مو كَمر؟
 - شنو لقضية حمادي؟ . اشو اليوم صاير غرامي؟
 - مو بالحيف أبو مهدي؟
 وعادت انباه الثلاثة إلى الظهور
 - وبعدين؟
 - وبعدين كُلت إلها: وين تريدن تروحين خاتون؟ كالت للعلويه. كُلت عمله لو بليه عمله؟ . . كالت: أوي عيني، اسطه عربنجي لتعاملني.
 قُلد صوتها الممطوط بصورة مضحكة، وحيا العتبة تحية كلفته ترنحاً:
 - تؤمرين خاتون، وديخ! والخاتون ورايه. وبعد اشويه اسمع حس مثل حس سليمة باشا، من فضلك اسطه عربنجي نزل السكف، مقتنحمل. ونزلت من العربانه، ونزلت إلها، وشميت ريحة جمار وورد جوري
 وصمت محققاً بالعتبة، وكأنه يشم الرائحة التي لعبت بدماغه:
 - تعال خش، تعال. . طلعت قصة عتتر.
 - لا عتتر ولا شِمَر. . وداعتك ابو مهدي كلکم على راسي.
 - وثاليتها؟
 - مشينا شويه، واشو: أوي عيني اسطه عربنجي من فضلك متصعد السكف. . الشمس راح تحرگني. ونزلت من العربانه وصعدت لها. واشميت ريحة الجنه مرة اللخ. صدك، حقها. . الشمس تطير اليافوخ وهالزبد اشلون ميموع؟ - قال الجملة الأخيرة كمن يخاطب نفسه. وبدا متقطع الانفاس مبهوراً.
 - تعال خش
 مال حمادي بجذعه إلى الوراء، وأشار إلى عتبة الدكان واستعظم ان يصعدها. وتابع كلامه دون ان يرد على صاحب:
 - وبعد شويه صاحت: عيني، اسطه عربنجي لتصير زحمة عليك، متيجي تصعد لياه. . راح أختنك. . وأمرني لله صعدت إلیاه مره لخ. وعالها ليدنه حتى وصلت للعلويه يمكن آني عشرين مرة مصعد منزل. وخشمي وقينغ راسي وحلگي امتله بالورد والقدهاح. ولما نزلت نقدت لي درهمين. . حلة البركة خاتون.
 وحيا العتبة ثانية، وكان بصره ما زال يتأرجح. على الأرض
 - تؤمرين خاتون. . . وبعد ما راحت جريت حسره. وكُلت ابن الزفره

ياحمادي، هاي مريه، ومرتك أم خشم الاقچم مريه؟ وفوك هذا يوميه زعلانه عليك.

وبدا مجهداً عرق الوجه ضئيلاً حتى اشفق عليه صاحب، فقاطعه وهو يفتح فمه:

- فهمت القضية . . وبعدين رح لا بن مروكي .

- اش أسوى يا يابو مهدي . . من حركتي

- دير بالك لتوكم .

- مو بالحيف

وساد صمت فجائي . وعاد صاحب إلى عمله يكتم في نفسه شعوراً بالألم والأسف . كان العربي عاري الصدر يلمع العرق على نحره، ويلوّن وجهه بلون سقيم محتقن . جاهد لكي يرفع بصره ويرى وجه صاحب . ولكنه رأى السيكارة البيضاء تطبق عليها شفتان مزموتان . وقال :

- ها، ابو ابراهيم، كلامي غثك؟

- لا، بس أريد أسأل جبت مصرف للبيت؟

- مو بالحيف ابو مهدي . الدرهمين بجيبي .

هزّ صاحب رأسه في غير رضی وسأل :

- ويش العرك؟

- هيهو! هو نص ربع .

- بيش . . أريد أعرف .

- ابو مهدي لتخششنا بايراد ومصرف . . لعد في مال الله .

ودارت الجدران حين دار . وسار بخطى غير موزونة حتى وقف عند طولة حاج احمد اغا . ورفع بصره . ورأى اكوام التراب والحجارة قرب الباب الصفائحي المخلوع . والعمال منشغلون في الداخل . وقف مهزوز الرأس لا يكاد يثبت رأسه في بقعة واحدة . ثم أمسك نفسه في عزم، وكأنه تذكر شيئاً . وسار مترنحاً صاعداً كومة الاحجار . فطن العمال اليه وصاحوا : «هاي وين، هاي وين؟» ولم يرد عليهم بل تسلق التل بيديه ورجليه . وفي أعلى التل رآها هناك «حنفيتة القديمة ترسل بقبقتها الحلوة في البرميل الصدىء المملوء من على عهده، في الماء . وأحس بعطش لافح عند مرآها . وراقبه العمال يهبط إليها، وينكفيء فاتحاً الماء على

آخره، ويفرق وجهه في رشاشها الحار.
بعد دقيقة رفع رأسه، وتنفس نفساً عميقاً، ونظر إلى العمال المتحلقين حوله
وقال:

- ترد الروح.

وعاد من حيث أتى. وعندما وصل إلى الخان قال بصوت متهلل:

- سووا درب لأسطه عربنچي

أطلت «الحكومة الله يسلمها» على المجاز وقالت بصوت لا يسمعه «جت
الخيّل» ثم صاحت «تعال، خش» ودخل يترنح. فرأى سليمة الخبازة امامه تحدث
خيرية والعوانس الثلاث. سلّم فردت عليه باقتضاب. وتابع حديثها:

- اش كسبت من گعدتي؟ . . صار لي اكثر من شهر كاعده. والله لأرجع
للخبز وأطلع مصرف البيت.

وصل العربنچي إلى ليوانه منهوئاً مبللاً. وچراوته لم تعد على كتفه.
ونظرت اليه زوجته مقبلاً على تلك الهيئة فعرفت أنه سكران. لمت ركبتيها
الممدودتين، ووضعت ابنتها على الارض. وهمت ان تقول شيئاً. ولكن خيرية
كانت تنظر اليها تاركة سليمة واخبارها. فتركته ينطح على الحصير قربها مغمضاً
عينيه وعرفت أنه في منتهى السكر قالت بصوت مكتوم:

- حمادي . . اشك هدومي؟

تثاءب حمادي مغمض العينين وقال لها:

- اسكتي ليج . . تره اطلکچ.

- وي، يوم الأبيض.

- مروگي جوه كالتی.

- ونظّل عمرنا بيد مروگي؟

ولم يجبها. دلت رأسها عليه فرأت وجهه العرق ضئيلاً منكشاً، وكان فمه
مفتوحاً تبرز انيابه الثلاثة منه، وصدرة عارياً يعلو ويهبط بشدة. وأفرعها منظره.
فحدقت في وجهه صامتة. واثار اشفاقها عليه انفه المحزوز الذي كانت تعيره به
عند صفاء البال. وانتظرت ان يحرك شفتيه الذابلتين. انتظرت في تفجع وهلع.
وتسرب كل الحقن المكتوم من صدرها. وبقت تلك العاطفة وحدها ولم ترفع بصرها
عنه حتى تلمظ وتطلب ماء.

بدأت تماضر تمل حجرتها الجديدة. حسبت ان الملل سيتركها حين تغادر كعب الارمن وتنعم حياتها مع الخالة نشمية، والنهر منها قريب، وشجرة التوت تذكرها بمحلتها وراء عطفة النهر. ولكنها ضجرت بعد الاسبوع الأول. حلمت، ذات مرة، بأنها في محطة قطار وحيدة مع صرتها، وهي لا تعرف هل القطار فاتها أم لم يات بعد. كانت المحطة فارغة لم تجد فيها من تسأله. واضطرت إلى الانتظار، ملتفة بعباءتها قرب صرتها التي كانت ثقيلة جداً لا تقوى على حملها. ففكرت، ترى هل سيأتي أحد ليعينها حين يقبل القطار أو تستطيع هي وحدها ان ترفعها إلى العربة. ولكن القطار لم يأت. ربما فات. كانت ضجرة وخائفة. وهبت على صياح ديك الخالة نشمية. وقد أوحى لها بأنها في برية فعلاً. كانت وحدها في السرير. فتحت عينيها على حجرة فارغة، وتقلبت وسمعت الخالة نشمية تسعل سعالها الصباحي.

وفي المساء تشكت إلى حسين فقال لها:

- عاد شيفلها وياج؟ .. اش بيع؟

- روجي محصورة

- مو أحسن من كعب الأرمن؟

- احسن. . . بس ما ادري. . . عبالك مثل العرب الشايله.

ولازمها الشعور بانها في محطة قطار. وهي لا تدري هل القطار فاتها أم عليها ان تنتظر. كانت تشعر بأن كل شيء في غير موضعه الصحيح، وبأنها ضائعة. حاولت ان تخرج إلى النهر لتسرى، وترمق خط الشاطئ الثاني المنظوم بالنخيل. هناك خلف الجسرين أهلها، وذكرياتها. وهي هنا، وكأنها «خطار». وكان الناس على شاطئ النهر كثيرين، منهم من غازلها، ومنهم من حذجها بنظرة مرتابة. ورأت في عيونهم الشاكة المتطلعة عيون أهلها الباحثة عنها. فكانت تعود مسرعة، وتجلس مع الخالة نشمية والدجاج، أو تنزوي في غرفتها تسترجع ذكرياتها حتى تختنق بثقلها.

جاءت تشكو إلى الخالة نشمية ذات مرة فاعطت لها الحق:

حقق بنية حديثة! والانسان خوب مو دجاج وين ميوكر ينام! حتى الطيور يراد إلها حلّه. وانت كاعدة بحجرة عكّب باجر راح يجي الشته، رالهوة الجاي من الشط

يكّصّ العظام كّصّ. واشلون راح تكّضين عمرج بحجرة فارغة؟ .. دحجي،
دگولي! والا هيچي الحب يعمي؟

- حب؟! وهو أكو حب بالدنيا؟!!

قالها بنفي قاطع، وكأنها سلخت العمر كله بالبحث عن الحب. وكان في
لهجتها عذاب ويأس وبوح معذب بشيء يجثم على صدرها جعل الخالة نشمية
تحقق بها. وكأنها وجدت الشيء الذي كانت تبحث عنه. حملقت بها فاعرة الفم
متهدلة اللغد، مستديرة العينين، وقالت:

- خاطر الله متگولي لي مين تعرفيه؟

وكم اوجعها ذلك!

- خالة نشمية متعرفين اشسورا بيه أهلي.

- نزول على أهليج .. وهو من طرفكم؟

اجهشت تماضر باكية، ولم تجب. قالت الخالة نشمية بحدة:

- تگولي عيني .. قابل سر؟ وحتى السر ينعرف.

صوت نشيج ثم:

- لا!

- لعد اشلون عرفتيه؟

- انهزمت من بيتي، وأني ناويه اذب نفسي بالشط.

- وشافج عالشریعة ومخلاج؟

- أوي، خاله نشمية، على بخنيج!

- متگولي، عيني، مو مرمرت افادي .. وين شفتيه؟

- بالسينما!

- وچنت متعرفيه من كبل؟

- خاله نشمية، چنت مثل المخبله، ما اعرف وين أولي وجهي ...

وحاجاني ..

- وحاجيتيه .. وبالليل نمت بحضنه؟

وانفجرت تماضر باكية. الآن وضع للخالة نشمية كل شيء. وهرعت تماضر
إلى غرفتها، وطمرت راسها في المخدة، وبكت بصوت خفيض مبللة مخدتها. اين
تولي وجهها لو أن الخالة نشمية تطردها من البيت في الغد، بعد ان وضع سرها

وعرفت من تعاشر؟ مَنْ ادراها بأن حسين سيظل معها إلى الأبد، ذلك الطفل الذي لا يحب الا أن ينام معها. وحين يتمتع بها يغادرها. ماذا ستفعل؟ تقف مرة أخرى على باب السينما لتلتقط رجلاً آخر؟ تعود إلى أهلها بلا بكاره ليقتلوها؟ أهلها الذين باعوها مثلما يبيعون صفيحة دهن فارغة؟ لا. . لن تعود. خير لها ان تلقي نفسها في النهر حقاً. ولما شبع من البكاء تراءت لها صورة أمها وأبيها. كانت الأم تلح، والأب يهدد. وفي المساء عندما عاد من دكانه قال لها «تروحين للعمار حتى لو شدنيـا من ايديـج ورجليـج. . ش تريدن أحسن منه؟ صايم مصلي، وحوشين بالعمارة وتجارة، وأبوج غظه عمره نزل. ولوما هوّه چان آني من زمان عزّلت الدكان. اشو الدنيا قحط، وكل شي ماکو. . ويعني انت ش تريدن؟ مودلي؟ ويامودلي يقبلج وانت بنت عطار تنكاته كلها فارغة بطّرك لسان الثور وخوبة عجم؟!

وصعب عليها أن تتصور أنها ستقضي العمر كله مع ذلك العجوز الملتحي القادم من بلدة جنوبية. وفي اليوم التالي جاء الخطيب وسعل وبصق وقال «جاهي العمارة وين؟! بتلفات الدنيا؟ والسيارات رايحه جايه؟» ولم تطق لهجته ولا صوته. ونفرت من عباءته وعقاله ووجهه المحروق عليه لحية تخيلتها قدره. ولكنها تظاهرت بالقبول، وطلبت أن تمهل. وبعد يومين سمحت لها أمها بأن تذهب لثري حفلة ختان على مقربة من بيتها. كانت حفلة صاحبة رأت فيها شاباً نضرين حليقين وذوي بشرة لم تخددها الشمس، وأسست لحظها، وحنقت. وارادت ان تنتقم من نفسها ومن اهلها فانسلت من الحفلة على غفلة من امها، وخرجت من حيها، وعبرت الجسر وجاءت إلى السينما.

في المساء سمعت الخالة نسمية صوته قرب الباب. كانت جالسة على التخت في انتظاره، والدجاج يللم نفسه في خنه. وتماضر ما تزال في حجرتها. وقالت له «تعال» يابه، تعال «ثم قالت لنفسها» وين لاكيها صندوق أميني البصره؟ زعطوط جواه وحده تسوه ولايه. يومية يجي يگظي شغله ويروح. وباچر يزھگ ويعلگ.

- مرحبا، خالة نسمية.

- هله بصبري افندي.

- وين تماضر؟

- بحجرتها.

وعادت الخالة نشمية تقول لنفسها «وعود ابتلي بيها؟ انزل واصعد محاكم؟ وعلى ويش؟ على دينارين؟» وحين رأت تماضر في اللبوان لتأخذ عشاءها هزت لها يدها محترضة «كولي له، عيني، كولي له. لو تريدن آني أكله؟» وبعد ذلك تصنتت وهي على تختها. الا انها لم تسمع الا همهمة متقطعة لا تشبه الشجار ولا حتى التوسل. ثم هبط صمت. وطال. ولم تسمع الخالة نشمية غير صوت انفاسها الخشنة. وقالت لنفسها «متريد تكول له تخاف من هالزعطوط ابو كذله». بلاكت آني الراح ابتلي. ورفعت جسمها عن التخت، وتدرجت على الباب.

- الله مسيكم بالخير

رأتهما جالسين على السرير والصينية بينهما: حسين يرتفق المسند، وتماضر مطرقة.

- ها، اش بيكم خاشين بالسبت؟

- الخاتون معاجبتها الكعدة.

- اشلون كعدة! بطرك الجرياه مال الجيش.

- فقال حسين في جفاف:

- هذا اللي اكدرك له.

تدخلت الخالة نشمية بجسارة:

- هو هذا حجي، الله يسلمك؟

أجابها:

- منين اجيب فلوس؟ ابوك انهب؟

- محد رايدك تبوك.

- وآني مو ابن مير هلاي، ولا ابن الشابندر

- لو ابن مير هلاي چان مجيت علينا. وابن الشابندر موبس يلمع شعره.

عنده قصر كاعد بيه.

- آني ممقصر.

- ممقصر ولسه هي بالنفوف اللي جتك بيه من أهلها. ولسع بطرك چريابه

مال الجيش.

وكانما اخرجته. رفع اليها عينين طفوليتين عاجزتين. ولكنه في اللحظة الثانية

تصلب:

- مو آني داعيش حوشين!
خرجت تماضر من صمتها وقالت:
- هذا هم تحسبه حوش؟! . . زين تزوجني ويصير عندك حوش واحد.
ولكنها شعرت بالارتباك والبؤس حين حدق بها تحديقة طويلة فيها كل
تاريخها معه، تحديقة توقعت ان يقول بعدها شيئاً قاسياً وقبيحاً. فخفضت عينيها
في ندم وانخزال، وشعرت بعرق بارد في اسفل رقبتها. ورأت الخالة نشمية حراجة
الموقف فقالت بحكمة العجائز:
- الزواج ليحل وليربط. . اصل الوجدان والكلب. فقالت تماضر بتراجع
- خالة نشمية، وآني اش رايدة منه؟
فغضبت الخالة نشمية عليها وقالت:
- لا، عيني، حقق! . . حديثه تكعد بحجرة فارغة!
قال حسين:
- وشتردين عود؟ كتور. . ميز تواليت؟
- كل شي تريد. . المريه اللي تعوف أهلها وتسلم لك نفسها لازم تخلها
بعينك.
- واذا ما عندي.
- عيب تكول ما عندي، وانت ما شاء الله رجال. . ذراعك هالمتنها. الرجال
اللي يريد كل شي يسوي انت متريد
- من كل ليج ماريد؟ . . يعني آني هم ميعجبني اكعد بحجرة فارغة.
- شفت؟ . . يعني الها الحق.
- الها الحق. . بس إلكي لي طريق
كان يريد أن يعجزها. ولكن الخالة نشمية صمتت تفكر ونقلت بصرها بينه
وبين تماضر ثم قالت:
- زين واذا كدورت ادبر لكم چم فلس؟
- كلش زين.
- بس عيني على شرط. . آني لاعرفك ولا استعرفك. وچم حسين بالدنيا؟
تمام عيني لولا؟ . . ومن يعرف باچر شيصير بالدنيا. البارحة چنه ويه هتار واليوم
ويه الانكليز، وباچر ما اعرف ويا من راح نصير. . اي عيني. . صدك.

لتضحك . . لازم تمضي لي كمبياله ، وكدام شهود وأعرف أصلك وفصلك . . والله
يعلم اللي بكليبي . .

- ١٤ -

لم تعد سليمة إلى الخبز كما وعدت . جاء رمضان في اواسط ايلول ، وهذ
الصوم حيلها ، وضاعف من لذة الاسترخاء على الحصير . وكانت تأمل ان يأتيها
القسط الثاني من فرنها في صوب الكرخ . كانت تنتظر ان يدس مصطفى يده في
جيبه ، ويقدم لها دينارين أو «اللي يقسمه الله» . ولكن مصطفى صمت . بل بدا
مشغولاً عنها بالكواني يروح بها ويجي .

ذات يوم سألها مصطفى على غفلة منها :

- ها ، أم حسين ، أشو مقهورة؟

لم تعرف كيف خجلت وقالت :

- لا ، عيني ، ما بيه شي

- اخاف ديقهرج حسين

صمتت لحظة ووجدت لسانها يقول :

- عيني ، ميصوم .

- اعوذ بالله . . أم حسين من آني صغير أصوم . . ما كطعت الصوم يوم

واحد . . حتى لما رفسني الحصان ، وظليت نايم بالفراش ست أشهر .

- يا حصان ، عيني ، هذا؟

- حچاية طويلة ، أم حسين . . ياما شفت عذاب . . لآكن فرض الصيام

عليكم يا ايها المسلمون . اننا لله وانا اليه راجعون . . سليمة خاتون ماكو أحسن

من اللي يخشع قلبه للرحمن .

هبت على قلبها نفحة ايمان . وركزت حقدھا على ابن زوجها :

- نزول على حسين . . ما أذكر يوم فتح القرعان وقرا . . آني اعرف القرعان

وما أعمى عيوني عليه؟

- تمام ! . . ماكو احسن من القرآن . . لعد اش يقرا؟

- اش يقرا . . يمكن نسه القرآية . . النهار كله يغني .

- شوفي ! والدنيا رمضان . . بالراديو غنوه وحده ماكو .

- اي ، ولد سايب .

وقال في نفسه «نغل!» ومشى إلى حجرته آمناً من أن تقول له شيئاً.
وفي الخان صامت العوانس الثلاث دون أن ينقطعن عن العمل . ونقلت فتحية
ام الباقلاء عملها إلى المساء . ثم تركته على مضض ، لأن الناس لا يريدون أن
يفطروا على باقلاء ، فيضطروا إلى أن يعبوا الماء عباً . وصامت رديفة زوجة حمادي
العربنجي لأن خيرية صامت ، وهي ، اي رديفة ، لا تريد أن تكون أقل منزلة عند
الله . ولكن خيرية بدت حزينة مغلوبة على أمرها . ولم ترفع صوتها وسط الخان كما
كانت من قبل . وذات يوم انتهزت فرصة غياب رديفة ففاضت بمكنون صدرها
للعوانس . كان ذلك يوم جمعة ، ورزوقي ، زوجها ، يلعب دراجته ذات المرايا
الخمس ، والعوانس مصفوفات قرب الحائط . وكانت خيرية واقفة قرب البالوعة :

- متدرون ليش مقهورة هالايايم؟

- ما ندرى . . بس نكول لازم الصوم متعبها .

- الصوم متعب . . والله لو اصوم ميت سنة . . بس عيني نزلت مصيبة بالدايره

مالت رزوقي .

- ليش؟

- متدرون! . . المدير مال رزوقي نقلوه . . وجابوا له مدير كلب بن سطعش
كلب . . أكلها وآتي صايمة الله يرضه على ذاك المدير العتيك چان صايم مصلي .
واشلون چان يداري رزوقي! يعزه ويكرمه . وميشرب گهوه اذا ميشربه وياه .
والأكل؟! . . عيني الاكل! . . هالبايسكل شاهد عليه . چان رزوقي يجيب له
عالبايسكل من بيتهم ب . . ب . . ب . . رزوقي وين بيت مديرك العتيك؟!
- العلوازية

- اي ، عيني ، بالعلوازية . . محلة محتشمين . والأكل مالهم خوب مو مثل
أكلنا خبز وبصل . لا ، عيني ، تمن ودجاج . واحنه نطي البرتقال للوجعانيين مثل
الدوه وهم البرتقال والتفاح والعرموط ياكلوه مثل متكرزين الحب . وكل شي چان
يطعمه لرزوقي . . ذاك المدير مال أودام . . مو هذا اللي . . . اللي . . . اللي حرام
عليه السكملي اللي يگعد عليه . . أريد أكلها وآتي صايمة . . الله يسلم الحكومة
اش يگطع عقلها .

- ليج خيرية وين الدرنفيس؟

- شوفه عيني بالرازونة . . هذوله مو محتشمين . . الله يعلم اشلون صار

مدير . . الله يسلمها الحكومة تتقشمر بالعجل . . اشلون مدير يلعب النفس؟ . .
رزوقي يگول راسه عبالك باجه مسموطة . . وأعمه ميشوف . لايس مناظر هالخنه ،
مثل بطن السراحية اللي تكسرت قبل يومين . . بعد شنورزوقي؟
كان رزوقي يمسح العجلة الامامية ، فحول وجهه إلى العوانس ، وخرقة
المسح في يده ، واخذ يمثل حياة المدير:

- سمين ، ويطنه عالية . موبس شعر ماكو براسه . . حواجب ما عنده . وعينه
من ورا المناظر مثل الحمصه .
- عوع . . قحط!

- يجي من الصبح ، لا سلام عليكم ، ولا الله يصبحكم بالخير . . رأساً
للغرفة . . ورزوقي جيب لي كهوه . . ما يصوم!
- الله يسلمها الحكومة تجيب كفار وتسويهم مداره

ولم يصم حسين . في الاسبوع الأول من رمضان أخذ ثلاثة دنانير دفعة واحدة
من صاحب ، وذهب مع الخالة نشمية إلى سوق الهرج ، واشترى بفلوسه وفلوسها
سريراً عريضاً وكتنور «ابو مرايه» وفراشاً ومخدة طويلة ولحافاً وبساطاً مستعملاً .
وحملها على عربانة «برشقة» إلى الكراة . واستقبلته تماضر فرحة عند الباب ، وكأنه
جاءها بجهاز العرس . وقبلته امام سائق العربيه الذي قال «كل بوسه تسوي كتنورا» .
وبعد ان رتبها الغرفة استلقيا على السرير ، واستمتعا بالتمرغ على فراشه اللثير . وكانا
يسمعان نشمية خلف الباب تقول «الله يساعد الصابمين! النهار اش طوله! . . .
كش كش . . من تصعد الطوفة الدوره أكسر رجلك» وكان التحذير موجهاً إلى
ديكها! . وغفى حسين وتماضر ساعة رغم الحر . ثم صبحا حسين أولاً ورأى تماضر
ماتزال نائمة . تأمل جسمها الفتى الممد إلى جانبه ، وثوبها منفرج عن اسفل
فخذها . وقال لنفسه «كل شي ملكي! . . من هنا إلى هناك» من الشعر المبعر على
المخدة حتى رمانة ساقها الممتلئة البضه . . كل شي فيها يستطيع ان يمر يده
عليه . وقيل اربنة أنفها ، وطمر انفه في الخندق المظلم ما بين كتفها المدور
واستدارة فكها . واستيقظت تماضر وقالت «اش بالعجل غفيت؟!» فاشتهدى ان يقبل
شفتيها اللتين نطقتا بهذه الكلمات . وفعل دون أن يستأذنها . فقالت تماضر:

- هسه الخالة نشمية تحجي علينا . . تكول لو ادري ما أطيهم الفلوس . .
النهار كله يكضوه بالمصارعة!

وتألم . وفي اليوم التالي شعر بألم أمض حين قال له صاحب :

- ثلث دنائير بقت من فلوسك !

ومدَّ صاحب يده في جيب داخلي واخرجها له . ثلاثة اوراق ضئيلة ذات لون واحد ، بقية اوراق كبيرة ذات الوان كانت ، يوماً ما ، ثروته ومصدر استعلائه على اهل محلته . ومن يملك منهم ثمانية عشر ديناراً؟ فتحية ام البأكلة لو حمادي العربنجي؟ . . حتى علوان ابو الجص بدا له مسكيناً بالنسبة له . ألم يقل له صاحب ذات مرة «كلش كلش تكدر تشتري زمالين وتشغلها بالجص مثل علوان ابو الجص . . ليش ممتعيش عشرة؟!» والآن انهيار كل شيء .

وعاود الذهاب إلى ذاك الصوب في الاسبوع الثاني من رمضان . وكان يقول لنفسه حين يعبر الجسر اذا رأيت الأحول يعني ما أشتغل ! ولم ير الأحول ولكنه وجد الفلاح . ثم ظهر الأحول في اليوم الثالث وذكر انه كان مريضاً ، وظهره يؤلمه من الوقوف الطويل . ورأى حسين في يده كتاباً انكليزياً . وقال الاحول لحسين برنامجهم : يقف في انتظار العمل حتى الساعة الثالثة ، ثم يذهب إلى البيت ليستريح . وفي العصر يبدأ بدراسة الانكليزية حتى تظلم الدنيا . وقال حسين في نفسه «يمكن ميشوف بالليل» . وكان الفلاح الجنوبي يترصد لهما . ويقف إلى جانبهما وكأنه يغضهما . واعتبراه علامة شؤم وأرادا التخلص منه . اقترح عليه الاحول ان يذهب إلى امانة العاصمة ويشغل كناساً ، واقنعه بمشقة . فغاب يومين ثم عاد في اليوم الثالث ، وقال : مكتوب «غطعه» على الباب ، ما يريدون كنائس . . حيف الدرهم . . چا ما له حوبه؟!»

وفي الاسبوع الاخير من رمضان اخذ الجو بيرد ، ونزل الناس من السطوح . وكفَّ حسين عن الذهاب إلى الساحة امام المفوضية البريطانية .

- اخليها بالخانة اللي يم الكاع .

وفي ليلة العيد لم ينم الكثيرون من الاطفال استلقوا على فرشهم واضعين تحت وسائدهم أو بالقرب منهم اشياءهم الجديدة : حذاء أحمر ، جوارب ملوَّنة ، دشداشة مقلمة جاءت من الخياطة توأ ، وفيها رائحة قماش جديد مأخوذ ببطاقات التموين . وبسبب من تلك الجدة لم يناموا ، وظنوا ان الشمس قد تأخرت عن مياعها . ولما غفوا قليلاً حلموا بالمراجيح ، وبالعيدية وبحمير علوان ابو الجص بيراذع نظيفة ، واجراس رناته ، واستيقظوا قبل الفجر ، وجربوا احذيتهم وجواربيهم ،

للمرة العشرين .

وفي تلك الليلة الاخيرة من رمضان لم ينم حسين ايضاً سهر يترقب قلقاً حالماً . بالأمس سمع خيرية تحت زوجة ابيه بالذهاب إلى الحمام في الفجر ، ورآها فرصة لا تفوت للكشف عن محتويات الصندوق . كان يراقب الفجر في نفاذ صبر . واغمض عينيه وتمثل العملية في ذهنه . . . أوه ! . . اذا تم بنجاح يقضي العيد فرحاً مع تناصر . وانقلب على جنبه الآخر ، وحاول ان يغفو . ولكن جسمه كان متهيئاً لأن يقفز . كانت فيه حيوية مكبوتة . وانقلب إلى جنب آخر . هذا أروح . واسترخى . ولكن جسمه تمرد عليه في الدقيقة الثانية . وتخلل الصندوق الذي تضع زوجة ابيه فلوسها ملابسها فيه . ولكن ! . . قد يكون مقفلاً . وأنتابته موجة قلق أدار ظهره للحائط في ضيق . واستطاع أن يلمح مستطيل الباب شفافاً . ربما هو الفجر في الخارج . وكانت الصراصير تغني في الليوان . وكان يعرف ان الصراصير تغني حتى تطلع الشمس . وانتظر . وشَفَّ مستطيل الباب عن زرقة . وتوقع حسين أن يسمع صوت مزلاج الباب . هذا هو الفجر . هذا وقت ذهابها . ورفع جسمه عن السرير وأرهف سمعه . ولم تلتقط اذناه شيئاً . مشى حافياً حتى الليوان . كانت النخلة القميئة هناك . طلع الفجر من حيث لا يدري . ولكنها ما تزال نائمة . وهم بالرجوع حين سمع انيناً مطوطاً أشبه بأنين دواليب العوانس . ولكن اليوم عيد . وليس من الجائز أن تعمل العوانس في مثل هذا اليوم . وترك الليوان . كان الأنين يأتي عبر الجدران على يمينه ، حيث حجرة زوجة ابيه وليوانها . ومشى نحو حجرتها . كان بكاء متهدجاً سمعه بوضوح وهو في الليوان الثاني . واقترب من باب الحجرة وصاح بصوت مهزوز :

- يوم !

انقطعت الؤلؤة . انها هي ، تبكي في صباح العيد :

- هاي اش بيح ؟

ودفع الباب قليلاً فرآها في ضوء الفانوس النحاسي الكدر منكبة على المخدة في سرير عرسها الحديدي لافة جسمها في عباءتها . كانت كتلة سوداء متكورة مثل اجانة من اجانات العجيين حين كانت تدثرها ايام الشتاء لتختمر . ودخل الحجرة واقترب من السرير فسمع نشيجها الخافت ، وتنفسها الثقيل . قال لها :

- هاي ، اشبيح من الصبح د تبجين ، واليوم عيد؟
وكان لهجته اللينة أجبت بقية عبراتها فانفجرت باكية . بكت بكاء موحشاً
ذليلاً أدهشه وأربكه . احس بالأم وامتعاض فراح يهدئها حتى خفت صوتها ، وركنت
إلى الصمت . وكان يغالب نفسه في ذلك الوضع الذي لم يجابهه قط

- هاي شبيح ؟ . . . منين متضايقه ؟

ولما لم تجب أكمل :

- اخاف متضايقه مني ؟

رأى يدها تتحرك وتمسح أنفها . وأخرجت رأسها قليلاً ، وتنفست نفساً عميقاً
كالحسرة .

- ليش مقهورة ؟

ادارت له وجهها قليلاً فرأى أنفها الأحمر المبلل ، وعينيها المقوقعتين
للزجتين . وسمعها تجيب بصوت غير صاف :

- هيچي ! . . . روجي انحصرت .

- ميخالف . . . كل شيء يتعدل . . أيامچ سعيدة !

- وأيامك

وأمتص بكلامه جانباً من وحشتها ، فحسرت العباءة عن رأسها ، ولاح له
وجهها العرق متلوياً قبيحاً . قال :

- گومي غسلي وجهچ گومي .

وامثلت له . نهضت من السرير ، وخرجت . ولبت حسين في الحجرة دقيقة
بعدها . أجال بصره فوق على الصندوق الأسود هناك . لم يكن يتدلى منه قفل ،
وزم شفتيه في حلق مفيض . وترك الحجرة . ورآها تغسل وجهها عند النخلة
القميئة . وتستشق الماء ، وتتغرغر به . واغتسل هو بعدها . ودخل حجرته يتخذ زيتته
القديمة . وفكر بها الآن . كانت تبكي بحرقة مثل امرأة مطعونة بكبدها . فلماذا؟
أحنت إلى الخبز ، أو تبكي أباه؟ . . كل ذلك مجرد تخمين . وأسف على فوات
الفرصة . وسيمر العيد حزيناً . ونظر إلى وجهه الشاحب في المرأة . ثم سمعها
تناديه :

- حسين !

أجابها فقالت :

- عبالى طلعت
- ومدت له يدها بورقة حمراء
- يمّه ، ماريد فلوس
لأول مرة في حياته قال لها ذلك . ولأول مرة في حياتها أجابته :
- اخذ عيني . . منين لك فلوس بالعيد؟!

- ١٥ -

بعد انتهاء العيد عادت سليمة إلى الخبز . وحين استيقظت ، لأول مرة ، في منتصف الليل بعد أكثر من شهرين قضتها عاطلة ، شعرت برهبة لا ارادية تزحف تحت جلدها . نظرت إلى الحائط الذي يشركها مع الطولة ، والذي كان مرهون الساييس يدقه في الشتاء بحجارة من الجانب الآخر فتستيقظ . الآن بدا لها فارغاً ميثاً . لا شيء الآن في الجانب الآخر غير الحجارة الباردة والأبالسة . وذلك اشعرها بالخوف على نحو أشد . هي وحدها الآن في سكون الليل من عالم الانس . واستعجلت في لمّ العجين . ولما اعوزها الماء خافت ان تخرج إلى الحوض المظلم ، واكتفت بأن افرغت الماء من سخان الشاي ، ومن دورق ماء الشرب . ولكنها استيقظت عند الفجر . وحين هست النار في التنور هسيسها المعهود أحست بطمأنينة دافئة . وبعد قليل سمعت صافرة الجرحجي تعلن نهاية الليل . تناولت قطعة من العجين مسمية باسم الله ، وراحت تطرقها . شفت في إعماقها فرحة مثل فرحة طفل وجد لعبته الضائعة . واستأنست بالطرق يملأ اذنيها ، ويرن مليئاً بالعافية والخير ، ويبدد وحشتها . أحست بالعجين رخواً ، وتلذذت بمرآه ينداح مطواعاً ملء كفيها .

وبعد «الشجار» الأول استيقظ حسين . جاء يفرك عينيه مع أنها لم تقل له شيئاً عن رجوعها إلى العمل . وجلس على الارض متثائباً امام الخبز المنشور على عباءة سوداء . فوجدت في ذلك عذراً لأن تقول له :

- لثاوب عيني ، وتطير البركة .
- راح اغسل وجهي .
- روح عيني ، اخذ لك غفوة!
- نظر اليها في حق وعتاب . فنكست بصرها خجلاً . فلما جاء ثانية كانت

في ذهنها فكرة أخرى .

- شوف، عيني حسين، آني راح أعد لك الخبز
- عدي .

- اي، أحسن، لا انت تتعذب ولا آني .

ولكنهما اختلفا عند الظهر . شهرا البطالة علّماها اشياء كثيرة، منها أن تصك
اسنانها على الفلوس أكثر .

- سبعين كرسية .

- خمسة وخمسين .

- عيني اشلون خمسة وخمسين . . كل شجار ائتعش كرسية .

- كَلت ليج خمسة وخمسين .

- أوي، عيني . . اشو جيب الفلوس . . خليني وحدي . . عيني روح

للكهوة .

وتركها، ولو فتشته لرأت ثلاثة دراهم في جيبه . ولكن منظر الفلوس في
الطاسة المعدنية ابهجها . غرقتها بيدها . كانت كثيرة . وانساها ذلك تعبها
ووساوسها . فأبتهج لعودة الفلوس من بعد غياب، ولما جاء مصطفى في العصر
يحمل «كونية» استقبلته ببشاشة، واستضافته :

- عيني، ابو ابراهيم، الجاي مخدر . . تجي تشرب استكان چاي؟

- اشكچ ام حسين . أكو واحد يگدر يرد الجاي من ايد حلوه؟

- ابتسمت في فرح . وصبت له قدح الشاي . فتح مصطفى حجرته، ووضع

«الكونية» في الحجرة، واغلق الباب ثانية وجاء ينود برأسه :

- ام حسين، اش لون الانسان يجازيج، والله القائل وما جزاء الاحسان الا

الاحسان؟

كانت جذلى للغاية :

- تفضل عيني . . متكول لي منين تعلّمت ها الآيات الحلوة؟

قال لها وهو يخرج سيكارة من جيبه :

- كولي غيرها أم حسين . . آني خاتم القرعان مرتين من آني جاهل

- وما نسيت؟

- اشلون انسّه، وما أدري يا امام القائل : التعلوم في الصغر كالنقش في

الحجر. . ويا ويل اللي ينس القرعان.
تنهدت سليمة في حسرة وقالت:
- وين حسين حتى يسمع؟
- لازم د يعذبج.
- مد ينام بالبيت. . ما أدري وين ييات.
- هاي بدل ميشليج على راسه.
- يشيلني على راسه؟ . خلي يفك ياخة عني.
- آني عندي خاتون مثل الورد، وما حطه بعيني؟
تندی وجهها، وافاقت عيناها فاطلتا من جفنين سميكين. قال لها في ثقة
رجل:

- يمكن يشوفج وحديج ويلعب عليج.
ورأى وجهها يغيم، فأدرك أنها تأذت من حيث لم يرد.
قال ملطفاً:
- ما لازم تنقهرين! . . القهر ش يحمله؟ . . لو حطوه على جبل لأنهد عاد
الانسان؟ وانت اش شايفه من الدنيا؟ . . بعدج ما شاء الله. . . والشباب اذا راح لا
ينفع ولد ولا تلد.
ناولته قلدح شاي آخر. وانبسط وجهها مرة أخرى. وكانت على شفتها السفلى
ابتسامة. . ربما هي ابتسامة خجل واعتذار من عمرها. فأسترسل في لهجة حنون:
- ام حسين. . ترى آني كل ما اشوفج مقهورة انقهر آني هيمنة.
تنهدت وقالت:

- لا، عيني، لو يش؟
- ما أدري. . يمكن اكول مريه حديثه لازم تفرح. لازم يكون قلبها خالي من
كل هم. . . الله يرحم أبويه چان يگول القلب مثل الورد اذا خش بيه هم ذبل،
واذا ذبل بعد الدنيا ما تسوى شي. واحنه ما اندير بال على قلوبنا. واحدنا عمره
عشرين سنة وتشوفيه مثل الشايب. لو يش؟ . . شايل هموم الدنيا على راسه، ودايماً
يحسب حتى يخلص قلبه. وبعد هذا كل شي ميشوف له طعم حتى الماي اللي
يشربه.

قالت في حسرة:

- عاد جيب لك كلب خالي، وسلمان من جور الليالي.

رد عليها بنبرة عاطفية:

- يعني اش تعتقدين؟ .. أكو واحد بها الدنيا كلبه خالي؟ صاغ سليم؟ ..
أبدأ. . لتصدقين أم حسين. يمكن انت تشوفيني أضحك، وأجيب بها الآيات
تقولين خيعونة لمصطفى. . كلبه خالي. . أبدأ أم حسين! ما مستقر بالدنيا.
واشلون استقر وأني غريب بهالولاية. . أعيش خمسين سنة وأني بلا أهل، مقطوع
من شجرة، لا عندي بيت استجن بيه، ولا كرايب اروح يمهم. . اركض مثل حمالة
الحطب وشم حصل؟ .. أبدأ. . ويصير الليل ألف راسي وأنام بحجرة مثل هذه
الحجرة، يمكن أصغر. وانت باسم الله؟ وتقدي لي چاي وتشرب طماطة،
والوجه الحلو يضحك. . بلاكت هذوله اللي كاعد عدهم نزل مثل الدايس على
خوانيگهم، من يشوفوني يتراكضون، النسوان والولد، وأخش بحجرتي، والليل كله
اسمع الجريدية. أم حسين لتهيجين نار كلي!

أطرق صامتاً. ورفعت سليمة اهداها فقابلتها صلعتة الطويلة التي اطفأ
غشب المساء بريقها. لاح لها مكروباً ذليلاً حتى احست بالاشفاق عليه.

خدرت ساقا مصطفى الطويلتان، وهو جالس على «تخته» فمددها. واخرج
سيكارة. ويحث عن علية الكبريت فلم يجدها. قال لها:

- أم حسين. . متورثي لي الجكارة من اللمبه. . هالايام الشخاطة تعادل
صمونتين.

تناولت السيكارة، ورفعت الصفيحة المثقبة الحارة، وأدخلت السيكارة في
عين النار، وتركتها تدخن، ولما اخرجت كان نصفها اسود. ونجّلت. ولكنها
شعرت بالالفة نحو الذي قدمت له السيكارة. وكان التنور قد همد، والمساء قد
اقبل. وكان كل شيء بيتياً. . التنور ولمبة الشاي، والسيكارة، ورجل وامرأة. .
رجل ثرثار، وامرأة خرساء لا تستطيع الافصاح عن نفسها. الوف من سني العبودية
سلبتها نعمة النطق بما يجيش في صدرها. ولولا ذلك لقاتل: أنا ايضاً أحس
بالوحدة يامصطفى. وفي يوم العيد بكيت لانني وحيدة في هذا الحوش الكبير،
ولان الشتاء سيأتي قريباً، وسأسمع المرازيب واخاف.

في تلك الليلة سكر مصطفى عند «ابو خشم الدرنفيس» وأرقت سليمة في
حجرتها. تقلبت على سريرها متأففة. ورفعت الشف برجليها في ضيق. لم تكن

هناك سماء تستانس بنجومها مثلما استأنست في ليالي سهادها الاولى . الفانوس النفطي معلق على الحائط، وذبالته خافتة، وعلى الحائط قمع من الضوء قاعدته تضيء دواسر السقف القريبة . استرجعت كلمات مصطفى الحنون الساحرة التي هزّت اعصابها الرخوة البطيئة الاستجابة . . الكلب اذا خش بيه الهم ذبل، واذا ذبل بعد الدنيا ما تسوه شيء، حتى الماي ميصير له طعم . وصدّقت . في احيان كثيرة كانت لا تستسيغ طعم الماء . مراره . وفكرت في نفسها المظلومة، وحياتها تذبل في بيت موحش . هي ونخلتها تستقبل الصبح واللبل، بلا طعم ولا راحة . وأي شيء رأت في حياتها؟ صحيح ماذا رأت؟ انتظرت الزوج طويلاً وصبرت صبر أيوب ولما جاء قالت هذه فرحة العمر . . . زوج عنده بيت وسيارة، وأي قسمة اروح من هذه القسمة؟ ولم تدر أنها ستفقد في ساعة مشؤومة .

زفرت سليمة وانقلبت إلى جنبها الآخر، وعيناها مفتوحتان . وعند منتصف الليل نهضت لتعجن العجين بيد رخوة . جلست إلى جانب الاجانات تحرسها رائحة الماء الحار من ابدية الليل البارد .

واطبقت رأسها على صدرها، ثم شعرت بوجع في ظهرها، فنهضت واستجارت بفراشها واسترخت وقالت لنفسها «جدة! . . مثل الجدة» وكأنها ولدت عشرة بطون! وقفزت إلى ذهنها كلمات مصطفى «مريه حديثه!» «وأخذت تسأل نفسها عن عمرها» اش كد عمري عيني؟! . . ثلاثين؟ . . من خطبني عليوي، الحجل چان برجلي، ومشيتي تهز الكّاع . . التنور اللي يهد الحيل، التنور اللي يكسر الظهر . . ست سنين ورا التنور، لا صيف ولا شتا استراحيت . . عبالى استريح . . أطيت الثلاثين دينار اللي جامعته من عمه العيون، وكلت راح اخلص من التنور . وهسه طلعت شريكه . . طلع الفرن مشتركين بيه عشرين واحد .

وصممت ان تفتح مصطفى في الموضوع .

بعد يومين جاءها يحمل «كؤنية» . وقال لها عند الباب في لهفة:

- هبّت لچ چاي من هذا الأصلي . . ممغشوش!

كانت وراء التنور، فمسحت يدها بثوبها الاسود، وتناولت الكيس الورقي الصغير . وفتحته وشمّت رائحة الشاي . ولاحت فرحة طفولية على وجهها المستنفخ

- ابو ابراهيم شنها الزحمه!

- كل زحمه ماکو .

- هذا الجاي مال أودم . . مو ذاك اللي بيعوه العطاطير . . كله بش . . راح اشرب واندعيلك!

- تستاهلين صندوق چاي .

وخجلت . راقته يفتح باب حجرته ، والشاي في يدها وجهها يعبر عن أكثر من فرجة بكمية قليلة من الشاي . وقبل ان يغيب في حجرته قالت له :

- ابو ابراهيم خلصت شغل ، وراح اخدر چاي . . تبقى تشرب چاي؟
- آني باقي .

خلعت الجوربين الأسودين اللذين تلف بهما ذراعها اتقاء النار ، والثوب الاسود الذي تسربل فيه ، وأسرعت تشعل اللبة . وبعد زهاء ساعة كانت جالسة على الحصير ، ومصطفى إلى جانبها ، ورائحة الشاي العطرية تفوح دافئة مهددة للاعصاب حتى قالت في لهجة رخوة :

- عيني ، هذا خاصيك يبين مو خوش آدمي .

- زنديق بن زنديق .

- يعني الثلاثين دينار تروح بوله بشط؟!

- على بخنج ام حسين . . وجعلنا على المؤمن قلبه حفيضا .

- شهرين ما استلم منه غير ثلث دنانير؟ . . هذا اشلون فرن أجرب؟! حتى

لو چنت مشتركة وبه خمسين واحد .

- حقيج . . أم حسين تره أحچي وجداني . . يعني قابل الارمني ابن أخويه؟

- لا ، عيني ، انت ش عليك؟

- والمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص . . البارحة چنت بيه . . گلت له

خاجيك طوختها ، ولعبت نفسنا . الثلاثين دينار لو مشغليها بالتجارة چان جابت ذاك

الحساب . گال ابو ابراهيم انت تعرف الانكليز يوم وياك وباچر عليك . گلت له

احنه ش علينا من الانكليز والمسقوف؟ احنا اطيناك الفلوس ونريد حقنه . . ؟

وعليت حسي عليه طالته بالفلوس ، وأنعلت أمه وذاك ابوه . . والله لا اشتكي عليه

احجز عالفرن . . اهجوله تهجول .

قال كلماته الأخيرة محتقناً فهدأت . واستسلمت له وقالت بعد فترة صمت :

- وبعدين؟

- وبعدين نشوف . . خلي يولي . . سلبوح السيان . . دشمي شلون ريحة

الچاي؟ . . يكعد الراس .
 - كلش خوش چاي . . منين اشتريته؟
 - من تاجر بسوك الشورجة . . اطانيه من راس الصندوق كبل ميخلطه بالسودا
 والبتل .
 ناولته «استكان» الشاي . فمسح فمه بباطن كفه قبل ان يتناوله ، ونقل مسبحته
 السوداء إلى اليد اليسرى . وسألها :
 - اليوم مخلصه من وكت؟
 يوميه راح اخلص هيچي وكت . . التموين قلل الطحين
 - أحسن ليج .
 قالت له متشكية :
 - عيني ، شم حصلة من التنور؟
 - حقج . . مريه حديثه تكضي كل عمرها بالتنور .
 - والخبز ينراد .
 خاف ان تعود ثانية إلى حديث القرن فقال لها :
 - تنكضي . . البارحة ام حسين غير منام شفت
 - خير ان شاء الله .
 - شفت نفسي . . . الله يرحم والديچ متورثي لي الچيكاره؟
 - عيني ، ما اعرف أورثها .
 - شيراد لها . . تتعلمين .
 تناولت السيکاره ، ورفعت الصفيحة المثقبة وقالت :
 - اي عيني . . كلامك مقطوع بخير . . اش شفت؟
 ضحك ومصّ من السيکاره السوداء الرأس :
 - شفت نفسي واگف ورا باب الحوش ، والدرب چان يصوصي . دگيت
 الباب محد جاووني . . صحت أم حسين آني مصطفى . . محد جاووني . هوايه
 نقهرت بعدين انداريت من الطولة . . هم چانت مفلشة تشلبهت عالتيغه . . وشفتيچ
 گاعده بنص الحوش . وبصفيچ فد سيد عمايمته هالكبره . . صحت ام حسين ليش
 متفكي لي البساب؟ مو صار لي ساعة واگف بالدرب . . شنوزعلانه مني؟
 مجاوبتي . نقهرت وروحي فرفحت ، وحسيت ثقل على صدري . . ردت

اختنك . . وبعدين كيت من النوم
ضحكت سليمة في نشوة وقالت :
- كل المنامات بالمكلوبي !

- ١٦ -

سألته تماضر :

- من هذا تربين دجاج ؟ !

- لو اكدر أربي طيور چان ربيت من زمان ، چنت آني مثل الريشة . هالسمن
كله قهر جاني لما تزوجت المرحوم رجلي ابو الجهره المزنجره . ويوم على يوم
أتحصر ، وتكعد على أفادي حكة شحم إلى أن صرت بهالحال . من آني صغيره
چنت أطارد مثل الغزال . بس يصوفر لي رديف . وبعد دقيقة وحده آني يمه . وجا
يوم طيور ما كام يطير . كبت عليه عيطة الجوارين من الخايات اللي ما چان يدير
لهن بال . شنويابه ؟ ديعاين عليته .

- ومكمتو تتلاكون ؟

تتلاكه على عناد الظالمين . چانت بعكده خرابة چبيرة . . انت تفتنين
عليها ، يم السقخانة .

- اي خالة نسمية افطن عالسقخانة - وتنهدت - ذاك اليوم فلشوها !

- چنت أروح بحجة أمللي ماي ، وأشوفه هناك بالخرابة يطير طيارة أم
السناطير . وام السناطير ما يطيروها الا ناس عليهم العمل . چانوا خمسة ستة
يشتركون بيها ويسوها . قوسها ثخين ، اثنين يتكابلون عليه يله يعوجه . وخيطه
متين . وچانوا يشدون حجارة بذيلها حتى تتكل . وچنت اشوفه هناك لازم الخيط
بايده الكوية ، وچاك الصايه مفكوك ، ورمانة رجله مبينة هالمتنها . چان بس يعجبني
أعاين عليها ، عبالك منحوتة من مرمر . وچان من يشوفي يسلم الخيط لثلاثه ،
ويجي يركض عليه بحجة يشرب ماي . وهناك تتناغى . چان يعجبه يشرب الماي
من حلك المشربه . المشربه اللي لما چنت اشيلها على چتفي احسه ينفطر ، چان
يشيلها رديف مثل متشيلين التنكه الصغيرة ، ويقرر بيها إلى ان يرتوي . ؟ ويگول لي
بحركة : اشلون ؟ مو مرمرت كلبني ؟ چنت اكول له : آني هم مرمرة . اطلبني من
اهلي . فچنت أعرف اهلي مدبري لي حفرة يطموني بيها . چانوا يعرفون رديف ما

عنده الا الطيور وام السناطير، وعایش بیت مزه ابوه .

- چانوا يعرفون انت تحبيه؟

- وأكو واحد ظل ميعرف؟ چانوا يحبرون ش يسوون حتى ميخلونة نتشاف .

بلاكت اذا اثنين تحابوا يطلعون نكابير من جو الكعاع . . شي واحد مكدرنه نسويه . . . منهزمنه!

زفرت تماضر، وتندت عيناها، واستدركت نشمية :

- ولو گذرنا نسويه چان سويتاه . فد يوم جا عليه أبويه على غفلة، وگلي نشمية شفت لچ عريس صاحب بستان . بعد شتريدين؟ . . بساعة الساعة گمت اشهگ وأبجي . گلي : احنه عارفيها من زمان . بلاكت هذا خملچ أزوج لرديف اللي نهار كله سايب؟ بديعه! شديها من رجليها وايديها، ولتخليها تطلع . وشدونى من رجلى . وبعد يومين جا السيد للحوش، وعگد المهر . وكل شي صار على غفلة، وبالعجل، وليلة الدخلة مسلمت نفسي إلا بعد ما جرّ الخنجر عليّ وخلاه على خوانيگي . وأهلي من ورا الباب يتلايون ويصيحون : اقلها . . هاي موبنتنا .

سألت تماضر: ورديف اشصار منه؟

- ثلث تشهر من بعد الدخلة عتبة الدار مشفتها . وبعدين خلوني اطلع شويه .

بلاكت عگكيش؟ رديف طلع من بيت مرة ابوه . . طلع هاج! وباع طيوره . ومحد يعرف وين راح .

ولاح ظل من الاسى في عيني تماضر، ولوت راسها في اشفاق . وكانت تفكر بذلك الشخص الذي رسمت له الخالة نشمية في خيالها صورة اسطورية . وبعد دقيقة صمت سألت بهمس شجي

- وراح للتالي؟

اجه للطرف بعد ثلث سنين . بلاكت الثلث سنين عمر . تزوجت بيها وحبلت وجبت ولد ومات . والتهيت باللهوة اللي مطلعين منها . وصاحب البستان طلع عنده حصه بستان صغير مال وقف . گلت لچ الأهل يكذبون . الرکاع يسووه قندرچي . ورديف موداك الرديف . ابو صايه الترف، والطيور الحلوة، وام السناطير . جا لابس بنطرون اسود مرکع، ولحيته چيبيرة . وأني يمكن تغيرت، الحاصل أول شوفه چانت صعبة علينا . وبعدين كل واحد مشى بدره .

سهمت تماضر منكسرة خاطر . وبعد لحظات تفكير هزت رأسها وكأنها

تطرد الأفكار عنه . لم ترد أن تصدق بما صار عليه رديف .

تحسرت وقالت :

- خالة نشمية ، اذكر لما چتتو تسوون هريسة .

كانت صورة من صور ماضيها الحلو :

- چان رجلي معنون بيها . بلاكت شنو الفائدة؟ چان الأغبر يكرط فلوسه كُرت . ويدل ميصير غني مثل اخوته چان دايماً ينتظر فلوس الضمن . وبعدين حتى اخوته طردوه من بيتهم . وجينه كعدنا بهالبيت .
- والنبة؟ . . أولي عالنبكة !

حلمت تماضر بها . حلمت بكل الاشياء البعيدة وراء عطفة النهر . كانت تتسلق «النبة» خلصة ، وتجلس في المكان الذي تنفرع فيه الفروع وحين كانوا يحسون بها يطردونها . وكانت الخالة نشمية وحدها تدافع عنها .
- خالة نشمية من طلعتوا من البيت ، ابدأ مخشيت بيه .

وغرقت في حزن . ربما حلمت بمسقى الماء ايضاً . ربما شمت رائحة الطباشير . والآن أصبح رديف ايضاً من فرسان أحلامها . كانت تتخيله أمام عينيها بصايته الحريرية ، والحمام حوله . كان بطل اقصوصة مسحورة ، مثل ابطال تلك القصص التي كانت جدتها تقصها عليها . حتى ليصعب ان تصدق انه هزم تلك الهزيمة الشنعاء ، وجاء بينطلون رث ، ولحية نامية . حلمت به فارهاً جسوراً مهيب الطلعة . ولم تتصوره غير ذلك . ثم هو ، مثل أبطال الاساطير ، يتيم ومظلوم . ولا قلب يحن عليه . . ربما كانت هناك وشيجة بينها وبينه . فهي مظلومة ايضاً ، ولا قلب يحن عليها . ويمكن أن يكون مصيرها كمصيره . واحبت ان تسمع المزيد من اخباره من الخالة نشمية . كانت المرأتان تجلسان طويلاً حول المنقلة ، وكان الجمر يتوقد كالياقوت فتذكر تماضر ذلك السلطان الذي كان يتدفأ بحرق الياقوت . حكاية سمعتها من جدتها عندما كانت طفلة . والآن تعود مع أحلامها . كانت الخالة نشمية تشير فيها الاحلام . كانت مثل صندوق الدنيا لها . كانت تلون الاشياء ، وتبعثها إلى شيء مجهول حزين . وفي الايام الصاحية كانتا تخرجان إلى اللوان حيث الشمس عسجدية دافئة وفي اللوان يكتسي الجمر الياقوتي غشاء أبيض شفافاً ناعماً . وتمد تماضر يديها عبر النار ، وتقول «اي خالة نشمية ، احجي لي . منو نزل رديف من السطح؟»

- نزلن الجايفات، البائرات اللي الخطاب ما شايفه عتبة بيتهم. هو يصعد على البرج وهن يتراخصن على السطوح يوقون مثل ما يوقوق الحمام. مثل ذاك المؤذن اللي حسه حلو. هو يوذن وبنات المحلة كلهن يشيلن راسهن وهو خايف من الله مديدر لهن بال. راحن اشتكن عليه عند السلطان. يابه شنو؟ المؤذن يعاين عليهن من فوك المئارة! راح السلطان منزله من المئارة. وكام يوذن بالسطح اشتكن عليه. يابه شنو؟ حواشنا ناصية، وبعده يعاين علينا. كام المؤذن يوذن بصحن الجامع. اشتكن عليه هيمنه... عيني البنات هن يسمعنه يتصورونه واكف فوق روسهن... اي عيني... حسه حلو! كل هم السلطان، متكولوا من الأول حسه حلو؟ والا رديف. أول مرة اشتكو عليه نزلوا من فوك برج الطيور. كام يطير بالسطح ورا التيغة. ردوا اشتكوا عليه. والله شنو؟ ديعاين علينا من ورا التيغة. بعدين كامن يتحججن. كلما يسمعن حسه «عاع!» يگولن: هذا رديف. ديصيح علينا! وازداد سحر رديف في نفس تماضر. وتخيلت نفسها في مكان نشمية. وعندما تفوق من غيبوبة الحلم ويقع بصرها على دجاج الخالة نشمية تحسبه طيراً. ألم تقل لها الخالة نشمية انها تربي الدجاج اكراماً لذكرى رديف؟ ويأخذها الاشفاق على الخالة نشمية أيضاً.

- خالة نشمية، اشلون مات المرحوم رجلج؟

- مات؟.. كتلوه كتل.

- أولي عليه.. منو كتله؟

- كتلوه اخوته على عتک تمر. چان أثول بيعار. چانو يوتون كل حصته ويگول ميخالف هذوله اخوتي. چان يخليني بنفونف واحد وحجل ماكو برجلي، ويتلفس فلوسه عالزاييم وعلى ولد اخوته. وأخرتها كتلوه على عتک تمر. مريات اخوته چانو يلبسن ويزوكن. وأني بطرک نفونف بالشتا ونفونف بالصيف حتى عرفت الراحيل مو مال حشمة! ما يجون بالعين والراس. يراد لهم دايماً حديدة حامية. چنت ازعل، والزعلة تجر اسبوع يله آخذ اللي اريده. اش عبالج چان حسين اشترى لچ كتور وچربايه لو ما شاف الحديدة حامية؟

وفكرت تماضر بما قالت الخالة نشمية: صدك! آني اله!

وفي المساء حين جاء حسين ابدت له وجهاً مكفهراً، واعتصمت بصمت

طويل. قال لها حسين:

- خير ان شا الله . . أشو معقوجه؟!

لم تجب

- شكو مايع افادچ من الجوع؟ . . ثلث دراهم متكفي؟

وأمسكها من يدها فتملصت بقوة وزعل . وعند العشاء استرخى على السرير ودعاها:

- مضوري!

ظلت صامتة .

- ليچ تماضرا! . . ام خشم المفروش!

نظرت اليه خزراً ولم تجب . ولما همّ بأن يمسكها هربت إلى الخالة نشمية ، وبقيت هناك حتى شعرت به يغادر الحوش . رأت قامته الربعة عند الباب . ماذا لو يذهب ولا يعود؟ وجفلت . ورددت بلاطات الليوان خطواتها المذعورة حتى اوقفتها الخالة نشمية :

- وين رايحه حافيه؟

خالة نشمية طلع زعلان!

- وخل يطلع . .

- يروح مبرجع . .

ضحكت الخالة نشمية بخلو بال :

- وهذا خملج؟

- شكو عند بالقيد؟ . . من يعرفه؟

- أهيه! ونشمية تذب فلوسها بالشط . . تعالي . . تعالي

قرفصت قرب منقلة الفحم قبالتها . كانت الخالة نشمية تنود برأسها ، ونفرك يديها فوق النار التي توشك ان تخدم .

- اشلون خالة نشمية ، تعرفين وين ساكن؟

- ماكو شي مينعرف بالدنيا .

ودهشت تماضر وسألت مستزيدة :

- تعرفين وين ساكن ووين يشتغل؟

- أعرف وين ساكن ، بس اللي ما عنده شغل منين اجيب له شغل؟

- نجار . .

- نجار وله بيعار . شعليج تريدي يجي لولا؟

ولم تجب تماضر فقالت الخالة نشمية :

- باجر تشوفي مثل الكرته .

وجاء حسين في اليوم التالي . جاء منكس الرأس . وكانت تماضر عند الخالة نشمية . ففرقت فرحة . وقبلت نشمية في جبينها . فقالت لها هذه : لا تروحين عليه الا يصيح ليج

ولم تكذب خيراً . وبعد قليل صدر من الغرفة المجاورة صوت مخشوش مثلوم :

جاءت ووقفت عند الباب

- تعالي خُشي

دخلت صامته واتكأت على الكنتور . وكان هوجالساً على السرير . أوماً اليها بأن تجلس على السرير . فهزت رأسها ولم تفعل .

فقال لها :

- زعلانة؟

لم تجب . فقال بلهجة لينة :

- غير واحد يفتهم سبب الزعل .

بعد صمت قليل ، انفجرت قائلة :

- هذا نفنوفي مال الصيف . . والشتا جا . . والكنتور فارغ .

قال لها :

- ليش اللي يريد شي هييجي يسوي؟

قالت بلهجة مستعارة :

- واذا الرياجيل مو مال حشيمه؟

وبعد ايام كانت تماضر واقفة امام المرأة بثوب اخضر جديد مورد . كانت الوردود تزين قوامها الممشوق . حاولت جاهدة ان ترى ظهرها ، وارتفاع ردفها . وقالت لنفسها «حلوه ، والنبي حلوه!» ، وخَفَّت وتجنحت كالفراشة ، وركضت إلى الخالة نشمية :

- خالة نشمية كومي نطلع شويه .

- وين بهالبرد؟

- وين أكوبرد؟! .. نشم هوا.

وعدتها الخالة نشمية بأن تأخذها غداً لتأخذ حصتها من الضمن. وكان الغد يوماً سعيداً لثماضر. عادت في العصر وقالت لنفسها في حجرتها «لو يوميه البس نفنوف چان سبيت الناس سي». واضطجعت على السرير. وهي مازال في ثوبها الاخضر المورد. وضعت يدها خلف رأسها، وحلمت بزيارتها اليوم. حلمت بالبستان الذي رأيته عبقاً بفاكهة الشتاء. وقالت لنفسها «لو عندي مثل هالبستان چان كصيت كل عمري بيه» وشمّت روائح شتى. وكان لكل شيء رائحته حتى الدجاج له رائحة، وليس مثل دجاج الخالة نشمية! وكانت للتراب رائحة حادة منعشة، ولذرق العصافير، وللماء الموحل البارد، وللمساقية، وللفنط الاسود قبل مكينة الضخ. وكانت زقزقة العصافير تملأ الجو. وفي السقيفة الصغيرة التي جلسا فيها لانتظار المضمنجي سمعت صوت صرصار. وعجبت أن يغني صرصار في النهار.

عجبت من كل شيء رأيته حتى من تلك البقرة التي مرت بها تسير في وني واستغرق. عجبت من جحش ضئيل الجسم، أبيض البطن يمتطيه فلاح عجوز اعجبت من اللبن الرائب الذي شربته في ظمأ شديد. ولم يكن الانتظار مملأً. ولما جاء المضمنجي نظر إليها قبل ان يلتفت إلى الخالة نشمية. ربما لثوبها المورد، او لصباها. وقادها عبر درب مرتب إلى اقصى البستان حيث تجمع تل زمردى من البرتقال، شمت رائحته وهي على بعد خطوات. كان البرتقال كثيراً كثرة

لم تر مثلها في حياتها. تل كبير يتوسط أربع اشجار ضخام. وقدم لها المضمنجي برتقالة ريانة ومثلجة. وركضت طويلاً في البستان لوحدها، ثم قادهما إلى اماكن أخرى. وكانت تحب ان تسير هكذا، وتسمع احاديثه ونوادره. ولكن الخالة نشمية انهدت على دكة وقالت «جيسوا لي عربانة! بعد خطوة واحدة ما اكدر امشي» وضحك الرجل وضحكت. وتلاقت عيونهما. ورأت في عينيه شيئاً حلواً. كان رجلاً طويلاً ابن الاربعين جهير الصوت، ثابت الخطوات. وفي الطريق خيل اليها انه تهامس مع الخالة نشمية عنها. رأيته يختلس النظر إلى ثوبها، أو إلى جسمها. وقالت لنفسها الآن «صدك! لو يوميه البس نفنوف چان سبيت العباد سي» وغابت في عالم مسحور وهي مستلقية في فراشها. ولم تدر كيف بدأ الليل يتكوم في الحوش، وكيف اضيء مصباح الشارع وراء تلك السدرة أمام الباب. وجاء حسين.

أصبح مصطفى معروفاً لدى جيران سليمة الخبازة يروح ويجيء بكونيته، ويتناول فطوره أحياناً عند فتحية أم الباكلة، وينغمس في الحديث مع هذا وذاك. وكان صاحب أبو البايסקالات أكثر من يراه من الناس. فكانوا يمتطرون صاحباً بالأسئلة:

- عيني، متعرف وين يشتغل مصطفى؟

- اشمدريني، يمكن يشتغل بالسوك السودا

- ليش أكو سوك سودا وسوك بيضه؟!

تساءلت اسومه العرجة، فقالت رديفة زوجة حمادي العربنجي مظهرة معرفتها

بالأسواق:

- كل الاسواك سوده! يعني سوك العوينه اللي مليون سيان أسود خايس هم يسموه سوك ابيض؟ . . منين يجيله البياض؟

قال صاحب:

- السوك السوده اللي يتاجرون بيها بالخفية

فعادت رديفة تعترض:

- وليش واحد يتاجر بالخفية؟ يعني عندك بضاعة هسه وما حد يشتريها

منك. . عيني، الناس من الماكو تشتري الكحل من العين.

- ليج رديفة لتخوطن وتخرطين. . بالخفية يعني من غير تموين، ويش

ميريد يبيعه.

- أها!

- اي، اللي سعره درهم يبيعه بنص دينار

فقال خيرية زوجة رزوقي:

- عيني، والحكومة الله يسلمها، شلون توافق؟

- حكومتيج، يامله تلفخ، تشتغل بالسوك السودا

قالت خيرية نصف مهددة:

- عيني، لتحججي هيچي، دير بالك على مصلحتك.

وسألت رديفة:

- واش جاب مصطفى على سليمة الخبازة؟
 - اشمدريني يمكن تحبه
 فأستعظمت اسومه العرجة الأمر وقالت:
 - أها! . . صرنا يهود!
 فدافعت خيرية على صديقتها، والحق يقال:
 - لا، عيني، هي والحب شنو، شنو هي بعمرنا؟ مأجرة له حجرة بس .
 - زين والمجاي والكعدة لليل؟
 - ويعني شنو؟ عيني اتوكل شي تسوا له معنى!
 وذات يوم مر مصطفى بصاحب:
 - مرحبا سيد صاحب .
 - أهلاً بيك .
 - بله متورثلي الجيكاره .
 - تفضل!
 وبعد ان اشعل مصطفى سيكارتة ، ومصّ منها نفسين أرسل بصره إلى
 الطولة ، وقال والسيكارة في فمه :
 - تعرف اش راح يبنون بمكان الطولة؟
 - ما ادري . كل واحد يگول شكل .
 هز مصطفى رأسه في عرفان وقال :
 - راح يبنون معمل چيكاير
 - ويگولون دنيا حرب!
 - يا حرب . . راح تخلص .
 - ربنا يخلصها ، ويطلعون الكرکة والسيخ والانكليز . .
 مصّ مصطفى نفساً عميقاً وقال :
 - ياريت يطلعون . . بس شيطلهم!
 - يعني شنو يعمرن؟
 - ليش العثمانين مبقوا أربعميت سنة؟
 - وبعدين طلعا .
 قال مصطفى في وقاحة :

- من طلعمهم؟ .. احنه؟ .. ذاك مود شاهد .
 - بس هالمرة راح نطلعمهم بيدينه . . يراد لها رميته
 قال مصطفى :
 - معلوم اذا ردنا نطلعمهم .
 فخززه صاحب بنظرة حادة تراجع بعدها مصطفى :
 - أقصد . . بعدنا منعرف اشلون نطلعمهم . . أبني عمتي جندي چان يحارب
 الانكليز يم الفلوجه ، يريد يحتل سن الذبان . بعد اربعة ايام رجع من الفلوجه شايل
 عليجة . يابه هاي شنو؟ كال مكدرنا وسوينا فرهود . . واذا بالعليجة مليانة صابون ابو
 الهيل ! . وانت تعرف اش صار بغداد!
 قال صاحب في حدة :
 - بناموسي أكبر انكليزي ميכול هيچي .
 - وآني موقصدي ادا فع عنهم . . قحط مدافعين؟ .. بس مقصود الحجبي
 لسه منعرف اشلون نطلعمهم .
 - نتعلم . . الانسان ميظل جاهل إلى الابد .
 قال مصطفى بعد أن أرسل الدخان من منخريه :
 - هسه بدل منلتهي بالانكليز، نلتهي بشي آخر . . الدين مثلاً!
 - هم أصل كل بلاء .
 - شعليهم؟ همه بذاك الصوب ، واحنا بهالصوب .
 - هذا اشلون عقل؟ .. الغلا من سواه؟
 - هم؟!
 - معلوم . . هالجيش الجرار ميراد له اكل؟
 - اسكت عمي . . هالمعلبات الحلوة يعوفوها ويجون على خبز السجون؟
 - صمون السجون النا والحنطة الكردية الهم . . النخاله النا والطحين
 الابيض الهم .
 - وتنسي اشكد معيشين ناس؟ بالالاف! .. فيترجييه وسواق وعمال . . هذوله
 من يطلعون الانكليز راح يموتون من الجوع .
 - لا تخاف ، هذوله مچانوا ميتين من الجوع .
 وساد صمت . وأقبلت رديفة زوجة حمادي العربيچي تشتكي لصاحب :

- عيني، الشايب ما ادري اش ييه .. اشولا حس ولا نفس .. وجعان راح يموت .

فوعدها صاحب بأن يأتي ليراه . ولما أنصرفت قال صاحب :
دشوف !

- هم الانكليز وجعوه ؟ !

- هم .. يشيلون خطية كل مريض .. كل فقير

فقال مصطفى مسك الختام :

- هذا أكبر نازي ميگول هيچي !

وانصرف .

- ١٨ -

خرج جنديان انجليزيان ثملان من نادي الجنود الانكليز في عنق الجسر
وصعدا قليلاً . ثم فكّ احدهما فتحة بنطلونه ، وبال في خط طويل تحدر على جسر
الملك فيصل حتى وصل إلى بائع « ابيض وبيض » كان يربض على الارض مع
اربعة زبائن تحلقوا حول صينيته هم حسين ، وعاطل من محلة الدهانة ، وسكران
خرج توأ من حانه ، وشرطي مولود في قلعة سكر .

قال حسين :

- شوف الأخ الكحبه !

بدا الخط الأسود مستقيماً واضحاً في اضواء الجسر فوّاحاً برائحة خميرة ،
متطفلاً لجوجاً . دخل بين ارجل المقرّفين على الارض .

فقال البائع :

- يابه تعالوا ليغاد .

ورفع الصينية وحملها منحنى القامة إلى عدة أذرع . وسار الزبائن يلوكون
بافواههم . وطق حذاء الشرطي على البلاط برنين موحش . وقرقصوا ثانية .

قال العاطل ابن الدهانه

- اهنا بارده شويه .

قال حسين :

- أكل وهسه تدفه .

وقال السكران :

- اشرب بيك عرّك وهسه تدفه .

- ومنين اجيب فلوس .

- قال السكران :

- من خوات الكّحبه هذوله

وتتمم الشرطي بشيء من خلال فم مملوء . ورفع السكران رأسه ، ونظر إلى الجسر وقال :

- طلّعوا اثنين غيرهم .. سكارى .. . راح يبولون .. . بغداد مراحيض مال انكليز . . شتّكول عمي ؟

سأل السكران الشرطي فقال هذا :

- اسكت أخير

- يعني تهددني ؟

- منى مهددك .. هانا جاعد حدر البول مثلك . خلّي أكل لكّميتي .

- أكل وغمّس .. منو مانعك ؟ بس انت تهددني

- أنا خرنوبة ما هدهدتها .. راحت الجلعة سكر من غير ما تكيّلي ، وزرعنتي

بهاالولاية الضايعة

قال حسين :

- الحكّها !

مسح الشرطي فمه براحة يده وقال :

- انتو لبغاده ! - ثم قال للبائع - چتر خيرك .

ونفض في ارتباك . وسار يطرُق ارض الشارع بحذائه الثقيل الذي بدا زائداً عن حاجته . وقال السكران في رضى «هذا الشرطي على راسي» . وضحك في نشوة . ومشى بالاتجاه الآخر في خطى حلزونية على جانبي الخط الاسود .

ونفض العاقل وقال للبائع :

- عاشت ايدك على الطرشي .

وسلم على حسين . وقال البائع حين انصرف :

- أكل مال اربع نفرات .

وبقى حسين والبائع . راودته نفسه أن يأكل لُقّة أخرى . لا . الفلوس تتراد .

ونهض مقاوماً الاغراء. اراد ان يعرف الوقت. في الشتاء يهبط الظلام مبكراً. واتجه إلى دكان بائع مرطبات في شارع الرشيد كان يعرف ان فيه ساعة. ورآها. كانت تشير إلى الثامنة. وأدرك ان الوقت لم يحن. وتحير اين سيقضي الساعتين الآخرين. سار في شارع الرشيد وهو يفكر. وبدلاً من ان يهتدي إلى حل فكر بتماضر، سيغيب اليوم عنها. فهل ستفتقده؟ هل ستجلس في غرفتها بانتظاره؟ لا. كان في شبه يقين من أنها لن تكون في حجرتها. كم مرة رآها عند الخالة نشمية وناداهما مرتين أو ثلاثاً حتى اقبلت. اين جالسة الآن؟ وراء منقلة النار تتدفأ قرب نشمية، وتسمع حكايتها عن رديف. وحقد. وقال في نفسه سحر! سألهذا مرة فقلت انها تشفق على رديف لأنه مظلوم ويقيم. وهم ان يقول هو أيضاً يتيم وساكن مع زوجة ابيه. ولكنها ارسلت زفرة. وبدا وكأنها قد آمنت كلياً بان رديف هو اليتيم الوحيد في الدنيا.

كانت السيارة تمر على يمينه في رنين معدني. وكان دهليز سينما الرشيد يفوح بدفء عفن. وعلى باب سينما الوطني رأى ثلة من الجنود الانكليز والهنود تسد الرصيف الضيق. فنزل إلى الشارع ونظر إلى الاعلان الكبير. وقال في نفسه: «صار لي هوايه ما رايح للسينما» ثم رد على سؤاله بعد خطوات: «ظَلَّت سينما؟! ظلت فلوس اروح بيها للسينما؟ الفلوس راحت. وام العيون المتفتحة نايمه على الطاسه. ومن اتقرب منها عبالك تلدغها عقرب». وارتطم في عمود بينما هو يهم بالصعود إلى الرصيف ثانية في بداية شارع السلطان علي. وقال لنفسه «اشتعل ابوج! وكانت الشتيمة موجهة إلى زوجة ابيه. تراءت له الآن في ثوبها الأسود خلف التنور تصرخ به أن لا يقترب من الخبز. وكّر على اسنانه وقال لها «نامي! . . .» وعبر مقهى الملا حمادي، ونظر إلى اعلان سينما الزوراء «فيلم جهنمي مملوء بالمغامرات! . . .» وقال لنفسه «ومغامرتي اليوم؟ . . . تنجح؟» وتوجه إلى زوجة ابيه بالحاح «نامي! . . . لسه غاعده؟» وفي دكان جرجيس بائع العرق رأى الساعة تشير إلى الثامنة والنصف. ما زال هناك وقت كثير. ورأى نفسه في اول شارع الكيلاني فسار فيه نحو مقهى أحمد الجايحي.

- مرحبه ابو شهاب!

- ياهلا. شنها الغبيه؟

- والله مشغول.

- اشتغلت؟
- لا، دا أدور على شغل. اللي يدور على شغل مثل اللي يشتغل.
- حساني چان يسأل عنك.
- خلّي يولي. يريد يشغلني سكن.
- فيترجي.
- وآخر عمري أصير مثل سلبوح سيان؟!
- فسكت احمد الجايچي نصف دقيقة، وكأنه يفكر ايرد عليه أم لا.
وبعدها قال:

- عرفت محمود بن الحوله اش سوى اليوم؟
- لا!

- طبر لك صايب الشعار تطبر.
- ها! وهذا شنو؟ رجل دجاجة ميحل!..
- وانت تعرف سوالفه. شايب بيها.

وذهب احمد ليصب الشاي لقادم جديد واخذ حسين يفكر الدنيا «يراد لها هيجي!..» يراد؟ «وكان في قلبه شيء ضد الدنيا، وضد هذه الجملة التي رنت في قلبه مثل اسطوانة تدور على ابرة مثلومة. وتذكر ذلك المنظر الليلي الموحش. كان احدهما يقابل الآخر. وكان وجه صاحب عرقاً يلمع في ضوء المصباح. لاح له الآن بكل تقاطيعه فأحس بموجة حنان نحو صاحب تغمير كيانه. تذكر كيف كان يريد ان يدخله إلى مدرسة الصنائع. تذكر كيف توسل اليه ليبقى فلوسه ولا يبذرهما. والآن؟ لا مدرسة ولا فلوس. الآن ينتظر لتنام زوجة ابيه. وقال لنفسه «الليلة جمعه.. الليلة لازم الخنفسانه تنام من وكت»

وفكر فيها «صدك خنفسانه. لما توكتف على التنور بثوبها الاسود المگرفع الواصل لجعب رجلها. ويديها بجواريب سوده. خنفسانه. عيناً. العيون منتفخة، والوجه وارم. يله عاد خنفسانه. نامي! نام عليچ الشف واللحاف.. صارت الساعة التسعة». وظل يفكر فيها. وكانت سليمة الخبازة، في تلك اللحظة، تفكر بمصطفى. جاء منذ العصر ولم يخرج حتى الآن. وضعت اذنها على باب حجرتها، وراحت تتسمع. لا صوت. ولا بت سليمة الخبازة وقالت «لو عنده نيه چان طلع من زمان! من شوكت خلصنا الجاي. اشو خش بالحجرة والغلطه غطه.

إذا جا حسين اليوم وعرف هنا اش راح يگول؟ إذا شافوا الجيران من الصبح اش يحچون علي؟ . . يله عيني على بختك مصطفى اطلع» توسلت اليه في سرها . وتحامل مصطفى على نفسه وحاول ان يطلع . عكف ساقه المطروحة على الأرض ، وأعاد محاولته . ثم كَفَ . خدر . والرأس يدور . سأل نفسه «هاي اش وهديني؟ لازم اطلع . لازم» . وبدلاً من أن ينهض تلمس زجاجة الويسكي بيده اليسرى . كانت اليمنى مطروحة فوق «الكونية» خدرة ومتعبه . وقال لنفسه «مَصَّ لَح . . نص مصه» . حاول أن يقنع نفسه بأنه غير سكران . «افتح الباب على كيفي ، وأطلع . . . بلاكت لا . راح هي اللي تفتح لي الباب . واش راح اگول الها؟ اگول الها كلامچ هيچ نار فؤادي . والدنيا مغرب . وكل مغرب يَغِمَّ علي غيم» .

وفي المقهى سأل حسين أحد لاعبي الدومينو:

- هادي . . . خسرت ساعتك؟

- لا .

- ساعه بيش؟

- بالتعسه وثلاث .

- ابو شهاب صب لي چاي .

وشرب مصطفى جرعة من الزجاجة . اطلع لو ما اطلع؟ . . . أطلع وتشوفني سكران ، وتضيع كل اللوزينه؟ وتذب غراضي بالدرب . لا . ما راح اطلع اليوم . وخاطبت سليمة الخبازة نفسها أويلي هسه حسين يجي . يمكن ينصب لي عزا . وهو بلا شي يعيرني بحوش أبوه . الدوره ينام عندچ؟ عبالك آني رايدته ينام . اشو أجه العصر ، ويده الشكر . ويعني ما اگول له . . . تفضل اشرب استكان چاي؟ وسوالف تجر سوالف . وعبالك قربة وانفكت . وخش للحجرة وبعد ما اطلع . وتأفت سليمة الخبازة . وهمس مصطفى في حجرته : سليمة خاتون آني مو سكران . وعيونچ آني مو سكران . بس شويه خدران . . . وعطشان . . . وجوعان . . . و . . . وفتح الزجاجة وشرب جرعة اخرى . والشكر راح يكفيچ شهرين . . . شكر مال انكليز . والچاي مال انكليز ، والويسكي مال انكليز . . . وگولي الانكليز مو خوش أوادم . . . أويلي !

أمتلاً جو المقهى الصغير بالدخان وسأل حسين هادي :

- هادي ، لسه ما بعت ساعتك؟

- صار لي داسين غالب

- زين كل لي ساعة بيش؟
- بالعشرة.

راح يصير الليل - قالت سليمة الخبازة لنفسها - وأني سهرانه . ويمكن هسه مصطفى غاطط بالنوم . وتباءت . هذا الصايم المصلي . الخاتم القرعان مرتين ونص . بلاكت وين ينام؟ فراش ، بطانيه؟ الا اذا نام بالكأع . والدنيا باردة؟ هذا اشلون قهر؟ هسه اش كالت ضلوعه؟ هسه ثلج . آني بحجرتي الدافيه وأختض مثل السعفه . وأخذتها شفقة عليه . وقالت لنفسها «هالايا ميجي وايدو فارغه . ومن يجي ينسني هموم الدنيا كلها . اشلون لسان حلو عنده ! الرجال . . . الرجال بالبيت شمع . أوي عيني . هسه نايم بالكأع . هسه يتوجع . » ولهت عليه «نزول عليج سليمة تخليه نايم بالكأع؟» وراودتها نفسها ان تحمل اللحاف اليه . ولكنها جبت . وكان حسين يسير في الظلام خائفاً . كانت بغداد في الليل موحشة ، وقدرة ومبللة بالمياه الوسخة ، ومملوءة باكوام القمامة . وعند كل كومة كلب سائب ، وقطة ضاله . وزايله الخوف بعد أن هزم وقع خطواته الأخن عدة كلاب وقططة . ورفع هامته وهز ذراعاً ودلّى أخرى على جنبه فعل الشقاة . وممن يخاف الآن؟ سيفتح الحجرة بالسلك الذي في جيبيه ، وينسل إلى الداخل ، ويأخذ أحسن ما فيها ليفعل مصطفى بعد ذلك ما يشاء . فيقول له ان الدار داره . ولم تستشره زوجة ابيه حين اسكنته . في استطاعته ان يلقي غراضه في الدرب . في استطاعته أن يبيع الدار . وما نفع الدار له؟ هولا يريد من دنياه غير غرفة صغيرة مثل غرفة الخالة نسمية . ومع تماضر بالطبع . يستطيع ان يستغني عن كل شيء الا تماضر . تماضر حياتي . تماضر تسوى العماره الصوبين! وحاول ان يتصور ماذا تفعل تماضر الآن . جالسة وراء المنقلة أو أمام مرآة «الكتور» . وهو من أجلها يكسر اقفال الحجرات . من أجلها يبيع الحوش . من أجلها يفعل كل شيء . الملعونه حلوه . تستاهل كل شيء . عرووط . زيد . وكانت الارض تحت عصعص مصطفى خشنة . وكان يضع رأسه على الكونية بين اسلا به ، مستسلماً لشيء لذيد ومتوهج . مسح أنفه بالكونية ، وقال لها : أحيج ! وساورته رغبة في أن يغني . ياريت أنا بصوان حسن . كل البلام تمر حسن . ياهوى هذا ياموج؟ . راحت تخبلني سلومي . وعاد يبحث عن الزجاجة من جديد . وين راحت؟ أمتلأت يده بتراب الحجرة . تعالي شوفي بيا حال آني . كان متهافتاً وعاطفياً يريد ان يفعل اشياء كثيرة دفعة واحدة ، وليس له القوة على اتيانها .

كانت الافكار تولد في ذهنه لحظة . ثم تموت في اللحظة التي تليها . كان مخذولاً وخائفاً . تطب عليّ وتشوفني بصلاة التراويح؟ . . . خل تجي . هذا هو! شريد يصير؟ وابتسم ابتسامة عمياء . وتشهى سيكارة ، وجرة اخرى من الزجاجاة . أين هذه الزجاجاة؟ وخرج كلب من زقاق على غفله . وقال حسين مرتعباً: عبالى مصطفى! وقالت سليمة الخبازة ماكو فايده . اليوم راح ينام هنا . وتئاب مصطفى وبحث عن الزجاجاة بعناد سكران . اليوم راح أنام هنا بالكاغ . وقال حسين: هذا هو . لازم أخذ أحسن شيء بالحجرة . وقالت سليمة الخبازة لنفسها: اليوم سهرانه للصبح . ورأى حسين الضلفة الحديدية مسدلة . صاحب معزل . وكان المعمل قد نما . لاح في الظلمة أصفر . وضع حسين المفتاح بالباب مسمىاً باسم الله الرحمن الرحيم . وقالت سليمة الخبازة: اجه حسين . وعكف مصطفى رجليه . وتلمس حسين طريقه في الظلمة . وأطل برأسه في حذر على ليوان زوجة ابيه . رأى بابها مسدوداً يلوح من خصاصه ضوء الفانوس المخفض . وايقن انها نائمة . وتئابت في ضيق . وتعب مصطفى واستدار على ردفه الآخر . وأحس بالزجاجاة الفارغة بين فخذه . رفعها إلى فمه وقال «راح تقتلني» . وشرب جرعة كبيرة . وشعر بالقيء في الحلقوم . عض على شفتيه . وقال «راح أموت» ودخل حسين إلى غرفته خفيفاً مثل أكبر عصابجي . ولم يشعل المصباح . وقف لحظة يفكر في الظلام . هو بحاجة إلى كيس . أين سيضع اسلابه؟ كيس . . . كيس . . . واهتدى إلى حل . تلمس الحائط حتى وجد دشدشاته المعلقة على مشجب واحد . وقال: «هذي احسن كيس» . وفي الظلام وجد ذراعيها والعنق . وشد الذراعين سوية مع العنق . وجرب الكيس في رأسه . كان محكماً . وكان مصطفى خدراً ويحس بنعاس طاغ . ولكنه الآن يريد ان تأتي . تأتي وتقول له: ابو ابراهيم نايم؟ لا أم حسين دا انتظر! هذا هو . آني ما خاف . هذا هو ، ييزي قهر . وتململت سليمة على سريرها . وأرادت ان تنهض ، وتسأل حسين عن الساعة . ولكنها خافت ، وقالت ، لا . باجر الصبح اذا شافه بايت يگول چانت سهرانه وياه . آني سهرانه . . . بلاكت وحدي . . . دايم وحدي . . نصيبي . وتوهجت الخمرة في رأس مصطفى توهجاً حاداً . وانسكبت هذياناً في لسانه أشبه بالأنيس . وسلبته كل قوة على القيام . جلس على أمل ان تأتي اليه . وتوقف حسين وسط الحوش يشعر ببرد الارض تحت قدميه الحافيتين . واتجه نحو الباب . لا شيء غير النخلة ، وبعض الصراصير تغني في أماكن متفرقة . وحين

كان على بعد خطوتين من الباب رأى صفحتها الباهتة . وقف امامها يسترد انفاسه . وتقدم . ومرر يديه على اطار الباب يتلمس القفل . ويده الأخرى تمسك بالسلك . ولم يجده . فأعاد الكرة . ولم يعثر عليه . خرط يده من فوق إلى الأسفل . ولم تصطدم يده بالقفل . وقف لحظة امام الباب حائراً . وين القفل؟ فكر واجف القلب . عجيبة . كان متديلاً على الباب عند الظهر . فهل يجوز ان مصطفى صنع قفلاً آخر . وحاول مرة اخرى . واصطدمت يده بالباب . واندفع الباب قليلاً . وجمد حسين في مكانه حائراً . وتردد أينكص بعقبه أم يعرف جلي الأمر . شاور نفسه . ولم يصدق أن الباب غير مغلق . وكان مصطفى قد حبس انفاسه منتظراً الخطوة التالية . جاءت أخيراً . وسأل حسين نفسه ؛ يمكن شال؟ . . اليوم؟ مومعقول ! ودفع الباب بيده فأرسل الباب صريراً سمعته سليمة فقالت : اي عيني يمكن طلع . وسمعه مصطفى فتحامل على نفسه . ونقل ثقله على ردف آخر . وظل يترقب . وقرر حسين ان يدخل . دفع الباب ثانية . وتنبه مصطفى وفرح . ها هي أخيراً . لا تصبر . أكو مريه تصبر؟ وانتظر صوتها . واستبطأه . ولكنها صمتت . وإعياه صمتها . كان يسمع حركاتها عند الباب . فقال «ها سليمة جيتي؟» وجفل حسين . وندت منه آهة ذعر . وترك الباب مهرولاً . وضحك مصطفى في نشوة . وقال في خدر ناعس : خافت . . . سافت !

- ١٩ -

في بداية الشتاء بدأت القوات الانكليزية تغادر بغداد . غادرتها بارتال طويلة متجهة صوب الغرب . وقل ظهور الجنود الاجانب في شوارع العاصمة ، وتزاحمهم على دور السينما . وبدأت معسكراتهم تتقلص أو تنزوي في الصفوف الخلفية حتى فرغ المعسكر الموجود قرب دائرة السكك ، ومعسكر الصالحية والوشاش . وترك الانكليز وراءهم السواق والعمال والموظفين والسماصرة الذين استقدموهم وبيوتاً سوداء ، وبغايا . . . وامتأ مقهى الشواكة بسواق عاطلين جلسوا على نخوت عارية بالقرب من الكراج ليسهل عليهم اقتناص الشغل «وهو طائر» . بينما جلس مصطفى يسبح بمسبحته السوداء ، وعيناه مصلوبتان على الشارع . كان ينتظر ايضاً . وجاء سواق عاطلون آخرون وسلموا وجلسوا ولم يحتفل بهم . كان يحس بالجويع ولم تطاوعه نفسه لياكل . ترك شايه يبرد ثم شربه جرعة واحدة ، ووضع على حصير

التخت فمال القدح ووقع . كان ينظر من خلال زجاج المقهى ، ويحس بدفقات البرد كلما ارتفع ستار المقهى السميك ، ودخل قادم جديد . ولكن الذين كان بانتظارهم لم يأتوا . غابوا . ابتلعتهم الأرض . وخرخشت الساعة الموجودة قرب مجموعة السماورات . ونظر إليها في غيظ . وسبح في مسبحته مهدئاً أعصابه . ونظر إلى الشارع مرة أخرى . كانت الشمس صفراء في الجانب الآخر منه ، والناس كثيرين . تمر السيارات بينهم بيضاء الذبول . ومرت سيارة عسكرية انكليزية يسوقها جندي هندي تشق زحام الناس . وشعر بشيء من دفاء الأمل . كانت السيارة تحمل صناديق . وفكر ما أثنى ما في هذه الصناديق ! وراقب السيارة بفضول ، ونسى لحظة أنه ينتظر ، حتى غابت السيارة في الزحام . أخفت الصناديق الصفر ولم يلمح غير سطح قمرتها المترب . وعاد إلى انتظاره . لماذا تأخروا هكذا؟ وشك في واحد منهم ولام نفسه على ثقته به . وخرخشت الساعة عند مجموعة السماورات فظفر إليها في جهامة . ثم اجال بصره في الحاضرين . ونهض واقترب من شخص :

- جواد ، شفت داود اليوم؟

- شفتة الضحى عند ابو الكبه .

- ليش ما راح للشغل اليوم؟

- يا شغل . . البارحة بطلوه

وأمتقع وجه مصطفى . واعتراه ذهول . ويعد لحظات ثقيلة قال :

- وهسه وين اشوفه؟

- لازم نفر على كراجات الكرخ كلها .

فاستدار ومضى خطوتين ثم قال :

- وجاسم؟

- ما ادري بيه . المغرب تشوفه بمبخانه

وكان على طرف لسانه شخص آخر . كان له مع ثلاثتهم ميعاد . . وحساب .

انتظرهم وراء حديقة غازي . امتلأ فمه بالتراب من كثر ما حلق بالسيارات القادمة .

وحكته عيناه ولكنهم لم يأتوا . لم تستطع طاسات المياه أن تغسل مرارة فمه ،

وترطبه . كان قد احس بخوف متطفل منذ الدقائق الاولى من جلوسه في المقهى

وراء حديقة غازي . ولكنه لم يعبأ به . عزاه إلى شائعات تتردد بين العاطلين في

مقهى الشواكه . وكان قد قلص شبكة سماسرته كثيراً ، واكتفى ببضعة سواق من

اوائل الذين اشتغلوا عند الانكليز، أو الذين استقبلوهم من الفلوجة كما يقول الناس سخرية. كان ما يزال على يقين من ان الانكليز سيقون. سيبقى منهم بضعة الاف على الأقل، وستبقى نوافذ خلفية لمخازنهم المتخمة، وسيبقى على صلة، وستبقى «الكواني» تروح وتجي. . . وسيبقى. . . لماذا يبقى؟ . . . سيبقى ينتظرهم: ولام نفسه كثيراً لأنه وثق بجاسم السكير. الكلب حلف اغلظ الايمان بانه يستطيع ان يفعل كل شيء. صناديق الشاي تحت تصرفه، والويسكي ملقى بصناديقه وراء المخزن. . . . و. . . و. . . أين سيجدهم؟ بحث في كراج الرمادي وسن الذبان والحلة وابو عكّله. بحث في وقفة السيارات في علاوي الحلة، والارضوملي. بحث في مقاه كثيرة. ويش من أن يجدهم. كأنهم فص ملح وذابوا. وفي مقهى النبكة رأى خماساً صديق داود.

- خماس مشفت داود؟

- سافر اليوم الظهر.

- لوين؟

- لعانه.

- الكلب! - ندد منه هذه الكلمة - وفلوسي؟

- يافلوس؟

- اطلبه فلوس

نظر اليه خماس في استفسار. كانت عينا مصطفى غامضتين جامدتين لا تنظران إلى شيء. ثم تحركت قسمات وجهه المتحجرة. ولكنه لم ينطق بكلمة. انصرف صامتاً. ماذا يقول له؟ اعطاه ثمانية دنانير ليشتري بها بضاعة من مخازن الحلفاء؟ وعاد إلى المقهى يسأل عن جاسم. وكان جاسم غير موجود. ولكنه عرف عنوان سمساره الثالث طه فذهب اليه. خرجت اليه صبية حافية القدمين في ثوب احمر قذر.

- ابوج هنا؟

دخلت دون ان تعجب. وبعد دقيقتين جاء طه

- هلا بأبو ابراهيم.

- اشو اليوم مجيت؟

- بطلوني - هاي شنو؟ . . . چم واحد مبطلين؟

- هوايه . . حقهم . راح يطلعون من بغداد .
- تلك الحقيقة القاسية لم يرد ان يقر بها . وقف طه ساهماً امامه يضع يديه في جيبي بنطلونه . وبعد لحظة توتر قال مصطفى وهو يحاول ان يكون طبعياً جداً .
- زين يابه . . جيب الفلوس لعد .
- لم تتحرك اليدان من الجيبين بل تحركت شفتان ذابلتان
- ابو ابراهيم - آني هواية خجلان منك .
- تظاهر مصطفى بأنه لم يفهم .
- لويش تخجل؟ شي وما صار . والفلوس راجعه .
- هي على مود الفلوس .
- هالقوانه الجديده شنو؟
- الفلوس انصرفت .
- شنو، شنو؟ هذا بيافرهود؟
- اليوم جاني ولد جديد .
- فأحتدم مصطفى غيظاً وقال :
- ويجي لك بفلوس الناس؟
- آني ما ناكرها عليك .
- يعوزك تنكرها . . صرت بن الشابندر .
- دين . . أول ما اشتغل ارد لك اياها .
- يادين هذا؟ واشوكت تشوف شغل؟ من يطلعون الانكليز يظل شغل؟
- ليش خوب احنه ما عايشين عليهم . . أنعل أبو . . فقاطعه مصطفى صائحاً :
- اسكت عمي . . هاي فوك مخلو بيدك سيارة؟
- وهسه وينها؟ الصبح جيت گل لي مستر جون شغل ماکو . . سياره نوا!
- وانتهت الحسيه . بعد ياسيارة؟
- هسه آني اش علي؟ جيب الفلوس .
- تعال خش بالبيت ودور . . غير الربيع دينار بجيبي . . نزول على مرتي . .
- يوميه جاييتي بطنها هالعلاتها . . أريد اجوزها من ها العادة ما دا أکدر .
- بالله طه لتأخرنی .

- تريد أكتب كمبياله؟ آني مستعد . تريد اشهد أمام خمسة؟ آني مستعد .
بس الفلوس نصرفت .

- اشترى بعقلك حلاوه

- شوف لي مشتري

- لتأخرني ورايه شغل .

- اش وراك؟ انت هم راح تكعد مثلي .

- لتجسر علي .

- ما اتجسر . بس انت مثلي .

- زين تجي الكهوة؟

- أجبي

- أمض لي كمبياله بخمس دنانير . الفلوس خوب مبايگها؟

وسار مبتعداً . نظر طه إلى قامته الطويلة تهتز على حركات رجله وهو يتخطى
برك الماء الأسنة . وهز رأسه في رثاء .

وقال مصطفى في نفسه «إذا طه المؤدب اكل الفلوس عليّ اشلون راح
احصلها من السكير بن السكير جاسم؟ يعني الخمس دنانير راحت؟ .. يعني
الـ ١٨ دينار راحت؟ رأس المال راح؟ اعوذ بالله من الشيطان الرجيم . . هاي بوجه
من مصبح؟ هاي رفسه حصان چبیره! من رفسني الحصان بالعلوه چنت شاب ،
وقوي . وهس؟» كان تعباً محناً الظهر رخو الساقين ، وكأنما كبر في كل ساعة من
ساعات هذا اليوم المشؤوم . وكان الجفاف مايزال يعذبه ويلدغ حلقومه . وحين رأى
حانة في اول شارع الصالحية فتح فمه في ظمأ . وكأنه رأى مسقى للماء في ظهيرة
يوم قائف . عبر مجازاً طويلاً مبلطاً ببلاط مهشم إلى ظليلة أسبل عليها چادر كبير .
وانزوى إلى مائدة صغيرة في ركن ، واسند رأسه إلى الحائط بعد كأسه الاول . كان
وحده بلا خاجيك وبلا مشاريع ، وبلا مستقبل . وفكر «هاي حوبة سليمة الخبازة لو
آني حظ ما عندي؟ وين ما وجهها سوده مصخمة؟ . . عبالى أصير تاجر؟» وحق
على نفسه وخاطبها «بيعار! اشلون تصير تاجر؟! والله لتركض كل عمرك والعشا
خباز . . والله لتظل متهجول متعرف باچر عندك فلوس الغدا لو لا . لتظل
بهالبنطلون الاسود طول عمرك . .» نصيب! وشرب كأسه الثانية . مريره . مقرزه مط
لها شفتيه . ونظر إلى الكرسي الفارغ امامه . «خاجيك!» ناجى صاحبه القديم «راح

كل شي . . الصرمايه راحت، والانكليز راح يطلعون . قبل شهرين من چان يعتقد راح يطلعون؟ چاناو ماليين الدنيا والشوارع . حتى سليمة الخبازة چانت تگول : من آني صغيرة وهذولا الانكليز . حتى مرهون ابو قنبورة چان يگول الانكليز ونخلة سليمة الخبازة جو للدنيا بيوم واحد . وراح يطلون ليوم القيامة . من چان يصدگ؟ « بلاكت راح يشيلون . وين يروحون؟ يخلوني اروح وياهم؟ وشيفيد اروح وياهم؟ راح اظل هنا . اظل ويه الجوع . آني وسليمة الخبازة . وغص بشيء وتناول قطعة طرشي حمراء . وأح من حلقومه حين ابتلعها . وعاد يقول لنفسه «من يگول؟ سليمة الخبازة كنز . سليمة الخبازة بيدها صنعه . والله يعلم چم دينار جوه راسها . وعدها حوش . حوش چبير» وتهلل شيء في داخله . ورفع الزجاجه فكانت فارغة . تلفت يبحث عن الساقى ليطلب نص ربع آخر . كان الساقى عند الباب يتدافع مع متسولة لجوج تحاول ان تدخل الحانة لتستجدي . فقر . واشاح بوجهه ممتعضاً . وحاول ان ينظر إلى الخارج من خلال نافذة . وكان بالقرب من النافذة مائدة جلس اليها رجلان . ويحلق . بدا انه يعرف احدهما . كان يرى نصف وجهه ورقبته .

نهض متقدماً من النافذة حتى اذا ايقن انه هو توقف وسط الحانة وناداه :

- جاسم !

التفت جاسم ولكنه لم ينهض .

- جاسم ، تعال اكول لك .

ولكن جاسم هز رأسه في طمأنينة باردة وقال :

- جوزومني ؟ تعبان

تقدم مصطفى منه . ليس هذا مكان للتحدث بصراحة ولكن ! انحنى عليه

وقال في شبه همس :

- اشو اليوم مجيت ؟

- اذا بطلوني الويش اجي ؟

- غير تجي تگول ؟ - ثم وضع فمه عند انفه - عبر الفلوس .

صاح جاسم بصوت عال :

- يا فلوس ؟

- اش ! . . سكران ؟

- يا فلوس ؟ الفلوس يجيب العروس .

وضحك في خبث، واغتاظ مصطفى وكانت الخمرة قد مدته بشيء من الشجاعة.

- لتصير أدب سز... الفلوس اللي اخذتها رجهه.. ماكو قانون؟

- وين أكو قانون؟

- بدا جاسم صلفاً جداً.

- انت سكران لو تداهرني؟

- لا سكران ولا... .

- شنو الفلوس بايكها آني؟

- لا، اشهد بالله، اكسيتها من الحلال.

- اسكت... ولا كلمة!

- خوفتني... روح بابا روح

ورفع جاسم اليه عينين وفحتين شريرتين اجبرته على ان يقول:

- جاسم لتعذبني

- روح عيني، روح... تريدني اكول لحمزه اش چنت تسوي؟

- بب!

- وتريد اكوله وين تخلي البضاعة؟

- شش.

- روح احسن لك.

- انت سكران كلش. بس عبالك اجوز منك؟!!

- ٢٠ -

- خالة نشمية صار لي هوايه ما جتني العاده.

جفلت الخالة نشمية وقالت باستشهاد:

- اش كد صار لي؟

- الله يعلم... يمكن شهرين.

- خل يفرح أبو كذله!

- ليش خالة نشمية؟

- زرع بيطنچ فطر!

- أوي، خالة نشمية، شنو يعني؟

- يعني انت حبله

- وه! خاله نشمية، اشلون؟

- هذي اللي تفتح رجلها للرجال. عبالج ونسه؟ يوميه يخش عليج وتريدين
المي ميخضر؟ آني چنت اعرفها من كبل.

وكان خالة نشمية هي الحبلی. جعلت تلوب في مكانها على الارض،
وتدمدم. بينما راحت تماضر تنظر اليها ساهمة، وتفكر بشيء غامض وحزين.
وتذكرت، بشكل عفوي، حادثة غريبة في حياتها الماضية كانت منسية فطفت فجأة
على سطح ذاكرتها.

ذات مرة وقفت، وهي طفلة، قرب بائع «كركري» عجوز تنظر إلى الدبكة
الحلواء بتشبه. فأوماً اليها البائع بان تقترب. وقدم لها ديكاً بيد، ومدّ اليد الأخرى
تحت ثيابها. وساح بها في انحاء جسمها، وقرصها. ركضت تماضر مذعورة،
وبيدها الديك. وفي منعطف بيتها جعلت تمصه فكانت حلاوته مشوبة بمرارة.
وبعد مصّات قليلة القته في الزباله.

- اش راح اسوي، خالة نشمية؟

- شمعر فني شتسوين؟ وانت مال جيوه؟ وين ذاك الرجال اللي تعتمدين
عليه؟ المريه اللي عدها رجال بالحلال من يجيها ولد تشيل همّ. عاد انت؟ وبه
هذا الزعطوط المفلس؟

وعادت إلى دمدمتها بينما لم تعرف تماضر أتحنن أم تفرح. انها أم مثل كل
النساء. مثل الخالة نشمية في صباها. مثل اية امرأة تتزوج، وبعد شهر يرتفع
بطنها، وتضع بكرها. وذلك شيء لطيف جعلها تحس بفرح مبهم مقيد، وفرح
خجول مثل ذلك الذي احست به حين جاءتها العادة الشهرية لأول مرة. حينذاك
لم تدر أنخبر أمها أم لا. كانت تصك ساقها باعتزاز وبشكل لا ارادي حتى فطنت
امها إلى ذلك. أما الآن فستضع طفلاً. لم تفكر بالحلال والحرام مثلما تفكر الخالة
نشمية. ولكنها احست بأنها وحيدة لا احد يشاركها فرحها. واعتراها من اجل ذلك
حزن خفيف مثل غلالة العرس، مثل «كلّة» زوجين حديثين في فجر صيفي. ولأول
مرة احست بالحنين إلى أمها بشكل طاغ أكثر من كل الحنين الذي احست به اليها
وإلى حسين، وإلى كل شيء خلال الاشهر التي قضتها بعيدة عن أهلها. ولأول

مرة نفرت من الخالة نشمية لأنها تجسم مخاوفها، ولأنها تشعرها بأنها وحيدة. وتركتها. ولادّت بغرفتها. مرّت المرأة أمام عينيها فلم تنظر إليها. ربما هذه هي المرة الأولى أيضاً. لمعت المرأة أمام عينيها بذلة. واستلقت تماضر على سريرها. غالقلة الباب خلفها. وحاولت ان تكثف حزنها. ولكنها وجدت نفسها تفكر بالوليد الجديد. كيف سيكون شكله؟ مثلها أو مثل حسين؟ له عينا سوداوان، وانف مفروش قليلاً، وشعر أسود كثيف؟ أم سيكون بنتاً؟ وغاص قلبها. لا! انها تريد ولداً. ستسميه عليا. ستسميه رديفا. ستسميه. ماذا ستسميه؟ وامتلأت شعوراً بالوليد المقبل حتى أحست بثقل في بطنها. أحست برحمها لأول مرة. وملاها ذلك رضى عن نفسها، وهون عليها كل شيء حتى قالت لنفسها «يعني قابل أني دون النسوان؟» هي امرأة مثل كل النساء الاخريات. امرأة تعيش مع رجل. وتحبل، وتنجب. ولو كان لها زوج الآن لزفت البشري اليه، ولذبحا، دجاجة على الاقل، صدقة للفقراء. ولكنها وحيدة، وحيدة بشكل يأخذ بانفاسها، ويجعلها تنتظر بقلق مضمّن من ترف له البشارة، ويفرح مثل فرحها، ويفكر مثلما تفكر الآن بالوليد الجديد، بشكل عينيّه، بشعره، بأنفه، بالملابس التي سيرتديها، بالمهد الذي ستهدده عليه. ووجدت نفسها تترقب حسينا. ومن عندها غيره؟ انتظرته بصبر ملول ضامة يديها على بطنها وكأنها تريد ان تحتفظ بالجنين لحين مجيئه. وحين جاء حسين هشت به أكثر مما هشت به طوال حياتها معه. وظلت الابتسامة لا تفارق شفيتها الممتلئتين، واليدان ما تزالان مضمومتين على البطن. وكان حسين قد قضى نهاراً متعباً في البحث عن عمل. فلما رأى وجهها مبتسماً، وعيناها تتألقان نسى كل تعب، وأرتمى على السرير، ودعاها اليه. وناغاها في حنان فياض، بل وشرح لها بعض احلامه:

- تعرفين تماضر؟. . يمكن راح يجيني ورث.

- ورث؟

- اي! حوش ابيعه.

- اوه! اشكّد راح تجيلك فلوس؟ يمكن ميت دينار- وزادت عيناها تألقاً.

- أكثر.

- واشرح تسوي بيها؟

- نعيش بسطلته. نوفي الكمبيالات للخالة نشمية، ونشتري غراض وهديم.

والبقية نخليها بالبنك . زين؟ خوش بشاره؟
- خوش! وصمتت قليلاً ثم اضافت - وآني هم عندي بشاره لك!
- شنو؟
اغمضت تماضر عينيها ، واحست برهبة .
- ما اكول لك هسه .
- شنو؟ سألها بلهفة
- بعدين
- كولي هسه .
- لا . . . بعدين .

- ٢١ -

قالت أسومه العرجة لخيرية زوجة رزوقي :
- هذا ميخش بالعقل!
- ليش ميخش؟ اذا شي راح يصير .
- يعني انت منين سامعه؟
- منها! وداعة رزوقي هي اللي كالت لي . چنا كاعدين يم المنقلة . آني
وياها . والحوش يصوصي . والمرازيب تدك . ظلت ثلاث ايام مبطله من الخبز من
طرف المطر . كالت لي : آني داخاف . صرت اخاف من كل شي . بزونه تطفركلبي
يطفر وياها . مرزيب يجقجق روعي تنقبض . ونص الليل اكعد ألم العمجين .
وجسمي يختض ، وكلبي يدك مثل الطبل . عيني وحدي بهالحوش الجبير .
- أوولي عليها ، يريد لها رجال يسليها .
- تكول لي صار لي أكثر من ست سنين من مات عليوي ما كاسبه الا التعب .
عيني خيرية أريد أستقر . أريد يهودر عليّ الليل وبالي خالي . وهو رجال صايم
مصلي يعرف حقوق الله . چان صديق عليوي . يمكن عليوي بكبره يفرح .
قالت المعجوز في هلع :
- يمكن تحبه : اللهم عاف!
- أها . . شنو صرنه يهود حتى تحبه؟
ولكن الشيء قد وقع فعلاً . جاءت سليمة الخبازة إلى الخان بعد يومين ،

وأُسرت لخيرية بالنبأ. فهشت «الحكومة الله يسلمها» وبشت واطلقت زغرودة في صحن الخان تندى لها وجه سليمة الخبازة ارتباكاً. وخرجت العوانس الثلاث على أثرها من وراء دواليب الغزل. وأطل مرهون ابوقنبورة من باب حجرته بوجه متشائم. وخرجت رديفة تحمل طفلتها. وقالت سليمة:

- تفضلوا عدنا العصر.

- هاي اشلون فرحه! - قالت خيرية في رياء مفصوح - فرحة العمر!
- الله يطول عمرچ!
وانشغل وجهها كله بابتسامة. وادارت وجهها في ارجاء الحوش في فرحة خجلى وقالت:

- عيني تسواهن تفضلي عدنا انت وخواتچ!
- يوم زواجكم - شمرت خيرية يدها متهللة الاسارير، وكانت بمتمهى النشوة.
- وانت عيني، رديفة. . تفضلي عدنا.
وعبست خيرية، وكأنما ضربت على علباتها. وادارت رأسها ببطء نحو حجرة العربنجي. وكانت زوجته قرب الباب.
- والشايب الوجعان؟ - قالت رديفة في شكوى - وين أوديه؟
همست خيرية لسليمة بتنفيس:
- اي، عيني، شايبها راح يموت.
الا ان رديفة صاحت من مكانها في عناد:
- بلاكت أجي (والثفتت لتسمع ما يقول زوجها) اي عيني روعي راح تطلع.
وفتحية يَمَك.

اجتمعن في حجرة سليمة. عند العصر جاء الملا وخاطب سليمة من وراء الباب المسدود حتى استدر منها موافقتها في المرة الثالثة من سؤاله. وكان مصطفى يسبح في مسبحته، ويفكر بشيء ما. ثم انفضّ الحفل. وخرج مصطفى ورزوقي وشخصان آخران حضرا المناسبة. وخلا البيت الا من النساء. فأعدت سليمة الشاي لهنّ، وقدمت الكعك. وكان البشر يطفح على وجه خيرية لسبب غير معروف. الا ان العوانس جلسن رصينات صامتات. وفكرت سليمة الخبازة بارضاثنهن. نظرت إلى ما بين يديها من الشاي والكعك وقالت لنفسها لعلهن غير راضيات من عُرس يقدم فيه شاي العباس! وفكرت. واهتدت إلى مخرج. بالامس

سلم مصطفى لها مفتاح حجرته بعد ان دلّها على بقايا محتوياتها «هذا شكر! .. هذا جاي! ... هذا شربت انكليزي!» ونهضت لتأتي به. وبعد دقيقة عادت تحمل زجاجة مربعة الشكل، حسنة التزيق فيها «شربت» انكليزي أشقر بلون الدبس الكربلائي. وعالجتها لتفتحها. ولما تعسر عليها ذلك قدمتها إلى خيرية قائلة:

- عيني، خيرية، متفتحين بطل الشربت هذا. مال انكليز!
تناولت خيرية الزجاجة، وقلبتها بين يديها وقالت في استاذية:
- اي! هذا شربت من العال. قبل ما ينقلون المدير العتيك چان كل اسبوع
إلنا واحد.

حاولت ان تفتح الزجاجة بخفة، وعيون النساء متطلعات اليها في شدة واهتمام. زجاجة انكليزية «سرمهر» أنيقة تنزلق بين اليدين جاهدت خيرية أن تثبت استاذية فتفتحها بمهارة. ولكنها فشلت فاستعملت اسنانها. وبعد لأي ازالته اكليلها الأحمر ولكن الزجاجة لم تفتح. رأت «رأساً» اشقر «عاصي جوه» فكرته وحاولت ان تزحزحه ولكنه أبى. فقالت للنساء «اش بالعجل نسيت افتح البطل؟ .. المدير العتيك ما صار له شهرين من أنقل» ونهضت وغادرت الغرفة. وبعد دقائق عادت بالزجاجة مهشمة الفم. كانت تشم رائحة غريبة منها. شربت بهارات! قالت لنفسها. ووضعت الزجاجة على البساط. طلبت اليها سليمة أن تأتي بالاقداح من الدولاب. ولما تهيأت في الصينية على الأرض صبت خيرية الشربت فيها. وكانت تحس بلذعة في أنفها. ومزجت السائل الاشقر بالماء فأرسل حبياً صغيراً. وأيقنت أنه غير مغشوش. لاح لها كالسيفون الراقي.

قالت سليمة في كرم وحسن ضيافة:

- تفضلوا عيني.

قالت رديفة زوجة حمادي العربنجي:

- يزيد فضليج .. يوم اللي يجيلج ولد!

ورفعت القدح إلى فمها فشمت منخاراها المفروشان رائحة حارقة كالتوابل. شربت جرعة ارتدت في حلقومها. شعرت بها مثل نشقة عطوس قوية في أنفها ارتخت لها فانزلق السائل في جوفها دون ان تدري. ولاح الامتعاض على وجهها المستدير. وظهرت ثلاثة أنوف على وجهها: أنفها الاصلي ووجنتها البارزتان.

مضت ثوان دون أن تدبر أمرها لتتطق بكلمة . والعيون شاخصة اليها . ثم قالت بصوت أبح :

- أوي ، عيني ، هذا اشلون شربت؟

وضعت سليمة الخبازة قفح الشاي من يدها وقالت :

- ليش عيني اش بيه؟

- عبالك دوا

كانت خيرية لها بالمرصاد . وجدت لها فرصة سانحة لتهزأ بغريمتها :

- الدوره دوا . . عيني احنا متعلمين على الشربت اللي مثل الدبس .

ورفعت القفح إلى فمها بجسارة . وشربت جرعة وقالت بلسان رخو:

- اشبيه عيني ؟ - ثم بلعت ريقها - ريحة ترد الروح . . . بس آني أحبه ويه

الشكر.

نظرت رديفة اليها بعينين دامعتين . وكان بخار غريب يطوف برأسها . وقالت

باعذار:

- قوي .

- هو هيچي ! لعد ليش سموه مال انكليز؟

قالت رديفة في سرها: الا تعاند . . الا اشرب على عنادها .

شعرت خيرية بأن عينيها تحرقانها . فقالت وهي ترفع علبة السكر:

- خلوه شكر شويه . . اذا تشوفوه فاهي .

قالت زوجة العربنجي بجسارة :

- انت اشربيه بالشكر . . آني اشربه هيچي .

طافت خيرية بعلبة السكر على النسوان :

- عيني . . تسواهن ، أميرة تريدون شكر؟

كانت العوانس ساهمات وأمامهن أقداهن لم يمسنها .

رفضت رديفة ان تضع لها خيرية سكرأ .

- خوب مو الانكليز وحدهم يكدرون يشربون هيچي ؟! وشربت جرعة وهي

تكز على اسنانها . وضحكت ضحكة مذعورة :

- تخلي عيني شكر؟

رأت وجهها يتلوى . وقالت خيرية :

- عبالك د تشرب دهن الخروج!
 ووضعت لنفسها ملعقة اخرى اغاظة لغريمتها وشربت بارتياح:
 - زنجبيل عبالك. . حلو مثل العسل.
 رفعت تسواهن القدح إلى شفتها ثم ردت. لذع الشرب لسانها.
 - خلي له خاشوكة شكر. . تشوفيه كلش حلو.
 بدأت خيرية تشعر بخفة. والتفتت إلى سليمة تريق لها ماء مودتها. اهتبلت
 رديفة فرصة انشغالها فاختطفقت علبة السكر وصبت عدة ملاعق في قدحها. تكدر
 السائل الأشقر، وركد السكر في قعر القدح. قلبته بسرعة وعصية. ولكن السكر
 لم يذب. بقي راكداً في القعر. شربت جرعة. واحست بطعم السكر ايضاً. ولكن
 المرارة بقية غالبية. وكانت خيرية تراقبها. قالت بعنادها القبيح:
 - افيش عيني. يرد الكلب. . هذا شربك مال اوادم. . الله يسلمها الحكومة
 لو تشتري چم صندوق وتذبه بالسوك.
 كانت تحس بحرارة غير مريحة في رأسها، وشوشة في طيلة اذنها.
 تجرأت رديفة ان تتناول علبة السكر علناً وتصب في قدحها ملاعق اخرى.
 كانت غريمتها تراقبها فلم تتمالك نفسها وقالت:
 - موبعد الشكر جوه؟. . يعني هلگد فاهي؟
 - شعلیچ مني؟ - ردت عليها رديفة بحنق.
 - مونگولین أحبه بليہ شكر؟
 اسكتي. . امسحي العرک من وجهیچ.
 - اها! انت شوفي چهرتیچ اسلون مگلوبه.
 قالت سليمة:
 - عيني لتتعاركون. . هذا الشكر يم كم.
 قالت رديفة وشعرت بأن لسانها مرّن أكثر من اللازم:
 - كل عزا تنصب نفسها ملایه.
 قالت تسواهن:
 - رديفة، هذا عرس. أكو واحد يتعارك بالعرس؟
 أحست ببحوية هائلة، ودواخ في الرأس. رفعت القدح مرة اخرى في
 شجاعة وشربت جرعة كبيرة ثم قالت:

- لو خيط المراره يروح چان صار احسن شربت . . . أشوف لعد الانكليز وجوهم حمر . . من هذا .

كانت خيرية تتمم بشيء مع سليمة . فتضايقت رديفة جداً . أستمزت في داخلها فرغبت في أن تنهض ونخمشها . ولكنها عجزت . كانت ثقيلة على الأرض . ثناءت ، وزاد دوار رأسها . وشعرت بأنها بحاجة إلى أن تستلقي . خدر ، مثل خدر القعدة الطويلة في الحمام ! وتمطت . وأمالت بظهرها في حضن تسواهن فخافت هذه وقالت :

رديفة صبري عاقلة . المريه عازمتكم بعرسها .

أحسنت رديفة بامتعاض ، بشيء غير مريح ينفجر في داخلها .
قالت بصوت خدر :

- هذا شلون عرس ؟ . . مثل عرس أمي لما أخذت رجلها الخامس .
- عيب رديفة .

كانت عيناها غائمتين بالدمع . وكانت لا تحس إلا بنفسها الممتعة .
- انتو لازم تزوجون . . انت خديجة ، أميرة . . . بعدكم حديثات مثل الورد .

- بس . . عيب رديفة .

كانت تفكر بعجلة وسرعة :

- سليمة الخبازة اخذت رجال . . ها ها ها . .

وسمعت عدة اصوات احتجاجية ثم صوت غريمته :

- هي مال حشيمه ؟ تخوط وتخربط . . يله أم حسين اشربي شربت .
صاحت رديفة :

- شربت ما اللي خلفي . . هذا عرك . . عرك مال انكليز .

كانت تبدو في حالة يائسة ، رخوة غائصة
- ياعرك هذا

لا تعرف من قالت هذا . ردت في عتاب على نفسها :

- ليش ما اعرف ؟ الشايب وجعان وراح يموت . . كله من العرك . . ابوسنون

المكسره . . خليه سائر علينا . قابله . . أبو طيز الجبير رجلها . قحط . . رياجيل . .
إذا سليمة الخبازة اخذت رجال .

حدثت ضجة في المكان خارج الدائرة التي تحسها وقالت احداهن :

- عيني مشايفه ناس . .

- اسكتي عيني . . اسكتي خيرية.

استلقت رديفة كلياً في حضن تسواهن وجعلت تهذي :

- حلوه . . تفاح عجم . . . التشريب عالنار . . تسواهن . . . ناويشيني

كعكه . . جوعانه . . چاي . . ماي . . حاره . . عركانه راح أموت . . هوع .

ودلقت سائلاً اصفر على البساط . وكان ذلك آخر العرس .

حملوها إلى بيتها مستندة على تسواهن واختها الصغرى أميرة، مشلولة الرجلين، محمرة الوجه تهذي . وفي الطريق اعلنت رغبتها في أن تركب حماراً من علوان ابو الجص . وعند باب الخان صرخت «وين ابو شيبه؟ جيتك أطوطح . . بس أنت!» وتجمع الاطفال خلفها وحتى صاحب ابو البايסקالات أطل من دكانه على الصباح والهرج، وجاء يهرول وهو يظن ان حمادي قد مات . وفي الخان كانت فتحة ام الباكله تقول «عيني، أخاف هذا تريك؟» واضجعوها على الأرض قرب حمادي .

في الصباح هبت خيرية تشكو صداعاً . كان يوماً مشرقاً فيه شيء من دفء . وتأبطت خيرية «بقيحتها» وخرجت . كانت سليمة تنتظرها لتذهب معها إلى الحمام . وإلى جانبها بقيجة العرس المذهبة، وطاسة «طين خاوه» وبرتقالتان . وذهبها إلى الحمام . كان حمام النسوان مكتظاً بالنسوان وغيرهن . والبخار ينعدق فوق الرؤوس والصراخ يتضخم في القبو الحجري . وما من موضع قدم حول الاحواض . جلستا ساعة فوق الدكة الحامية حتى فرغ مكان . وغابت «روح» سليمة ثلاث مرات من فرط ما دلكت وحكت ولففت . وأكلت مع خيرية البرتقالتين بين البابين . وخرجت من الحمام بعد أربع ساعات حمراء قوراء، بضة مجلوة بيضاء اليدين فواحة برائحة صابون ابو الهيل . وفي البيت حكّت شفتها السفلى «بالديرم»، وكحللتها خيرية بكحلها الخاص . الا ان عيني سليمة اصبرنا على ان تدمعنا في يوم عرسها . واحست بلزوجة الكحل وحرقة . رمشت باهدابها، وجاهدت لكيلا تلتصق .

وانتظرت سليمة زوجها مع خيرية . كانت فرحة وخجلية . انشئ تستقبل بعلمها . هذا آخر يوم لوحدها . لن تخاف النخلة بعد الآن ، ولا تنوهم القطعة ملكاً . سيكون في البيت رجل تستشعر بدفته في الليل، وتوقظه اذا سمعت خربشة .

«مصطفى كُوم شوف شن ها لطقكك» أما هي فستسترخي على فراشها مطمئنة .
واحست بفرح طاع . وسعت باخلاص اكراماً للرجل ، إلى أن تزيل كل الاثار الخربة
من جسمها ، كل عاهات التنور ، كل الانسحاق المزمز ، كل تجاعيد الوحدة .
وضحكت مع خيرية كثيراً . ضحكت وكأنها اكتشفت لذة الضحك لأول مرة ،
ضحكت حتى على فضيحة البارحة .

- يمه ، أني شمعرفني الشربت يطلع عركك؟

قالت خيرية في فرح :

- غير هذي رديفه مرة العربنجي سوت هيچي سوايه ! أشوآني تونست أحسن
ونسه ، وظليت أني ورزوقي نضحك ونتشاقى لنص الليل . حتى اذا چان عركك خوب
مو مثل عركنا . ليش احنا مد نشوف حمادي لما يسكر . روالته تخر ، ووجهه مثل
الكرکم . وعيونه مبحلقة . . والبارحة حتى رديفه الغبره صار وجهها احمر . . والله
سليمة لو تاخذين فد كمع .

- أها ، عيني ، - قالت سليمة في ندم - چييته بالبلوچه !

- ٢٢ -

كأن السماء قرية هائلة فأنشقت . ظلت طوال يومين تبكي مطراً غزيراً . وظل
أهل المحلة ، طوال هذين اليومين ، كالاسماك تلبط في بركة موحلة . انقطعوا عن
العالم الخارجي ، وعاشوا في رعب الغرق وتداعي البيوت . كان سوق
الخضروات ، وراء السرسيفة ، مغلقاً ، وباعة الخبز في طرفه هجروه إلى أماكن
اخرى مجهولة . وتورطت سيارة ارادت ان تشق الجانب الذي بدا لها مأموماً من
السوق فتوحلت ، وغطست عجلاتها في الوحل الأسود . ثم جلست على
«الرنكات» . وفي السرسيفة تلاطمت امواج سوداء مهددة بجتياح البيوت على
الجانبيين فانشغل الناس بتحسين العتبات بالحجارة وحتى بالزباله الموضوعه
بأكياس ، وتمازحوا قائلين «حرب . . احنا هم د نحارب . . يعني الا تنفجر قنبلة!»
ونفتت الارض رائحة سقيمة كريهة مثل زفرة استغاثة من صدر سقيم .

وخارج السرسيفة ، ابتداء من دكان حسين العطار كان ماء المطر اقل
اسوداداً ، واكثر عافية . كان فيه شيء من لون الطين . صحيح ان المياه كانت من
الجدار إلى الجدار تقريباً الا انها لم تكن بعمق قدمين كما هي الحال في

السرسيفه . وكان في وسعك ، لقاء اربعة فلوس واحياناً فلسين ، أن تعبر المخاضة إلى العالم الخارجي على تختين ينقلهما ، ويضعهما تحت قدميك رجل يغوص حافي القدمين في الماء . ومع ذلك فلم يكن العابرون كثيرين . كاد الشارع ان يقفر . ولاحت البيوت بكل قدمها وهرمها . واستخذت الجدران فبدت وكأنها توشك على التداعي . بدت مستسلمة وكأن مياه المطر قد تسربت إلى اعماقها ، وامتصت ما تماسك به . الا ان الابواب ظلت على عاداتها مفتوحة في الغالب . وفي وسعك ان ترى منها برك الماء المجتمع في الفناء ، وعمليات نقله إلى الشارع يقوم به الاطفال والنساء ، واحياناً الرجال في صفائح تنك . ومن باب علوان ابو الجص تستطيع ان ترى صحن بيته فارغاً ، ولا يأخذك العجب والخوف على حميره . فلو تمد رأسك قليلاً ترى الحمير في الايوان قرب زوجته وبناته .

وبالطبع غمرت المياه المكان الذي كانت تجلس فيه فتحية بائعة الباقلاء . وظلت باقلاؤها منقوعة في الخان يومين ، وظلت فتحية ترمقها بحسرة قائلة «راح اخسر الصايه والصرمايه (تقصد رأس المال) . . يعني هذا مطر لو طوفان نوح !» وفي اليوم الثالث سلقها سلقاً اضطرارياً ، وعرضتها على سكان الخان متساهلة بالثمن . كان يوم جمعة ، ورزوقي حاضر . نقت زوجته خيرية ثلاثة ارغفة ، وتباهت بالماعون المملوء . وتعمدت الوقوف امام ليوان العرينجي . كانت زوجته تهدد طفلتها فأغتاظت ووضعت طفلتها على الارض ، وحملت كل ما عندها من الخبز اليابس ، وذهبت إلى فتحة : «ام كاظم» أرحم ابو ج . . الشايب مشتهي بأكله . «وكانت تكذب . كان الشايب مطروحاً على الفراش عاجزاً عن رفع رأسه . جاءت رديفة بماعون الباقلاء ، ووقفت على رأسه ، وابتنها تجر باذيالها تريد ان تأكل قبله . وهمست :

- حمادي . . جبت لك بأكله تفك المصلوب !

لم تسمع جواباً .

- أكعد أكل . . ريحة البطنج تشفي العليل !

مدت الطفلة يدها إلى الماعون فلطمتها امها . فتح حمادي عينيه . وحاول ان يرفع جسمه على كوعيه ، فساعدته رديفة .

قال في خفوت :

- ما ادري الضعف منين جانبي . . چنت مثل الحصان اطارده .

كانت تعرف السبب؟ ولكن لم ترد ان تؤذيه . قالت :

- أكل . . هسه الضعف يروح منك .

كان يشم رائحة الباقلاء الدافئة المذكرة اياه بعالم قديم معافى . تحامل على نفسه وتناول حبات من الباقلاء البنية القاسية الجلد ، الهشة اللب . وافردت له زوجته حوافي قطع الخبز الرخوة ، وقدمتها له . ولكنه تناول لقمتين أو ثلاثاً وتعب .
سأل :

- رديفة ، هاي الويش د تيجي بنتج؟

- نزول عليها . هاي اشلون راح تطيب . وانت لكمتين تاكل؟

كأنه لم يسمعها . توسد يده ، وعكف ساقيه تحت اللحاف وسألها :

- صاحب جاب فلوس اليوم؟

- جاب درهم .

- خلف الله عليه . قال لها في همس . وكان يسمع صراخ ابنته في الليوان :

- رديفة روعي عليها .

أخرجها من شدها . كانت تنظر اليه بلوعة ، وقلبها يتمزق . كانت مرتبطة به بالحاجة ، وبالحب الذي هو وليد الحاجة ، وبالرضا بما هو مكتوب .

حملت الماعون ، وخرجت إلى الليوان فرأت ابنتها منبطحة على الارض

- نزول عليج . . راح يروح الأكل عنج؟

كانت الطفلة تشهق .

- لتروحين تتوجعين مثل ابوج . . اكعدي أكلي . . تعالي . . اكعدي

بحضني .

ورفعتها عن الارض ، واجلستها في حضنها .

- أريد چاي .

- والشكر منين؟ . . أكلي الباكلة والله كريم .

- يوميه الله كريم .

- لما يصير ابوج زين .

واش وكت يصير زين؟

- الله كريم . . خوب ماراح يظل وجعان كل وكت؟

وانترعت قطعة خبز ووضعتها في فم ابنتها . وقالت وكأنها تحلم :

- كل شي ينفرج - وأعجبها هذا الخيال فتابعت قولها - كل شي يصير زين .
كانت ترمق صحن الخان العريض المليء بالوحل . أمامها حجرة خيرية
وإلى جانبها حجرة العوانس الثلاث . وبدأ لها الحوش رحباً وواسعاً كالخيال :
- كل شي يتعدل - كانت تحاول ان تهتدي إلى تعليل للجملة التي ورثتها
عن سابع ظهر - ما راح تبقى الدنيا هيچي . باچر عگب باچر ما نشوف الا الباب
تسدك . أصبح من مكاني «منو يدك الباب؟» اسمع واحد يگول «آني فارس
الفرسان!» وأطلع واشوف گدامي فارس حلو وجهه عليه هالة نور، راكب على فرس
شهبأ نظيفة تلمع، عبالك نازله من السما . اگول له «عيني شترید؟» یرد عليّ منو
محتاج عدكم؟» اگول له «أحنا! . . عيني ، احنا . الشايب صار له شهر نايم
بالفراش» .

وسكتت رديفة تحبس دمعتها . وانبعث صوت واهن من الحجرة :
- رديفة ، اش د تحچين لبنتچ ؟
- فد حچايه ! . . يگول «گوموا لموا غراضكم» . أسأله «وين عيني؟» يگول
«لموا غراضكم، وتحولوا الحوش جديد نظيف . يگدر الشايب یمشي؟»
- رديفة ، اش د تحچين عالشايب ؟
لم تجبه ، بل استغرقت في احلامها :
- اگول له «اشلون نعيش من غير شغل؟» يگول لي «ماكو خبز من غير شغل»
اگول له «اي ، عيني ، ترى آني كويه . واكدر اشتغل من الصبح للمغرب . بس
اطيني شغل .»

وتنهدت رديفة تنهيدة طويلة وتابعت قصتها بصوت منفرج - ونگوم نشيل
غراضنا، وننتقل لحوش يابس
وصممت لحظة فسألتها ابنتها :
- يمه ! نروح وحدنا؟
قالت الام بحرارة :
- ناخذ الحوش أوادم .
- فتحية أم الباکله؟
- ناخذها . مريه مسکينه . نگعت کرصتين خبز وما أخذت فلوس .
- وأبو قنبوره؟

- ناخذنه . . منو عنده بهالدنيا؟
 - وتسواهن واخواتها؟
 صمتت رديفة لحظة تفكر. ثم قالت:
 - الحوش چبير، وحجره هوايه . . ناخذهن.
 وساد صمت آخر. وسألت الطفلة:
 - وخيرية الحكومة الله يسلمها؟
 - شنو، شنو؟ هذا حوش مو خان؟ قالت رديفة في عصبية
 - وتظل وحدها بالحوش؟
 - خلي تظل.
 - ولما تمطر الدنيا، تطلع الماي وحدها؟
 تأففت رديفة في ضيق. ثم قالت:
 - زين. ناخذها. بس لازم تبطل من حچايه «الحكومة الله يسلمها».
 بدأ المطر ينزل مرة أخرى. وسمعت رشقاته في الحوش. وخلال نقاب
 المطر الرقيق خيل إليها أنها ترى وجهاً ملتجئاً شفافاً متشحاً بسواد يقترب منها
 رويداً رويداً حتى اذا دنا منها غاب. ولم يبق الا صوت رشقات المطر والوجل
 يفصلها عن العالم، وعن الناس. ولكنها كانت تسمع صياحاً وراء باب الخان. كان
 صياح «المعبرجية يتدافعون على اقدام أي عابر سبيل. وما عدا ذلك كان كل شيء
 صامتاً في الشارع الرئيسي. كان دكان صاحب ابو البايסקلات مقفلاً، ومعمل
 السيكاثر خالياً من بنائيه. انتهوا من بناء السرداب الذي يخمر فيه التبغ، والطابق
 الأول الذي ستنصب فيه المكائن، وتوقفوا عن البناء بسبب المطر. وكان باب
 سليمة الخبازة مقفلاً لا ينبعث منه دخان، ولا تشم رائحة خبز. وكان مصطفى في
 مكان ما في صوب الكرخ، وحسين في مقهى «الطرف». وفي الليل كف المطر عن
 النزول.

- ٢٣ -

ونزل المطر في الكرادة أيضاً. لم يكن مثل قرية انشقت، بل مثل الخراطيم
 التي ترش بها الحدائق.
 في الساعة الأولى من نزوله فاحت رائحة طين نقي، ولاح الشارع الترابي

المحاذي للنهر أحمر قانياً ، بينما كان لون الشاطئ اخضر مسوداً. وغشى المطر النهر بنقاب رمادي مزرورق. ونَمَش صفحته الخضراء الشاحبة. ولاح الشاطئء الآخر بعيداً جداً وغامضاً، وبدت اشجار الشاطئء المتفرقة الضخمة مثل عجائز منفوشات الشعر، مثل الخالة نسمية حين تجلس في الطشت وتغتسل، بينما لاحت البيوت على الشاطئء بحدائقها الصغيرة لامعة ملونة بألوان شتى ، وبدا طابوق بيت جديد أصفر متألّقاً مثل رقعة شمس متكاثفة في محيط غائم .

وفي بيت الخالة نسمية غسل المطر البيت غسلأ جيداً، وازال ذروق الدجاج، وبان «الكاشي» في اللوان ابيض وأحمر مثل قطعة قماش جميلة. وكان المطر يمشط فروع الشجرة الفرعاء فتبدو خصلات شعرها لامعة نظيفة منسقة. الا أنها موحشة، خالية من العصافير. والمطر هو المطر. يحبسك في بيتك حتى يرفرف قلبك بين ضلوعك، وتتوافد الافكار على رأسك شتى ومزعجة حتى تضيق روحك في جلدها فتريد ان تطلع!

كان المطر ينزل بشكل مغيظ، ولا يمكنك ان توقفه بـ «اف» و «أوه» ينزل برغم ارادتك في نفس طويل مضجر، ويقيق على الأرض ببقعة مزعجة مثل طفل عنيد يدق في طاسة، ولا تستطيع ان توقفه. كانت تماضر تراقبه بحسرة. كانت جالسة وراء الباب تستشعر هواء رطباً يخفق على وجهها، وتسمع بين الحين والآخر سعال الخالة نسمية في الغرفة المجاورة.

في البدء نظرت إلى طرشرة المطر. راقبت خطوطه البلورية الشاحبة مثل اسنان المشط تنكسر على الارض. ولما استشعرت برداً ترددت مثلما ترددت يوم أمس وقبله تغلق الباب فتغرق الغرفة في ظلام، وتختزل نهراً من عمرها، أم تظل جالسة هكذا ملفوفة بعباءتها تستقبل نفحات الهواء الرطب تنسكب على وجهها، وتشعر بشيء بارد في ظهرها مثل خوف فجائي، مثل خجل أمام شيء مهيب.

كان البرد اشد مما تتحملة. أغلقت الباب، ولاذت بسريرها، وسحبت بطانية الجيش الخضراء عليها. كانت ترتجف. حاولت ان تكظ على اعصابها لتمنع جسمها من الارتجاف. حملت وخزات البرد معها تحت البطانية، وظلت قدماها مثلجتين، وركبتهما وظهرها.

وتذكرت!.....

في الاسبوع الماضي حبسهم البرد - ثلاثتهم! - في حجرة مبنية بالطوب في

اول البستان فيها دكتان طينيتان مبيتان قرب الحائط، ومفروشان بحصير وفراش . وفي الجانب الآخر موقد نار وسخان ماء أسود . وشربوا الشاي ثلاثهم ! . ودفت . وكانت فرحة بمرأى الاشجار والعصافير، وبالنكات يرسلها «هوا» . وكانت تحس بان كل النكات قيلت اكراماً لها، كل هذا الشاي، وهذا الدفء، وهذه الزغردات تأتيها من خلف الباب . زغردة عصافير مرحة مثلها حتى دار الحديث حول حمارة ما ان تسمع بصوت رجل بعينه حتى تنهق، وتهيج . وفي مرات ما ان تشم رائحته على بعد ثلاثين متراً . ومال المضمنجي براسه نحو الخالة نشمية وأسر لها بشيء . وقهقهت الخالة نشمية . وتساءلت تماضر في سرها، ماذا قال لها عنها أو عن الحمارة؟

انتقلت وخزات البرد إلى جنبها فرفعت جذعها قليلاً . وتحسست بيدها الجانب الموحز . حينذاك شعرت بقشعريرة مفاجئة في ظهرها وحشية وسريعة، مثل يد غليظة تنخرط على ظهرها، مثل قشر برتقالة بارد يمرر على جسمها العاري . ولكنها استعذبتها . وخلفت في مخيلتها شاطئاً وزقاقاً مترباً مؤدياً إلى بستان، وهو على باب البستان بانتظارها طويلاً مهيباً، عيناه الداكنتان غامضتان ومخيفتان، وشفاه رقيقتان . وتخليله يقودها إلى تلك الحجرة المبنية بالطوب، ويجلسها على الدكة، ويطل عليها من عل ويخلع عقاله، ويلوح الشعر القصير الاشيب الذي رأته جانباً منه حين انحنى تلك المرة وأسر للخالة نشمية بشيء . وعادت تسأل السؤال الذي انحفر في قلبها: آني لو الحمارة؟

الحمارة؟ كانت قد فكرت بها كثيراً . وأهتدت إلى الجانب المخجل من القصة . والآن تسأل نفسها «صدك آني مثل الحمارة . تركض وراه!» ثم عاتبت نفسها «وانت اش جايج عليه؟! هو بذاك الصوب، وانت بهذا الصوب . هو ابو بستان وانت ما تملكين شي بالدنيا . والله يعلم چم ولد عنده . شعره مليون شيب! لعد مو حمارة؟ تركضين ورا الرجال . وانت عندج واحد، وبطنج جاهل!»

وقنعت بتفكيرها، وتصورت حسين بقامته القصيرة الممتلئة، ووجهه البيضوي، وعينييه السوداوين المندھشتين . وشعرت بحنون نحو مشوب بالاشفاق . انسان طيب انتشلها من باب السينما، وأجر لها غرفة، واستدان ليؤث لها غرفة عروس، والآن طلبت منه ان يشتري قرطاً لها، وقالت له في جسارة وشبه مزاج «لتجي اذا متجيب الترجيه!»

أحست بانها محظوظة . محظوظة بان تقع على رجل مثله . وفي لحظة صفاء
النية ودت لو يكون الآن ممداً على السرير معها . سيناغيبها حتماً . في هذه الايام
يكثر من مناغياتها ، ويحدثها عن الورث الذي سيأتيه ، وعن مشاريعه في المستقبل ،
وعن نيته في ان يدخل مدرسة الصنائع ليصير نجاراً «من صدك» ، وعن الافلام التي
شاهدها قبل ان يلتقي بها ، عن ابو قنبورة يركب حصاناً ، عن طرزان في غابة . شنو
الغابة ؟ بستان يجير . وتوهج في ذهنها تل البرتقال ، ولاح شبح ابتسامة تحت شارب
خفيف مستقيم ، والعينان الداكنتان الغامضتان والشفقتان الرقيقتان . وخيل اليها أنها
تسمع صوته . . صوته الرجولي المرح . وعادت القشعريرة الغامضة إلى ظهرها . يد
صلبة ترحف على لحم عار . واستبد بها قلق وامض . وتخيلت نفسها على باب
سينما في محطة قطار . وسمعت زخات المطر وراء الباب . وأشعرها ذلك بالضيق
والبرد والتشرد . مثل قطة في مطر . مثل أية قطة تريد ان تستجير بسقف ، أي سقف
يقبها من المطر المسكوب . وقالت لنفسها «هذا نصيبي ! يعني كل الناس عدهم
بساتين؟! » تعبت من تسكعها الروحي ، من الاحلام التي تتوافد على خيالها ،
وحاولت ان تحصر فكرها بحسين . . عشيقها الصبي . متى سيأتي بالقرط لها؟ واحد
يمدد على طول غطاءه . وهو مقصر ويأج؟ اللي ردتيه أخذتية . وباجر عكّب باجر
يجي له ورث ، وانت يجي ليج ولد .

ولكنها احست بالضيق لسبب غريب . أحست بانها مطوقة . خوف حقيقي
جبار تملك القطة الشاردة . . ام البزازين ! ستصير امأ . وتقع في البيت تربي
الاطفال و «كل يوم ينزل على افادي حكه شحم» ورديف وين يروح؟ . . خالة نشمية
ورديف؟ وام السناطير؟

وقعدت كالمذعورة ، ونزلت من السرير ، وفتحت الباب كأنها تفر من شيء
مرعب . وعند الباب تنفست نفساً عميقاً بارداً رطباً منعشاً . وهذأت نفسها ، بل
واعترافها فرح . وكأنها ادركت ان قلبها خال من الشحم ، وانها بعد لم تنجب اطفالاً ،
وانها تستطيع ان ترى ام السناطير في بستان . كانت أبر المطر البلورية تتكسر
بهمس على الارض ولا تحس بثقلها على قلبها . وخيل اليها ان النهار هناك وراء
طبقة رقيقة من السحب . كانت السماء بلون واحد تقريباً مثل جادر كبير . وضحكت
حين سمعت صياح ديك رد عليه ديك الخالة نشمية من خنـه . وفقاً الدجاج
بخفوت . وولّد ذلك في نفسها شعوراً بأنها كانت نائمة ، وان كل ما دار في ذهنها

كان حلماً مزعجاً. تركت مكانها في خفة غزال، وعبرت اللبوان المبلط إلى حجرة الخالة نسمية.

- خالة نسمية راح تطبخين اليوم؟

رفعت الخالة نسمية رأسها عن المنقلة الخامدة وقالت:

- وأكثر من كل يوم. . . اليوم عدنه خطر. بطل المطر؟
- راح يبطل.

وبعد ساعة كان اللحم والشجر الاحمر عند الموقد في ركن اللبوان وكان المطر قد كفّ تماماً. وزاد النور المنبعث من لا مكان. كان الهواء بارداً، لكنه منعش، وخروج الدجاج من خنه، وسرح، وكانت تماضر فرحة بانقطاع المطر، وزوال الكابوس. وعندما كانت تقشر الشجر سألت الخالة نسمية:

- خالة نسمية، من راح يجي اليوم؟

- تعرفيه!

حدقت بها مشدوهة. هو؟ أوي. ماريد. عينان داكتتان. خوف. فرحة محمومة. وبدت الدنيا شقراء للحظة، ثم غامت في قلبها الخافق، والقت السكين من يدها لأنها كانت ترتجف. ونظرت عبر الحوش تستنشق هواء. بركت على الارض باسترخاء. وتعاقت على عينيها الوان شتى. وسمعت الخالة نسمية تقول:

- آني اعرف عليمن جاي. . . ليش علي؟

- أوي، خالة نسمية! آني بليه شي مايعه! وتناولت تماضر السكين دون ان تدري. وراحت تقشر الشجر صامتة. اصابعها تشد على المقبض، وكأنما تشد على اعصابها، واسنانها وراء الشفتين الغليظتين مكروزة. وقبل ان تفرغ من طبخ السرز جاء. طرق الباب طرقتين، وصاح نسمية. وعرفت صوته. . . الخشن الرجولي. هرعت لتجلب عباءتها. خفقت قدمها على الكاشي بارتباك. . . وفرح لا ارادي. وفي الغرفة وقفت امام المرأة. . . صديقتها عند الهزات. ونظرت في النور المزرق إلى وجهها المدور. كان شاحباً. وكان قلبها يخفق لأنها كانت تسمع صوته في اللبوان. وغمت مرآتها بخيبة. وجلست على سريرها، وتأرجحت ساقها كتأرجح ارادتها. اطلع لو ما اطلع. . . اطلع لو ما اطلع. وسمعته يقول «العروس وينها؟». . . هسه تجي. وزاد ذلك من خفقات قلبها. وبعد دقائق نادتها الخالة نسمية. وجاءت تماضر تتخطر. وسلمت بلسان رخو. شمت. . . ورأت في الظلمة

برتقالاً موضوعاً في سلة. وخيل اليها من جديد انها تحلم.
- شوفي اش جايب عمران! - قالت الخالة نشمية لها - وحسب الج الي . . الله
وكيلج .

وشع البرتقال عن صدق. انها لا تحلم. وضحك عمران ضحكته الرصينة.
وغمز تماضر بعينه اليمنى وقال:
- الج، وللي كلبه حار.
- هاي هي . . أصل الكلب!
- لعد اشلون . . اللي ماكو حرارة بـكلبه يحس بالبرد بلب الصيف. تمام والا

لا؟

وكان السؤال موجهاً لتماضر. كانت واقفة عند الباب لما تزل تحس بحرارة قلبها، والتهاب اعصابها. ولكن لسانها بارد لم تستطع ان تديره في فمها. اجابته بنظرة واسعة من عينيها. ودعتها الخالة نشمية إلى الجلوس. ودعته إلى ان يستريح. خلع عقاله. وجلس على التخت الخشبي. تلكأت تماضر لحظة عند الباب ثم تقدمت إلى التخت، وجلست. نفس التخت الذي جلست عليه مع حسين لأول مرة في اللوان. خطر ذلك على بالها. والان هي مع شخص آخر. وانكمشت وخمدت حرارة قلبها فجأة. تناول عمران برتقالة كبيرة مبللة من السلة وقدمها لها قائلاً:

- ضوكي! . . اليوم الصبح كطعته والمطر عليه.
اهي تحلم؟ مال نحوها يحمل البرتقالة بيده السمراء الطويلة الاصابع، وشمّت رائحة تبغ في انفاسه خدّرت اعصابها قليلاً. وتناولت البرتقالة فاحست ببرودتها وقالت:

- تشكر!

كانت هذه عبارة أبيها. تذكرت ذلك في إلتماعه ذهن. كان ابوها يدخن ايضاً. وكانت رائحة التبغ تفوح من فمه وملابسه. عندما كانت طفلة كانت تتلذذ بها، وعندما كانت صبية كانت توحى لها بالرجولة. والان كانت رائحة التبغ مرة أخرى إلى جانبها.

- ضوكي!

عاد يقول لها. كانت تحس ييوسة في فمها. ولكنها تخشى ان تخذعها

اصابعها . وجاء الغوث منه . مال نحوها ثانية وقال :

- اذا تريدن اكثر ليج ياها .

وتناول البرتقالة وجعل يقشرها ضاحكاً من الخالة نسمية . كانت هذه تملأ
كفها ببرتقالة وتقول :

- لا عندي أظافر ، ولا سنون . والناس أنكشروا لي عدهم أظافر وسنون .

- نسمية لتغارين .

- أغار . . تريد الصدك . . أغار .

- هسه أكثر ليج ياها . صار افادج حار؟

- حار مثل النار

- لازم هيجي

- عمران عليك الله عليمن جاي؟

ضحك عمران ضحكة دافئة اختفت فيها عيناه . وانكب على البرتقال

يقشرها .

- آني اعرف عليمن جاي . تريد تعلمني؟ لأهل العشك درب واحد . بزماني

چنت اشبل على چتافي مشارب الناس أمليتها من السقخانه حتى اشوف ابو صاية
الترف .

ضحك عمران في نشوة ملتفتاً إلى تماضر يريد لها ان تشاركه نشوته ولكنها

كانت منكماشة على نفسها في الجانب الآخر من التخت . كانت ترى رديفاً وذاك
الصايه ، وام السناطير . وسمعتة يقول :

- بس عاد! . . اخذتينه طربكه! بس انت چنت تحبين؟

«صحيح!» بس هي چانت تحب . . بس رديف واحد أكو بالدنيا؟»

فرغ عمران من تقشير البرتقالة وقدمها إلى تماضر وشمت رائحة البرتقالة
ممزوجة برائحة التبغ . رائحة رجل . ونفض الرجل صايته على الأرض . وفطنت
إلى صايته . ومن مكانها كانت ترى ، من وراء فتحة الصاية الجانبية ، سرواله
الأبيض الطويل ، وحماله الجوارب ، وقدمه المجورية الطويلة . ورأته يلتفت أكثر
من مرة إليها ، ويهم بأن يقول شيئاً فيتراجع . وبدا لها في موضع مرتبك . ولكنه
ارتباك رجولي . وفي الصمت سمعت دقات قلبها . وفاح عطر البرتقالة . وكان ذلك
مهيباً ومنعشاً وأليفاً . بدأ عمران يقشر البرتقالة الثانية للخالة نسمية . وبدا لها مبرءاً

من كل عدوانية، ووديعاً حدوياً حتى همت بان تنطق بشيء اكراماً له . فهو على الاقل ضيفها . عندما كانت تذهب مع الخالة نشمية إلى البستان كان يهش بها ويروح ويحيى . وكم مرة ذهبت إلى البستان مع الخالة نشمية ! وهي الآن تستقبله بهذا البرود . تجلس منكماشة تقضم برتقالتها، والخالة نشمية تترك على الارض ولا تبدي اي حسن ضيافة . بل راحت تعاتبه . ماذا تقول؟ وفمها الآن رطب، ويداها دبقتان، وقلبها منتعش برائحة برتقالة شذية . . . رائحة البساتين !

- خالة نشمية . . التمن صار له هوايه عالنار .

وكانت تريد ان تهرب ايضاً . خلقت في الجو رائحة حياة . . النفث اليها بيسمته القمحية الرصينة وقال :

- والويش التمن؟ . . اصل الايمان !

ضحكت الخالة نشمية ثم استغاثت

- تعالوا كؤوموني !

ونهض عمران وتماضر ليزحزحها من الارض . ولما استطاعت ان تنهض شكت من ظهرها، وطلبت من عمران ان يفرك خاصرتها . فقال ضاحكاً :

- واش دعوه هالكذ شايله

- اش شايله؟ . . روح الميتين؟

تذكرت تماضر «كل يوم ينزل على افادي حكة شحم . . آني هم راح اصير مثلها . . لما يجيني الجاهل؟»

- شحم . . هذا شنو ! وملأ كفه بقطعة شحم متهدلة

قالت تماضر في نفسها «لا، ماريد . . ماريد جاهل ! . . ماريد»

- عذاب من الله . .

كان يتحسس جسمها بيده السمراء وهي مستسلمة له مغمضة العينين ترسل أنات عذبة قصيرة وكأن يده تعصر سمّ الألم من جسمها . وخرجت نشمية إلى الليوان حيث موقد الرز . وتركتهما وحدهما . كانت تماضر لا تريد ذلك . عادت اليها الشعريرة الواخزة . كانت تدير ظهرها للباب، والغرفة نصف مظلمة فكان عمران لا يرى ملامح وجهها جيداً . كان يرى خط استدارة العباءة على رأسها، وانعكاس النور على الخصلات الفالطة من العباءة . وكان وجهها مبرقعاً بنقاب خفيف من الظلمة صاف ناعم يعكس صفاء وجهها ونعومتها، ويجعله شهياً دافئاً

كالتمر الاشرسي في ليلة شتائية. ورأت هي عينيه الشهلاوتين، وحاجبيه الخفيفين، وانفه المستدق، والشارب المستقيم فوق شفيتين سمراوين. كل ذلك استوعبته في نظرة واحدة. وخفق قلبها. وشعرت بيده الممتدة على ظهر التخت، والقريبة منها. كان ينظر اليها. وهمت بأن تقوم. الا انه صرف نظره عنها في اللحظة التالية، واخرج من جيب سترته علبة سيكاثر معدنية، وفتحها واخرج ورق السيكاثر واخذ يلف سيكاثره مطرق الرأس. واستطاعت ان ترى ذلك الفود الاشيب الذي يسحرها منه. وذلك هو الذي ابقاها معه. راقبته يشعل سيكاثره بعد أن وضعها في امزك قصير، وامتص نفساً منها، ولم يخرج الدخان وهمت هي أن تسأله. رآته يثبت نظره فيها فصمتت. وبعد نفسين مال اليها معتمداً على يده اليمنى الممتدة على ظهر التخت، وقال لها:

- هاي ليش صار الكم هوايه مجيتو؟

- خالة نشمية متكدر تمشي.

- خوب انت اندلتي الطريق

صمتت. فقال:

- عيني عالدرب.

ونظر اليها نظرة ذات معنى. وأحس بارتباكها.

.. عالرايحين وعالجايين.

كان يسند صدغه على جمع يده، ويبدو قريباً منها حتى رأت بعض الشقوق في باطن شفته السفلى، واللثة السفلى المسودة. وانطبق جفناه قليلاً فلاح وديعاً قريباً إلى النفس. وملأت انف تماضر رائحة التبغ المخمرة المحرقة. تابع عمران قوله:

- گلت الميجيني اروح له.

قالت في رخاوة:

- هلا بيك.

واستدرك بعد لحظة صمت:

.. ولو تزعل نشمية.

- ليش؟

- تغار. . تعرفني عليمين جاي.

واشفعها بضحكة . وادارت تماضر رأسها . لعل الخالة نشمية تنصت .
وخاطبت تماضر نفسها «راح اكوم . . اكوم؟ . . اكوم . . » ولكنه نظر اليها والدخان
يتطاير من شفثيه ، نظرة طويلة عميقة مثل نفس السيكاة الذي استنشقه . وقال :
- تريدن الصلگك؟ آني جيت على مودج .
وشعرت بيده تتحرك ، وتمس ذراعها . كهرباء وسرت الرجفة في كل جسمها ،
وخدرتها .

- زعلتي ؟

وحركت جسمها لتبعد يده عنها؟

- أوي . . راح تجي الخالة نشمية

- لتخافين . . ما راح تجي

- أوي ، شيل أيدك

- باردة؟

- باردة . .

- دفيها . .

كانت الستارة السميقة ترتفع باستمرار. وكان ذلك يبعث الرعدة في جلده. كان بوسعه ان ينسى كل شيء: اصوات قطع الدومينو الحديدية، والصياح المجنون «سَلَم! مات الدوبيش!» والخرخشة الزجاجية المرتعشة على يمينه، ويتحمل ثقل الهواء، وانفاس الدخان، ولكن ذلك البرد الخبيث الذي ينسل عبر فتحة الستارة كان يوقظه من افكاره، فيعرف انه هنا، في مقهى الطرف، لا في حجرته هناك في الدفء والنعومة.

كانت عيناه تدمعان من الدخان وكأنه يجلس في المقهى لأول مرة. وتلملم وهمّ بالنهوض. ولكن إلى أين؟ هو اليوم لا يذهب إليها، ولربما في غد أيضاً، وبعد غد حتى يحصل على ثمن القرط الذي طلبته. فمن أين يحصل؟ وتلفت. وكانت كل الوجوه التي حوله مسمرة على قطع الدومينو الحديدية. «مغناطيس! . . .» قال لنفسه «عباك مغناطيس. . . ما عدهم بالدنيا الا الدومنه!» وتذكر كيف كان صاحب يقول له حين كان يقضي الساعات الطوال منكباً مثلهم على الطاولة الصغيرة السوداء «هذا مرض، هذا ابتلاء، هذا ادمان مثل شرب الترياك». وكان لا يحس بان صاحباً على حق. فاین يذهب الانسان اذا كان بلا عمل، بلا اهل؟ اكو غير الشط والسينمات والكهاوي، وركوب البايסקلات؟ وحاول ان يتذكر حياته في تلك الفترة، وقبل ان يتعرف على تماضر. وخيل اليه ان ذلك كان منذ مدة طويلة، منذ سنين بعيدة حتى ليجد مشقة في تذكرها، في تصور يوم واحد منها. كان يحس بفتور ذابل ويعجز عن التفكير والاسترجاع حتى خيل اليه انه كبر وشاخ وعجز. وقال لنفسه «هيجي الغرام يسوي؟!» وابتسم. وسأل نفسه هل هو مغرم حقاً؟ وحاول ان يقارن نفسه ببطل من ابطال الافلام، ووجد وجوهاً للشبه كثيرة، ولم يغمه ذلك بل شعر بالعزة، مثل رجل اكتشف فجأة انه من سلالة نبيلة. ورفع رأسه متشياً. هل سيطلب شيئاً آخر؟ وتذكر انه لم يتناول فطوره اليوم. كان مصطفى في البيت عندما خرج في الصباح. وكره أن يذهب إلى ليوانهما - أصبح ليوانهما لا ليوانها - ويتناول الشاي. كان يحس بانه زائد عن الحاجة ومتطفل. وكان مصطفى يجلس متربّعاً على الحصير وكأنه متربّع على العرش، وكأنه كل شيء في البيت. واذا تكلم معه تكلم بلهجة أب صارم. «ابن الجلب! - شتمه في سره - صار لي أبو باخر زمان. .

قندرة أبويه تشرفك!

- أبو شهاب فد چاي لاخ!

وشعر بان معدته تتقلب بعد ان فرغ من شرب الشاي . وربما ذلك من تأثير الصودا في معدة خاوية ، الصودا التي يضعها احمد في الشاي ليصير اسود . «يريد يحصل فلوس - قال لنفسه - احمد الجايجي يريد يصير زنگين . اذا طلبت منه دينارين يطيني؟» ونظر اليه وحاول ان يستشف من سحته جواباً عن سؤاله . رآه يخط خطوطاً على ورقة معلقة على الحائط قرب الموقد . وعرف حسين ماذا يفعل احمد . انها عدد الشايات التي قدمها لزيائنه بالدين . كل زبون مفلس اله خانه ، وفي كل خانه خطوط ، وكل خط يشير إلى واحد . والرزق على الله ! ولاح له متساهلاً ولطيفاً .

- أبو شهاب؟

- اي ، اغاتي .

- تكدر تفتح لي خانه؟

- فلست كلش؟

- كلش .

- چم چاي اقيد؟

- لا ، گول چم دينار .

وضحك احمد واعتبرها نكتة . وقال حسين لنفسه «بايخه! هو هيچي اللي يداين؟ اشتعل امامچ تماضر . راح اتبهدل على مودچ! انت تدرين بيه اشلون داتعذب؟ وانت تستاهلين هالعذاب؟» ومرّت في خياله مهزوزة داكنة وكأنها وراء نقاب . وتذكر كيف التقطها من باب سينما . كانت ملفوفة بسواد ايضاً . عباءة وبوشي . كانت واقفة قرب باب سينما الرافدين . وخيل اليه انها تنظر اليه بالذات . كان يشتري فستقاً من بائع حلويات بجانب السينما فتقدم منها بخطى رخوة . ولما اقترب سألها :

- تخشين للسينما؟

صمت لحظة ثم قالت :

- لا ، اخاف ممنوع!

ابتسم ، ولأول مرة رأى خيال عينيها من وراء البوشي ، عينيها واسعتين مرتعبتين ، وفي السينما امسكها من يدها الموضوعة قرب فخذها ، فأحست بمثل

لمس الكهرباء وجفل هو ايضاً. وكف عن التحرش بها حتى اضيئت الانوار. وخرجنا من السينما، ومشيا صامتين في شارع الرشيد. همّ بأن يعبر الجسر بها، ولكنها توقفت فجأة وقالت «لا، ما روح منا!» وعرف انها له. وفي شارع ابي نؤاس وقفا ينظران إلى النهر قرب سدره، ورفعت «البوشي» فرأى وجهها خالياً من المساحيق له شفتان ممتلئتان، وعينان واسعتان. وشعر بالحيرة حين استأنفا السير. إلى اين يذهبان. سألهما في توجس:

- عندج مكان؟

- دكان؟!

قالت بصوت مرتجف. ولم يدر أنها خافت من كلمة دكان لأن اباهما عطار، وهي هاربة من أهلها. قال لها مستدركاً:

- قصدي رايحه تشوفين ناس؟

- لا، هيجي.

وسارا وقتاً. ثم سألهما:

- تعبانة؟

- تعبانة. من دنياي.

وسهل عليه كل شيء بعد ذلك. وذهبا إلى كمب الارمن، واستأجرا غرفة. وفي الليلة الأولى ناما على سرير خشبي كاد يقع بهما. وفي اليوم التالي اشترى سريراً عسكرياً من سوق الهرج، وفراشاً، وصارت له. وفكر الآن لو رأت شخصاً آخر لكانت له ايضاً. وأرتعش!

رفع رأسه، ورأى جزءاً من الشارع. كان محمود بن الحولة يقف هناك رافعاً الستارة إلى الاعلى، متكئاً على الحاجز الخشبي. وبعد ان طوّف ببصره في المقهى مشى في بطء ودون سلام، وانهد على التخت بالقرب من لاعبي دومينو. ومقابل حسين. وأشار بذراعه الطويلة إلى احمد يطلب شيئاً دون ان ينطق بكلمة. وأرخص ساقيه الطويلتين، واخرجها على ارض المقهى الضيقة حتى حجز اكثر من نصفها. كان يبدو تعباً أو ربما سكران. وفي الدقيقة الأولى بدا رخو المفاصل مسالماً. وجاءه احمد بالشاي فخاطه، ثم شربه بجرعيتين، وقال لاحمد:

- اشو چايك بارد؟

- مو هسه درته گدامك من القوري اللي عالنار.

ناولوه القدح الفارغ وقال له :

- دروح جيب لي استكان لآخ .

ذهب احمد ليصب الشاي . وانتعش محمود كما يبدو . التفت إلى يساره
فرأى لاعبي الدومينو منكبين على لعبهم . كان احدهم يدير له ظهره . امتدت الذراع
الطويلة وعاجلته بضربة جفل لها اللاعب والتفت ناظراً بعينين مرتعبتين حانقتين .
- مو وراك اوادم . قال له محمود وهو يتناول قدح الشاي الثاني .

تحول الغضب والألم المرتسمان على وجه اللاعب إلى اعتذار مكره صامت
حين نظر ابن الحولة بعينه القاسيتين وتزحزح اللاعب من مكانه ، ثم واصل اللعب
في وضع غير مريح ولكنه يرضى بن الحولة .

- لك ما ذا احجي وياك . كانت يدا بن الحولة مشغولتين بالقدح فاكتفا بهذا
التهديد .

- خليفه نلعب فد راس ابو شكر - قال اللاعب متضرعاً ، وعلى فمه ابتسامة
قلقة .

وضع بن الحولة القدح الفارغ على الحصير وقال في عناد :

- لا ، اشو متلعبون .

ومد ذراعه وجذعه ، وأختطف بعض القطع المصفوفة . نظرت اليه اربعة وجوه
في غيظ مكتوم . وصدر صوت من أمام وكأنه آت من مكان سحيق .
- خليفه يلعبون خطيه .

التفت بن الحولة ، ورأى وجه حسين امامه

- انجب مخنث !

اربكت الكلمة حسناً ولم يعرف ماذا يجيب . اكتفى بأن اطال النظر اليه في
عتاب جارح .

- ها . . اشود تعالين . . استوك جاي للدنيا ؟

قدر حسين على ان يقول بشفتين جافتين .

- راح يصير عمري عشرين سنة .

- محصن بالله !

وساد المقهى صمت مأزوم كان ابن الحولة ما يزال يحرق في وجه حسين
في استخفاف . وبعد تحديقة طويلة قال وكأنه تذكر شيئاً :

- هاي اشبيها مرة ابوك؟
 - اشبيها؟ سأل حسين بصوت لا هوية له.
 - تزوجت رجال ثاني على شبيتها؟
 وضحك في غل . وسكت حسين مطعوناً . فباي شيء يرد عليه؟
 - يگولون چانت معاشرته قبل متزوج .
 - محمود لتشيل خطية الناس .
 - جحش ليش اشيل خطية الناس . اكو واحد بالطرف مظل يعرف؟
 تواردت على حسين مشاريع أجوبة ، لم يعرف بأيها يجيب ، ففضل الصمت
 على أمل أن يغلق ابن الحولة الموضوع . والتفت صوب احمد الجايحي . كان ينظر
 اليه باشفاق . وكذلك اللاعبون الاربعة .
 وعاد بن الحولة يسأل :
 - اش يشتغل رجل مرة ابوك؟
 حتى هذا التركيب الغريب الذي لا تقبله أذن «رجل مرة ابوك» بدا له أكبر
 سبة . فماذا يقول لهذا الذي يتحرش به؟
 - اش يشتغل؟ . . گول . . هذا هم متعرفه؟
 - بسوك الجوه
 - لا ، جوه! يشتغل مهرب عند الانكليز . يومية تعال شوفه بكهوة الصالحية . .
 ضحكوا عليه واخذوا فلوسه . تعلمني بيه؟ . . لك انت غير أثول . . حتى على ابوك
 مطالع .
 هذه المرة مست اباه . كزّ حسين على اسنانه وقال بشيء من ثبات
 الاعصاب :
 - بأبويه لتتحارش .
 - وهيجي تحترمه!
 - أحترمه أكثر من أي واحد .
 صوب بن الحولة اليه نظرة صارمة وقال له :
 - لعد گوم!
 لم يجب حسين .
 - گوم لك گوم .

- وين اگوم .

- كُوم اطلع .

- والویش ؟

ونظر اليه في حيرة فرأى الشر مرتسماً على وجهه ولكن كيف يقوم؟

- تطلع لو اطلعك بيديه؟

نلفت حسين إلى الوجوه مستغيثاً فوجدوها جامدة، وغير عازمة على ان

تتدخل . وكان وحده أمام ابن الحولة فنهض .

- ٢٥ -

- وجاءوا أبوهم عشاء يبكون . هذا ما وعدنا به وصدق المصدق .

- الله يخليك اسكت .

- لچ اشلون اسكت؟ مد تسمعين؟

- خليه يلغي ويسكت .

- راح يلم الجيران علينا!

- الجيران نايمه . وكل واحد بحجرته . . . الله يخليك اسكت .

- وأخليه يجسر عليّ؟

- أحسبها عليّ

- دا تسمعيه شد يگول؟ . . كل كلمة هالكبرها . أخاف سكران .

- يمكن . . .

- واي واي ! طوله شبر ويسكر . ممن تعلم الشرب؟

- من أبوه . ليش ما چان يسكر! وانت اش دعوه؟ اللي چنت اگول صايم

مصلي .

- سليمة، آني من قهري .

- لو السكر يداوي من القهر، چان شربت قرابه!

- وشكو عليچ مقهورة؟ انت تخليه يلعب عليچ .

- وليش وحده اللي يلعب عليّ

- شنو مقصودك؟ . . كولي!

- اسكت عني ، ما عندي كل مقصود

- لا ، انت تقصدين خاجيك . . هذي مو بيديه الانكليز راح يمشون .

- من الاول انت ناوي تلعب عليّ . . تذكر الوصل اللي كتبتّه؟

- اي . شكوبيه؟

- اش مكتوب بيه غير بسم الله الرحمن الرحيم؟

-

- عبالك ماكو واحد يقرأ غيرك؟

- شفتيچ توهوسين كتبت ليج بسم الله الرحمن الرحيم . يعني اش اسوليچ؟ . . نص الفلوس اخذتها شكر وچاي .

- فهزت رأسها في حزن، وغرقت في صمت لم يرد أن تفرق فيه فتفكر باشياء اخرى . قال يريد ان يحول تفكيرها .

- سمعته شيگول؟ قچقچي! تقبلين رجليچ يصير قچقچي؟

- قابله، بكل شي راضيه .

- يعني راضيه .

- راضيه، بكل شي راضيه .

- سليمة شنهالحچي؟ اشو نغمه جديدة؟

- بعد مادير بال لكل شي .

- ليش عود؟

- واش كسبت من ديران البال؟ اشو چنت مرتاحة . اشتغل مثل الدابه من

الفجر للمغرب، وما فكر بالتعب وچيتني بساعة غفله . . اسويچ شريكه بفرن!
وتجيج فلوس وانت گاعده مرتاحه، وخليتني أبطل من الشغل، وما نام الليل من
الفكر، واكول يمكن أسعد . . . وخليتني مثل بلاع الموس . والثلاثين دينار
انضريت!

- منضربت . بس الانكليز نكتوا .

- الانكليز والا السيك . . راحت لو ما راحت؟ واش حصلت منها؟

- وآني اش حصلت؟ عبالك صارت بجيبي، واغتنيت منها .

- محد محصل . . فدوه اروح لك جوز عني، وهي لكمة وتنكضي . وباچر

اتوسل بالتموين بلكت يرد لي اجازتي .

- اللي يسمعج يگول دا اللعب عليچ .

- متلعب . . بس آني حظي أسود، وين ما گبلها سوده مصخمة .

- ولويش؟ وأني المن داجيب وداوڊي. اذا تگولين هيچي آني هم چنت گاعد بحجرة وحدي ولو الجريديه الليل كله تلعب بيها. . بس مچان واحد يچي علي. . . مچان واحد يگولي ابو رگبه البعير. والحوش؟. . يروح ويچي عالحوش. . يريد يبيعه.

- خل يبيعه؟

- ويهجو لچ ؟ وياتنور يقي؟

- خلي، اشتغل بغسل الهدوم عند النصاري.

- سليمة، انت راح تشگين گلي.

- خلي گلبك على كتر

- انت متعرفين اش ضام لچ.

- كل فرن بعد ماريد.

- دا تسمعيه. . رجع يجوهر.

وركض، وركضت سليمة وراءه. وفي الحجرة التالية رأيا حسين منظوياً على سريره يضرب المخدة بجمع يده. ولما احس بهما رفع رأسه، وتناول من تحت المخدة سكيناً لفرم اللحم. وقال في تهديد:

- من تنزل أطبرك تطبر.

- وي! - صاحت سليمة وأمسكت زوجها الذي كان يرتجف مثل السعفة.

- وانت تخوفني بسچين اللحم؟ هديني سليمة.

- اشو تنزل درجة وحدة؟

- يعني تخوفني؟. . يعني ماكو حكومة؟

- الحكومة لو تسمع بيك چان حبستك.

- د تسمعين سليمة؟

- اشلون عيني؟. . . مصطفى امشي

- اخذي رجلچ واطلعي. . هذا الحوش مالي.

قهقهه مصطفى قهقهه مفتعلة وقال:

- هيچي تصوّر؟. . مالك؟. . الك نص بس.

- مالي. آني الوريث.

- والشرع وين يروح؟ انت مو من صلبها حتى يكون الها الثمن. - وادار وجهه

إلى سليمة - سليمة هذا الضامه الج . . تراه أني أسألت . . سليمة نص الحوش النا .
هتف بالجملة الاخيرة بعصية وشرافة . وتوترت عروق رقبته الهزيلة . وانتظر
أن تتحدث . ولكنها صمتت . وعلى ضوء الفانوس لاحت عيناها جامدتين لا
مبالييتين . ثم تكلمت موجهة كلامها إلى حسين :
- صدك تريد تبيع الحوش حسين؟

- اي

- بيعه

- شنو؟! . . صرخ مصطفى مجنون .

- خل يبيعه! . . اهل المعمل الجديد يريدون يشتروه .

- سليمة انت تخيلت - صرخ بها ثانية بخبال - متعرفين حياة النزولة شنو؟

- نص بغداد عايشة نزولة - قالت سليمة ببرود .

- سليمة ، عشرين سنة وأناي نزل مثل ام البزازين يومية بمكان . . تريدن

تصيرين هيجي؟

- ميخالف . . هل الدمبله اريد اكسها .

- وراس الشهر يجي عليج صاحب الملك ، معرف انت مريضة ولا بلية

شغل .

- ميخالف .

- ودابير مدايرج ناس . يمكن لو تشوفيهم بالدرب متسلمين عليهم .

- وشعليه منهم؟ اسد بابي واكعد بحجرتي .

- اوف سليمة . . لتصيرين أقسى من الانكليز!

- ٢٦ -

كانت شمس الصباح تسطع بلا دفء . والسماء صافية . ولكنها تبدو جامدة ،
كل شيء يبدو جامداً وبارداً ونظيفاً ومنكمشاً على نفسه . وقَلَصَ حمادي عينيه ،
ونظر إلى فوق فاغر الفم في دهشة ، وكأنه يرى الدنيا لأول مرة . وفي فمه الوردي
الشائخ لاحت ثلاثة اسنان صفراء عن اللزوم ، مثل آثار مدينة هالكة وسط
صحراء جرداء . وبدا انه المحزوز في ذلك الصباح الكاشف للعورات أكبر من ان
يصلح لوجهه الصغير الغائر الوجنتين والعينين . كان الوجه نحيلاً مثل وجه عصفور ،

محاطاً بياشماغ يلف الرأس، وينحدر على الكتفين الضيقين إلى الظهر فوق السترة الكالحة اللون، والطويلة كمعطف. نظر إلى السماء فبهرت عينيه بزرقتها الصافية حتى بدت له مثل قبة صقيلة لامعة من الشذر مغسولة بيد الملائكة، والشمس على يمينه تصبغ الجدار الكالغ بمصفرة ذهبية، حصيرة صفراء ملقاة من فوق سطح الجيران. كان يحس بلونها أكثر من احساسه بدفئتها. وتصور في ذهنه المشوش السريع العجول مئثر ذهبية، وحمامات ثم تخيل نفسه جالساً على مقعد وراء حصان يخب في جادة عريضة مستقيمة. والشمس من ورائه تدفء ظهره، وعلى جانبيه بساتين الفاكة المغبرة، والحصانان يثران الغبار النقي مطواعين في يديه، مستكينين إلى جذبات الرسن الخفيفة، رافعين اذانهما باتجاهه مثل خادمين مطيعين يلتقطان الأوامر من شفتي سيدهما. وتبسم بفرح، وغمره حنين عجول إلى الحياة. استدار ومشى خطوتين في اللوان. ودخل حجرة تسلل ضوء الشمس من سمايتها المفتوحة، وجلس على الحصير قرب زوجته، وملاً صدره بالهواء ثم أطلقه بحسرة طويلة وقال:

- رديفة، تعرفين اش مشتهي؟

- شمشتهي؟

- حصان!

لاحت خيبة الأمل على الوجه المنغولي المستدير وقالت رديفة بضيق:

- يا حصان أكثر!

- حصان اشده على عريانه، وأخليه يسرح على كيفه. واسمع حس حوافره عالجاهه. . أحسن خلخال. . رديفة، انت متعرفين اشلون مزيقه تطلع. . . چراق چراق. . . چراق چراق چراق. . . وانت راكبه وراه، ويبدج الرشمة. ووين متجربه يجي يبدج. . هاي يامريه هيچي؟

- انت تروح وتجي على المريه. . المريه تحبل وتجب وتربي الجهال وتكس وتغسل وتطبخ، ودأوي رجلها الوجعان، وانت الحصان عندك احسن منها. - رديفة لتغثيني. هذا أول يوم اشيل راسي من المخدة، وكلي محروك على حصان وعربانه.

- آني احس لو الحصان؟

- ما اكدر اكول. . رديفة، اذا كلتي أبو أحسن انت لو سيارة؟ چنت أكول

بالعجل : انت احسن من مليون سيارة شوفرليت وعنترناش . بلاكت بالحصان متحير: ما ادري اش اكول . رديفة، لتزعلين . حياتي كلها كضيتها ويه الحصونه . گبل ما اتزوج چان الحصان ديني وايماني . من آني جاهل اركض ورا الحصان . ابويه مچاري ! والحصان بنيادم ! والسيارة حديد . والسيارة يمكن تقلت من ايدچ ، بلاكت الحصان ميفلت . كل شي يفتهم . سمعتي واحد سحگته عربانه ؟ الحصان حياتي . . افيش . . اريد أشم ريحة حصان .

ويدت غير مقتنعة وحزينة . قالت له في مرارة :

- اش گد داريتك !

- لازم اداريني . . انت مرتي .

ولكنها كانت تشعر بالأسف :

- واش نفعتك الحصونه . . صار لك نايم شهرين . . اشو ما جا حصان

داواك .

- ميخالف . . الحصان مو دختور . . الحصان زمرد .

ولم يقل لها طوال حياتها انها زمردة ، وهي التي شقت وتعبت ، وخاضت الوحول ، وجلست عند رأسه ساعات تنصت إلى انفاسه الضعيفة وهي تخاف ان يستنشق نفساً ولا يفره . ودعت الله أن يضع من عمرها على عمره ، وحلمت بالفارس المهب يأتي ليتشلها معه . والآن تجد هذا الجحود ، هذه المناغة الحلوة للحصان . وتفضيله عليها . وكم تألمت من ذلك ! ولكنها أطبقت صدرها على الالام ، ورفعت رأسها اليه في عتاب مجروح . ولما نهض من جانبها ثانية طوقت قامته الصغيرة الضئيلة بنظراتها الحانية . ورأته يقف لحظة في مستطيل الباب الزاهر ، ويعبر اللوان . وهناك يرفع بصره إلى السماء ، ويتمطى ، ويقول « الدنيا حلوة ! » وتسرب ألماها ، وقنعت بكل شيء ، وحمدت الله على نجاته . ألم تقل حين كان خامداً في فراشه « أريد بس انفاسه تتردد » ؟ والآن يسير هناك ، في صحن الخان ، كأني انسان معافى ، ويتوقف عند حجرة مرهون ابو قنبورة ، ولما سمعته ينادي بصوته المرح « ابن الحجية عمشة ؟ ! . . » أمحى كل أثر للبؤس في نفسها . وابتسمت ملء فمها .

واستعذب حمادي النداء ، وتقدم طروباً ، وفتح الباب يحاول أن يكون خفيف الحركة فرحاً بعافيته ، وقد أوحى له الجو الصافي بأنه شاب ، وصفى بقايا

الوشوشة في رأسه . ورأى الغرفة خالية فقال «لازم بالجامع . حصان عَجَزاً» وأنشئ متلئذاً بذلك الاحساس الحلو لأنه لم يعجز حتى الآن . في وسعه الآن ان يعمل ، ويمسك بالرسن بيدين قويتين . ومذه ذلك بالقوة حتى طفر بركة ماء قرب حجرة «الحكومة الله يسلمها» فتلوث اذبال دشداشته بالوجل البارد الثقيل . ولم يكثرث . توقف عند باب الخان يتلفت في الشارع العريض ورأى كل شيء كما كان منذ شهرين . . . البيوت ، والنوافذ ، والأبواب ، والاحوال ، والسريفة ، ؟ وبيت سليمة الخبازة مغلقاً . كيف حالها مع العريس ؟ لا بد انه لم يرض بأن تستمر في بيع الخبز . ثم رأى البناء الاصفر إلى جانبه . وقال لنفسه «هذا اللي تغير» . . . طولة حاج احمد اغا تنكلب معمل !» واقترب من الطولة . سيسميها طولة إلى الابد . سيظل يتخيل الحنفية ، ومعالف الخيل ، والليوان الواسع . وهز رأسه «زمان!» واتجه إلى دكان صاحب أبو البايסקلات

كان صاحب يتجادل مع رجل طويل ويبدو غاضباً :

- البارحة نوري السعيد أعلن الحرب على دول المحور . راح نفتح جبهة على بحر مرمره نسيمها «شلح وأعبر!»

فضحك العربي في نشوة وقال :

- بهالبرد؟

التفت صاحب والرجل الطويل اليه . وقال صاحب في دهشة نشوى :

- هذا حمادي ! . . . كمت من الفراش؟

قال حمادي :

- كمت . . ييزي قهر!

وهم بان يجلس على عتبة الدكان ، فقال صاحب في عجلة :

- لا ! . . . اكعد عالسكملي .

وجلس حمادي على الكرسي فرأى صاحبه القديم جالساً على الارض

امامه .

- ها ، ابن الحجية ، اشلونك؟

كشّر مرهون ، ولم يتزعج من هذا اللقب المجاني :

- هلا بيك ، اشلونك .

- زين ، مثل المسنايه . . وانت اشو مرايح للجامع؟

- قال صاحب :

- بعد، لا يصلي ولا يروح للجامع .

فأرسل العرينجي أمة استكبار مفتعلة وقال مرهون :

- ماكو فائدة! . . من باع حاج احمد الطولة كفرت كلفت بلكت يصير براسي

خير مثل حاج احمد اغا اللي نهار كله چان يكفر. . . ما صار! . . . گمت اصلي

واروح للجامع . . بلكت يصير براسي خير. . هم م صار.

قال العرينجي :

- انت تروح وتجي عالطولة . . الطولة انباعت .

فأضاف صاحب :

- وحوش سليمة انباع .

- على بختك . . انباع!؟

- انباع . . سيد مصطفى يگول .

فهز الرجل الطويل رأسه وقال بلهجة بآنة :

- اي راح نبيعه لاصحاب المعمل . . ويريدوه باريعميت دينار .

فقال العرينجي :

- خربت الدنيا . . الطولة انباعت ، والنخلة راح تنكص اش راح يبقی

بالدنيا؟! بس لتبجي مرهون! . .

- ما أبجي . بس الخبزه تتراد .

- اركض وراها . . لتكعد بالجامع . . تعرفون آني ييش اشبه العمر؟ بقدر

طويل طويل ، وبين كل مسيره چم ساعة رغيف خبز وطاسة ماي . والواحد لازم ياكل

لگمته ويمشي حتى لما يوصل للرغيف اللآخ يكون جوعان ، ويأكله ويمشي ،

وعالهديدنه حتى لا يجوع . . من يوكف يجوع ، ويفطس . والانسان من هو شاب

يمكن يمشي ركض ويوصل لگرصة الخبز وهو بعده موجوعان كلش ، ويكون عنده

سبير . بلاكت من يكبر وميگوم يركض زين يحس بالجوع كبل ويوصل ، وبعدها

يحس بالجوع وهو بنص الطريق ، وبعدها بربعه ، وبعدها يوكع ذيجي الوكعة

وميگوم منها . . وهيچي ناس ميحسون بعمرهم طعم . ركض بس ، ركض بدر

طويل . .

قال صاحب :

- موكل الناس هيچي .

- كل الناس تمشي .. بس أكو ناس عن ناس . أكو ناس يركضون على رجليلهم ، وأكو ناس يركبون عرباين تجرها زوج خيل من هاي الزينه ، وما ياكلون خبز وماي يس .. هذوله المحتشمين ..

كانت خيرية زوجة رزوقي قادمة نحوهم هالعة فبلغت سمعها كلمة «المحتشمين» فصاحت نادية :

- وين هذوله المحتشمين؟ .. ظلوا محتشمين؟ .. راحوا ويه المدير العتيك .

التفت الرجال نحوها فأروها تشمر بذراعيها بادية الانفعال عصبية .

فسأل صاحب حمادي العربيجي

- وخيرية أم الحكومة الله يسلمها من يا صنف؟

فأخذ العربيجي يفكر بجواب معقول الا ان خيرية سبقتة وقالت :

- ماكو بعد «الحكومة الله يسلمها» ماكو بعد حكومة .. حكومة خرگ ..

شفت عيني ابو مهدي اشلون نقلوا رزوقي من فراش المدير للاوراق؟ .. شفت عيني اشلون يخونون بالواحد؟ اشگد داراهم رزوقي؟ چان مقبح ويه كل الموظفين على مود الحكومة .. شفت اش سوا بيه؟ مو طلعه من باب المدير وخلوه بباب ملاحظ .. لا ، عيني خلوه بالاوراق .. ويه الزبل !

كانت تحرق اعصابها . فقال صاحب لها بحددة :

اش صار؟ قللوا معاشه؟ .. سوا نص فراش؟ چان فراش؟ ويظل فراش .

- لا عيني ، فراش عن فراش فرق .

وهنا طلع العربيجي من بئر تفكيره وكأنه يواصل حديثاً لم ينقطع ،

.. وأكو ناس يركضون ورا عربانة المحتشمين ركض الخيل متركض مثله

حتى يحصلون رغيف الخبز وعبالهم راكبين بالعربانة .

فصرخت به خيرية :

- اسكت عربيجي ، هاي لسه ممت؟

- العربيجي احسن ، گاعد على السكملي بالعربانة مو يركض وراها .

- لو تموت ميطلوك عربانة بعد .

وعادت من حيث أتت خائبة الظن مدحورة ، تحترق لوحدها وتصيح في

الشارع العريض «بعد ماكول الحكومة الله يسلمها، بعد ماكول. . خلي يسمعوني كلهم!» ولكنها كانت لوحدها في الشارع. وبدت وهي ترفع يديها إلى فوق فارغتين، وتصرخ بهذا الهتاف «اللاثوري» مثل مظاهرة قاشلة ضد الحكومة.

- ٢٧ -

كانت الاقراط مصفوفة امامه من شتى الانواع: صغيرة بحجم الحمصة وكبيرة بحجم الريال، أنيقة «مودليه» بفصوص ملونة، و «شركاوية» خرقاء عقريية. كانت كلها تتوهج امام عينيه ببريق شفاف. كلها من ذهب ولا تعز على المنال. وإلى يسارها مجموعة كبيرة من الخواتم موضوعة على ارضية مخملية قرمزية اللون. وكانت هناك اسوار، وقلائد وحتى «خزّامات». والاختيار صعب، وكلها تناديه ببسماتها الشقر اللامعة. ثبت بصره بقرطين جميلين باحجار خضر وحمر، وأشار للبائع بان يخرج له. نظر البائع اليه بتفحص قبل ان يمد يده إلى المعرض الزجاجي، ويتناول مجموعة الاقراط. . قرط جميل وصغير. وسأل البائع عن عمرها. قال له: اقل من عشرين. قال البائع هذا يصلح لمن رقيتها قصيرة وممتلئة. والنساء من هذا النوع تحطين الثلاثين عادة. ونصحه بان ياخذ قرطاً أكبر. واخرج له قرطاً باحجار بيض وخضر، وشراشير. وقال انه سيتدلى من شحمة الاذن على جزء من الرقبة، فيكون مثل حاشية ذهبية للوجه يزيده جمالاً، ويلمع لمعان اسنانها، ويهتز على حركات رقيتها. فقال في سره «هم عاجبته نفسه!» واشترى القرط، وحام بصره على خاتم فاشتراه ايضاً بعد اغراء متقن من البائع صاحب اللحية البيضاء. وسار في الشارع مطمئناً. كان النهار قد انتصف، والشمس تلفظ بعض أنفاسها الدافئة. ولكنه تركها ليمر على صف الدكاكين في الجانب الظليل من الشارع. كانت له شهية نهمة إلى الشراء. كان يود ان يشتري لها الدنيا كلها. توقف عند اورزبلك. فاحت من داخل المخزن الطويل رائحة نفتالين دافئة، وروائح أخرى لم يتعرف عليها. ولكنها كانت تدعوه. وقال لنفسه: هذه رائحة الاشياء الجديدة. كل جديد له رائحة. وتخطى العتبة التي لم يتخطاها طوال حياته. صعد درجات ثلاثاً إلى الداخل الأملس الانيق. المتوهج بالألوان، المملوء بالمدمامات متحركات، وواقفات وراء المعارض. نظرت اليه مدامه متحركة متسائلة. ولمح على شفيتها ابتسامة استطراف. وكأنه ريفي بعقال يركب دراجة.

وقال لها بحنجر جافة: اريد نفنوف قديفة! فأومأت له إلى داخل المخزن. وارتبك لا يدري إلى أين يسير، وهمّ أن يرجع حين سمعها تصيح «جانيت! شوفي الولد شيغيد!» وقابلته مدامه اخرى هيفاء بيضاء اليدين والذراعين. قال لها «نفنوف قديفة» فسألته عن السعر الذي يدفعه. ماذا يقول لها؟. «بيش ميصير!» ندت منه هذه الجملة دفعاً لكل محذور، فقادته إلى مجموعة كبيرة من الفساتين. . . أوه، بحر من الألوان والأشكال والروائح! وقف خائفاً من أن يمسه أو يقترب منها. وراّت الفتاة حيرته فسألته عن عمر الفتاة. قال لها «عشرين» قالت له «يعني بقدي؟» وعرضت له جسمها. ولكنه لم ير الا عينيها الواسعتين الملونتين. وقال لها «اي! . . .» ورأى ابتسامة رفق على شفتيها الرقيقتين. واستدارت لتختار ما يناسبه. فرأى صدرها الضيق، وعجيزتها الكبيرة، ثم ساقها البيضاء الممتملئين المحمرتين قليلاً. وقال لنفسه انها تشبه تماضر. . . تماضر بيضاء! جاءت بثوب ازرق وطرحته على المنضدة امامه. كان صدر الثوب مزيناً بشرائط فضية. ثم جاءت بثوب بنفسجي، وآخر احمر، وأخضر. وتحرّر أيها يختار. وترك الخيار لها. فوضعت الازرق على جسمها وقالت «هذا أحسن من الأول». وكان ينقل بصره بين عينيها والثوب تتلع من تحته رمانتا صدرها الناهد. فقال «هذا بيش؟» وحلم بانه يشتريها قالت «اربعة دنانير». . . باه! وقف حائراً بين اغراء الثوب عليها وجسامة المبلغ. وهزّ رأسه موافقاً كتبت له ورقة وسلّم الدنانير الاربعة. ولما خرج من المخزن لم يكن بالفرح ولا بالحزين. تسرب إلى قلبه بعض خوف غامض حزين وعذ ما تبقى في جيبه من فلوس. ثمانية عشر دينار من ثلاثين. وقال لا يهم هذا عربون فقط. وسار باتجاه السوق. ماذا سيشتري لها بعد؟ سيشتري لها ما يراه جميلاً، وما يزيدا فتنة لتفتح عينيها بدهوة، وتحضنه وتقبله قبلات رنانة. ألم تقبله امام العرنيجي عندما اشترى لها خوان الملابس والسري؟ وكانت الفلوس فلوس الخالة نشمية. وتذكر عليه ان يدفع الكميالات. . . اثني عشر ديناراً. لا بأس!. سيدعو الخالة نشمية ويقول لها: الكميالات أريد أوفيها. ويتحرر من قيودها. وتحرر من ظل الخوف الغامض. وسار بخطى مطمئنة ولفة الثوب المخملي بيده اليسرى. ووصل إلى سوق الخياطين. الاقمشة، وصوت مكائن الخياطة، ورائحة الشيرج، وبقي وأشكن. ولما تجاوز السوق تنفس نفساً عميقاً، وأشعره الهواء الذي هبّ عليه من النهر بالجوع. وتذكر انه لم يتناول فطوره حتى

الآن. دخل مطعماً للكاهاي في أول سوق الجوه من جهة الكمر، ومقابل مقهى الكمر. وجاء الكاهي دافئاً عليه قطعة من القشدة البيضاء، والتمهم باصابعه. وطلب آخر وشايًا، ودفع ديناراً. اليوم لا يدفع الا ديناراً. ورد له البائع ورقة حمراء وخضراء وقطعاً نقدية. وخرج إلى سوق الجوه. طاف به واشتهى كل شيء يود ان يشتريه لها حتى قلادة كهرومان! وخرج حالماً بجناحين تنقله إلى الكراة. مرت ثلاثة أيام وهو بعيد عنها. ثلاثة ايام طوال. وحتى الطريق إليها خيل اليه أنه قد تغير. وكان الوقت عصراً. وكان عليه ان يقضي ساعتين أو ثلاثاً حتى تغرب الشمس فيقول لها انه جاء من الشغل توأ، وأنه اشترى هذه في الصباح. كل رجل يجب أن يكون له شغل. وسار في شارع أبي نؤاس مثقلاً بحمله، تعباً بعض الشيء عجولاً يستحث الشمس لتغرب. ورأى مقهى مبنياً بالطين على شاطئ النهر. فدخله وشرب شيئاً. وحاول ان يتصور، مرة أخرى، حالتها وهي تستقبل هذه الهدايا. سيقدم لها واحدة واحدة، وسيستمع بالفرح والدهشة مرتسمتين على وجهها. ستصفق بيديها، وترقص طرباً، وتحضنه بنعومة، وسيشعر بدفء جسمها على جسمه، وباللين. ولكنه سيحتفظ بهدوء اعصابه. وسينتظر المبادرة منها. ستتخلي عن اطوارها الباردة حتماً، وستغلق الباب بنفسها لتخلو معه. وسيقول لها «او كفي! خلي اطي الفلوس لخالة نشمية!» فنقول «وعندك فلوس تطي الخالة نشمية همينه؟! . . . هاي اشكد عندك فلوس؟» وترتمي عليه فرحة «او كفي! . . . لتصيرين جاهلة ما كملت ليج راح يجيني ورث؟»، «وجالك؟» «جا! . . . اليوم اخذت عربون وباچر آخذ الباقي . . .»، «اشكد؟»، «ميه وخمسين ديناراً! . . .»، «هاي! . . . خلي نطي الخالة نشمية ايجار سنة»، «لا. . . اريد آكول ليج. . . خل ناجر حجرة أحسن!»، «كيفك! . . . و. . . هل سيرعرض عليها الزواج؟. . . يتزوج تماضر ويأتي بها إلى المحلة. . . عروسه آكو أحلى منها؟ وين لكيتها؟. . . شنو وين لكيتها؟. . . يعني وين شفتها؟ وين تعرفت عليها؟» گول لتستحي. . . قابل لكيتها بالدرب؟! . . . لا. . . بباب سينما. وغص بالحقيقة وقال لنفسه «لا. . . خوب اكدر ازوج وحدة جديدة». وجعل يفكر بهذا الفكر. ولكنها لم تعجبه ايضاً. . . شلون كلب قاسي - عاتب نفسه - البنية تنتظره وانت تفكر بوحده غيرها! وتخيّل تماضر جالسة على سريها كسيرة الخاطر. . . تنتظره. وشمتم نفسه، وطرده كل الافكار من ذهنه. ورأى المقهى بلا اشباح، مظلماً بعض الشيء. ونهض ودفع ثمن الشاي عند

الباب وخرج.

كان شعاع الشمس أحمر خلف بساتين الكرخ يبدو وكأنه لسان نيران توفد
لشي السمك. وكان يذوي مع كل لحظة، ويأتي الظلام من لا مكان. وفي الزقاق
الذي سار فيه كان المساء قد حل، واضاء مصباح الشارع دائرة في الهواء.

- ٢٨ -

تماضرا!

ودفع الباب ودخل. لم ينتظر أن يسمع دندنة اقدامها على البلاط الصلد.
ولا نداء الخالة نشمية «تعال ياابا! العروس دنتظرك!» كان يتعجل المفاجأة مثقلاً
بهداياه. وخفق قلبه من أول خطوة في الحوش، ربما لأنه نسي كيف سيتصرف أمام
تماضر المندهشة، وربما خاف أن يكون منفعلاً مثلها وغير رزين. والرزانة في مثل
هذه الاحوال مستحبة. كان عليه ان يتصرف بتعقل، ويكبت ما في نفسه، ويستمتع
باحساس الرجل المالك لعواطفه والمتفوق بذلك على المرأة. كان الوقت متأخراً
فلم يستقبله الدجاج بخربشة ارجله المرتبكة، وباصطفاف اجنحته. والحوش مثقل
بالظلمة. وغرفته موصدة الباب. ولولا ذاك الضوء الخافت في غرفة الخالة نشمية
لحسبه مهجوراً. الا انه كان يعرف أن الخالة نشمية تستعيز في بعض الاحيان
عن النور الكهربائي بنور مصباح خفيض لتريح بصرها، وأن غرفته حين يغلق بابها
لا يعرف أمضاء داخلها أم مظلم. ووصل الليوان وفي تلك اللحظة اضيء النور
الكهربائي في حجرة الخالة نشمية، وسطع النور في عينيه باهراً متوهجاً، فاغمض
عينيه لحظة، ولما فتحها رآها واقفة في الليوان قرب بابها، كتلة سوداء لا وجه لها
ولا يدين.

- تماضر نيمج لو بحجرتها؟

- لا يمي ولا بحجرتها - قالت بصوت غير صوتها حتى خيل اليه أنه دخل بيتاً
خطأ. والتهب صدغاه. وقال غير مصدق:

- شنو يعني؟ مو هنا؟

قالت دون ان تتحرك من مكانها:

- راحت، وبعد ما تجي.

خلفها وراءه، واتجه نحو غرفته، ودفع بابها فاصطدمت يده يرفض باب

مغلق. ولكنه دق الباب بعناد من يجابه مزاحاً في غير وقته. ونادى واثقاً من انها ستجيبه لا محالة «تماضر، تماضر. فكي الباب، تماضر!» وكرر اسمها وكأنه اعتقد بأنها ستجيبه اذا ناداها مرة أخرى. وقف ينتظر ان تصدر من خلف الباب حركة. وتخيلها واقفة في الجانب الآخر من الباب تعانده، ولا تعرف كم هو مضطرب الاعصاب، كم هو عجول ليراها. لابد أنها ساخطة عليه لأنه تأخر عليها. هذا ديدنها! تزعل لأقل سبب. فكيف اذا تأخر ثلاثة ايام متتالية؟. «تماضر.. شوفي إش جايب ليج... انت ردت ترجية، ومحبس، وثوب.. كل شي.. تماضر.. فكي الباب!...»

وانتظر لحظات. ولعنها على عنادها. وتوقع أن تنفجر ضاحكة خلف الباب، أن تفتح الباب وتقفز عليه كالهرة «خوفتك!...» ولكنه سمع صوت الخالة نشمية وراءه:

- لك انت مخبل؟ دتحجي ويا الهراء؟

ولو كان غير منفعل الاعصاب، في حالة من يزن الكلمات، ويفهم اللهجة لعرف الموقف. ولكنه كان مستثراً، ومرتجفاً، ويشعر براسه ملتبهاً. ثم... كيف تذهب فجأة ودون سبب؟ كيف تهجره على هذا النحو؟ ما السبب؟ «ليج تماضر!.. فكي الباب عاد...» وغضب لأنها تبادت في هذه اللعبة الباردة السخيفة التي تزيد من ذبذبة اعصابه. وصاح «بس عاد... تماضر... بس عاد... تماضر لتخليني...» وشعر بيد تجذبه بقوة حتى سمع صوت فتق من سترته:

- راح تلم الجيران!.. كلت لك راحت!

- هدي! وسحب يده بقوة فعادت تخمشه من رقبته. وسمع صوت اظافرها على رقبته.. أخ! وحاول أن يهزها بعنف فصاحت في وجهه:

- تعال هنا.. وين الفلوس؟

واطبقت كلتا يديها على زنده، وجرته نحو الضوء.

قال وهو يحاول أن يثبت قدميه على الأرض:

- أوگفي.. ما ماكلها عليج.. أوگفي، أوگفي!

- كانت شتائم الازقة كلها مجتمعة على طرف لسانه. ولكنه لم يرد أن يغيظها. كان لايزال يعتقد أن في الأمر مزاحاً. فتوسل اليها أن تتركه كاتماً غيظه

على تلك اللعبة التي لا تنتهي . غير أنها كانت تسجبه نحو النور . وكف عن مقاومتها ، واسند ظهره على الحائط قرب حجرتها لاهث الانفاس .

- كولي وين راحت؟

- راحت ! اش مدريني؟ .. جيب الثعش دينار

- كولي لي ومسه أطيج ياها .

- يعني اذا ماكول لك متطيها؟ وهجمت عليه كالسعادة .

- خلّي السترة ، راح تشكيها . . راح أطيج

ارخت قبضتها فوضع يده في جيبه ، وسألها بضراعة وهو يخرج الدنانير من

جيبه :

- الله يخليج وين راحت .

صمتت ناظرة إلى الدنانير الكثيرة . ولم ير في وجهها الملمغذ غير تقطبية الدهشة من هذه الدنانير . وعدّ لها اثني عشر ديناراً . وقال :

- كولي وينها؟

قالت وهي تتزعج الدنانير منه :

- راحت . . طلعت من الحوش .

- وين راحت؟

- لك متروح . دوّر على شغل . عايش عالخبازة وتريد تكسر رقاب الناس .

- ياخبازة!

- كوم اطلع . عبالك نشمية غشيمة تذب فلوسها بالشط؟ كوم اطلع .

كان مصعوقاً جامداً من الدهشة يحدق بها شاردأ وكأنه تذكر شيئاً غاب عن

ذهنه من زمان .

هزّته :

- تطلع لو أصبح ناس يذبونك بالدرب؟

قالتها بحموضة اذابت كل قطرة للأمل في استرضائها . وبدا وجهها يتغير في عينيه ، وتتساقط منه كل التعابير التي انطبع بها في ذاكرته . ولاح مقطباً جافاً اذا عصرته لن تخرج منه قطرة دم . كانت في عينيها نظرة شزراء انتقامية وكأنها لم تره ، ولم تعرفه من قبل . عندئذ فقط عرف أن السبيل اليها مغلق بالف باب ، وأن لا أمل في ان يحصل على شيء . فأحس بموجة من الرجفة والحنق تحمل جسمه في

تيار من الحركة اللا ارادية، مثل سمكة تنتفض آخر انتفاضة على ارض جافة. وكأنها أحست بما في قلبه فعاجلته بلطمة على وجهه قدحت الشرر في عينيه، وندت منه «آه» حنقاً أكثر منه ألماً. وركلها على فخذاها، مغمض العينين، بكل ما تسمح به المسافة القريبة بينها وبين الحائط. وتوهج شيء أحمر في الظلمة، ورن شيء صلب كبس أذنه حتى كاد يسحقها. وانهاالت عليه الضربات سريعة صلبة غير مصحوبة بلهات هذمت كيانه تهديماً، وارخت ركبتيه فأخذ يتهاوى منخراطاً بظهره على الحائط. وقبل ان يصل إلى الارض لطمه على رأسه شيء لا هو بالكف الانسانية، ولا بالحديد. ورنّ الصدى في اذنيه رنيناً طويلاً مثل ذلك الرنين الذي يخلفه سقوط مطرقة على صفيحة معدنية سميكة، واتسع الرنين وكان دوائر متماوجة تبدأ من رأسه ثم تنداح حوله متلاشية ساحبة معها الرنين، محولة اياه إلى دندنة، ثم إلى وشوشة كتلك التي تعقب انطفاء محرك، ويدت، وسط عالم عجول، الشيء الحقيقي الثابت الوحيد. ولسبب غامض خيل اليه أن تماضر هناك، وراء جدار الوشوشة، وراء عينيه المغمضتين، وأن هذه الوشوشة الدنيوية الحنون هي صوت تماضر الهالع الوله كما يتصوره ذهنه المحموم. لعلها الآن تعاتب الخالة نشمية على ما جرى. لعلها كانت نائمة فاستيقظت، غائبة في زيارة فعاتد. وتسرب اليه وعيه من تلك الفتحة من النور التي احدثتها الوشوشة. واستطاع ان يفتح عينيه، فرأى نفسه جالساً على الارض. ورفع رأسه فرأى الخالة نشمية وشخصاً آخر بدا ضخماً طويل الساقين. وأمره الرجل:

- كُوم اطلع!

تلقت حسين. لم يكن في الحوش غير الظلمة، والرجل والخالة نشمية. وأمثلة. تحامل على نفسه ونهض غير قادر على حمل رأسه. وتحركت آلام جسمه في كل خطوة وحركة. وعند الباب أراد ان ينهار. ولكنه امسك بالحائط وعبر العتبة.

- ٢٩ -

وحين افاق من الصدمة كان بعيداً عن البيت. كانت أذناه تتران وكانا حطت عليهما ذبابتان ملحتان. وكان يشعر بألم في مؤخرة رأسه، وظهره. الا انه كان يفكر بوضوح. وكانت الاشياء أمام عينيه حقيقية: الزقاق الدهليزي المرصع بدائرتين من النور، وعيون الابواب والشبابيك الزجاجية المظلمة، ورؤوس الاشجار تطل من

فوق جدران واطئة، والارض الهشة تحت قدميه، والليل، وهو يبدو وكأنه راجع من تماضر كعادته في كل ليلة. كان كل شيء اعتيادياً وبلا ظل للفجعية، حتى تلك الوشوشة المتلاشية التي بدت وكأنها بقية حلم مزعج من تلك الاحلام التي تترأى له كثيراً في هذه الايام، لم يصبح ورأسه صاف. كانت الاحلام تتباهى كلما وضع رأسه على المخدة وغفا. وكان يحلم بشخصين فقط: بابيه القليل، والخالة نشمية. أما تماضر فلا! كان يعرف ان رؤية الميت في الحلم شؤم. فكان يتوقع نحساً في اليوم كله. كان لا يحمل أية فكرة واضحة عن ابيه. ذات يوم جاء من المدرسة فقالوا ان سيارة ابيه اصطدمت ودخلت في دكان حلاق قتل. ولم تقبل زوجة ابيه بأن تأخذ معها إلى المستشفى. ولما جاؤوا به إلى البيت خاف ان يراه. سمع من طرف اذنه أن وجهه مشوه. وانطبع ذلك في ذهنه فمضى كل ذكره القديمة. ولكنه كان يتذكر، أكثر من أي شيء آخر ملابسه الدامية التي اخذها مرهون. وفي اليوم التالي رآها مصادفة في معلف متهدم في الطولة. وحين كان يتذكر اباه كان لا يتذكر وجهه واضحاً بل يتذكر ملابسه الدامية في معلف خرب. وحين كان يتراءى له في الحلم. كان لا يحزره بنفسه، بل يقال له: هذا ابوك. كان يرى وجهه اسود غامضاً بينما يرى بوضوح قامته القصيرة، والقميص الازرق المدمى فيحس بالخوف منه. كان يبدو قاسياً وغاضباً من شيء ما، وبلا عاطفة ابوية نحوه. كأنه شخص غريب فرض انه أبوه. وكان حسين يحلم بالخالة نشمية جالسة وحدها على الأرض، أو سائرة معه في الطريق الطويل إلى تماضر. ثم يحدث شيء ما في الطريق يصده عن الوصول إلى تماضر، كأن يهاجمه كلب شرير، أو شقي مثل ابن الحولة، أو يعترض طريقه جدول ينحدر عن تلك السدرة المقابلة لبيت الخالة نشمية ماراً بالزقاق الذي يسير فيه الآن. ولكنه لم يعرف أن حلمه سيحقق بهذا الشكل المفزع. يراها هي ولا يرى تماضر. نفس الكتلة الملتدة التي يحلم بها. وفجأة طرأت على ذهنه فكرة: ماذا لو كان ذلك من تدبير نشمية؟ انتهرت غياب تماضر لتطرده تلك الطردة، وحين تعود تماضر لا تعرف شيئاً. سظل بانتظاره حتى تأس. وتقول انه عجز عن ان يشتري لها قرطاً فاختنى. يجوز هذا أيضاً. فكيف ينخدع بهذا الشكل؟ لم يعثر على سبب معقول لتركها له. لم يتعاركا. لم يختلفا في شيء وحين زف لها بشارة الورث ارادت ان تزف له بشارة. اهذه بشارتها؟ لا! هذا من تدبير نشمية. لا، يجب ان يعود. وتذكر. . اين لفة الثوب؟ نساها هناك؟

ومدّ يده في جيبه . كان القرط والخاتم فيه . وشعر بومضة من الفرح . ستجد تماضر لغة الثوب هناك اذا عادت . ولكن! . . . ماذا لو اخفتها نشمية عنها؟ ورجع ادراجها إلى البيت . وقرر ان ينتظر بالقرب منه . انه لا يعرف كم الساعة الآن . ولكنه علل نفسه بان الوقت غير متأخر لعودتها . ستظل من اول الزقاق المنسرح المؤدي إلى النهر فيرى من بعيد عباءتها السوداء مقبلة نحوه . واعتزته لهفة اليها ، وانتعش أمله في مجيئها حتى صار يحسب كل ظل أسود عباءتها . وهياً في ذهنه ماذا سيقول لها . حتى اذا كانت زعلانه من تأخره . ستلين لا محالة حين ترى القرط الذهبي والخاتم ، والثوب المخملي هناك ، وكل ما ستطلبه سيكون عندها في اليوم التالي . سيجعلها سعيدة ومرفهة ، ومثل اية فتاة في السينما . وسيخرجان من الخالة نشمية وليس لها الحق في ان تعيقهما ! سدّد لها دينها فماذا تريد منه . وتذكر انه لم يأخذ الكمبيالات . نعم . كيف نسى أن يأخذ الكمبيالات ! وضرب الحائط بجمع يده حنقاً . وتساقطت كتل صغيرة من الطين . «يكون تجي !» قال لنفسه وحقق في الظلمة من امام ومن وراء . لا أحد في الشارع غيره «وين راحت» اخذ يفكر بتلك الزيارة . ثم صفعه تفكيره فقرر أن لا يفكر اكراماً للأمل . خارجة في زيارة وكفى . ولو أنها لا تعرف احداً تذهب اليه . . . مثله . . . لا احد عنده في الدنيا . بعد أن باع البيت أصبح متشرداً . . ولاكن لا بأس ! قال لنفسه «خل تجي . . نعيش سوء . . يصير عدنه بيت جديد . . اتزوجها . . شكو منها؟ ومن يدري آني مستكّدها؟ ومنين الكي احسن منها؟ خل تجي . . يله تماضر . . عيني . . . روعي . . واجبت هذه الكلمات لهيب الحنين بين جوانحه . . أتزوجها على عناد نشمية . . طلعت لي مرة عم جديدة . تحب مطيرجي . . وهي شكل حب لوحب ! اشووجهها مثل الخبز المحروك . اشتعل امامج يانشمية وين راحت البنية؟ كان يشعر بدفقات من الهواء اللاذع تهب من النهر . وكانت قدماء متثلجتين . وحين يتوقف سيل افكاره يحس ببرد كانون زمهيريأ . كم الساعة الآن؟ ربما الساعة الثانية عشرة . لا ! ربما العاشرة . واخذ يخمن الوقت . وبدا له تاريخ طويل منذ أن صاح في الباب «تماضرا . . . وتسرب اليه شك في عودتها . اذا كانت الساعة الثانية عشرة فهي لا تأتي بالتأكيد ولكن من يدري بالساعة . واخذ ينتظر . واخذ البرد يهز جسمه حين خمدت جذوة الافكار في رأسه . ومن بعيد نبحت كلاب . وتذكر كيف كانت تماضر تخاف الكلاب في كعب الارمن . كانت تمسك به كالفطة . وترجوه أن يقضي الليل

معها لانها خائفة . وكان يقسو عليها . ويتركها ونادراً ما يظل معها . كان لا يحس بطمأنينة في ذلك السجن . سمع صافرة يخرججي . وربما هو في الزقاق المجاور . وقال لنفسه «يمكن مراح تجي . . يمكن كلولها نامي هنا . منو؟» ولم يرد ان يفكر خوفاً من انقطاع خيط الأمل في عودتها . وكان البرد يخشب جسمه ، وأحس بالخدر يتسرب إلى ساقه . وقال سيأتي الحارس ويراني ماذا سيقول له ؟ اخذ يذرع الزقاق مثل حارس أعزل . ويتلفت . وعند السدرة التي كانت تماضر تنظر مغيب الشمس من خلالها ، كما قالت له ذات مرة ، سمع صوت الريح الموحشة ممزوجة بصوت الصراصر . كان الليل يبدو أكثر اظلاماً وكهولة . وارتفعت صفارة الحارس من اول الزقاق هذه المرة . ومشى حسين باتجاه صوتها في خطى موزونة مثل خطى عائد إلى بيته . ولما اقترب من الحارس سلم ، وسأله عن الوقت . قال الحارس بالثنتين ! حينذاك فقط أدرك أنه لا جدوى من الانتظار ، وأنه وحده في عالم هاجع . تسربت منه كل حرارة الأمل التي كان يتدفأ بها . وكأنه انقلب عارياً أمام برد الشتاء ، فجعل يصطك عندما غادر زقاقها . وراح يركض كاللص الهارب ، وترددت خطواته المخلخلة غير الموزونة في صمت الدروب مرسله صدى أخن . ولكنه خاف أن يحسب لئلاً حقاً فتحول إلى مشي سريع كالركض ووقع خطواته تلاحقه باصوات متفاوتة وكان وراءه عقبيه في كل درب حارساً يطارده . وفي منتصف الطريق رأى سيارة كان صوتها الهرم يرن مثل جؤار جاموسة . أوقفها وصعد فيها إلى قلب المدينة ملتمساً الدفء والطمأنينة . كان المبيت في البيت خارج تفكيره . ونزل في السلطان علي . وسار في شارع الفيرجية شاعراً بدفء الحيطان المظلمة ، آملاً في دفء أكثر حين يصل إلى أول السوق في نهاية الشارع . كان يسمع اصوات محركات غير منظورة في مكان ما وراءه تخزن في معاناة ، ثم تذوي . وفي أول السوق رأى عيون المواعد الزرق في بعض الدكاكين تلتهب تحت قدور سود . وكان الدفء بينها كافياً لأن يعيد النعاس إلى جفنيه . وقف عند بائع «باجه» سمع في داخل دكانه همهمات انسانية . وسلم . وسأل البائع :

- الباجه مستويه ؟

- مستويه من زمان . بس الخبز لسه ما أجا . . هسه على جيه .

وتذكر حسين ، وكأن ذلك ذكرى قديمة كيف كانت زوجة ابيه تستيقظ منذ الفجر لتخبز . وكان يستيقظ على رائحة الدخان تملأ صدره . وفي مثل هذه

الاقوات من الشتاء تكون دافئة ممزوجة برائحة خبز طازج .

- يمكن أكعد شويه .

- تفضل عيني . . وعندي چاي اذا تريد .

كان الدكان دافئاً جداً، وفيه رائحة زفر قديم متراكم على المنضدة الطويلة، والمقاعد، والحيطان . قال البائع وهو يقدم الشاي :

- الدنيا صح . . نص بغداد كاعده هسه .

حقاً . . بعد نصف ساعة كان يرى من مكانه اشباحاً سوداء تتحرك في الشارع امامه . وسمع سعالاً متنوعاً ينفذ اليه من خلال ازيز الموقد . وجاء رجل بالخبز . وظل الاثنان يتحدثان طويلاً . ثم اشترك معهما صوت آخر، ثم انبثقت مجموعة اصوات على مقربة . وأخذت اصوات المحركات تتردد أكثر . . وممرت سيارة في الشارع، وعربة، ورهط من الحمير، وبائعة لبن طويلة الرقبة . ولما فرغ من طعامه كان الشارع يلوح امامه في ضوء رمادي فاتح . وجاءت العصافير وترامت على الارض القذرة في استماتة . وقرر أن يعود إلى هناك وينظرها .

. . . الزقاق المترب نفسه، المؤدي إلى بيتها . سار فيه مصصوص الخطى، منحدراً اليه من شاطئ النهر . كانت زقزقة العصافير فيما حوله، والصباح الاشقر، وبعض السابلة تدفء قلبه بكف الأمل الدافئة . ولمح بابها من بعيد . راقبه من بعيد . وكلما دبّت الحركة، ومسحت الشمس برد الليل البارح تخيل انها ستأتي في هذه اللحظة . سبرى قامتها بوضوح في شقرة الصباح الترايبية، وسيناديها : تماضر! وماذا ستقول له؟ ها . . اشو واكف هنا؟ أو تقابله في وجه جمده الزعل؟ وماذا سيقول لها؟ طردتني نشمية البارحة وضربتني على وجهي؟ أم يسألها «البارحة وين چنت؟ انتظرچ وما جيتي؟» وبدت كل تلك الأفكار قلقه وغير واقعية . كان فيها شيء قاس وغير طبيعي . وجاء الضحى بدفته السخي، ورائحة ترابه القوية . وانسبل الجفنان بقوة معدن صلب . وراقب الزقاق من تحت جفنين نصف مطبقين . كان يود ان يجلس أو يستلقي . وخذلته عضلات رجليه مرات . واستجاب جسمه كله للنعاس فقاومه بهزة متدمرة من رأسه . وعند الظهر خرجت نشمية تودع رجلاً عند الباب . نفس الرجل الذي ضربه ليلة أمس . وشعر بشيء من الارتياح . ولكن الرجل ما لبث حتى عاد بعد نصف ساعة . وغمه ذلك شديداً . وكان يحس بالجوع والتعب والنعاس . وقرر ان يذهب ليتبلغ بلقمة . وأكل طعامه مغمض العينين . وبعد الغداء

لم يكن قادراً على مقاومة النعاس . واشتاق الفراش في بيته في حي الصافن . هناك آمن وأدفاً . وبغصة مسحوقة فكر مع نفسه : انه لن ينام ابداً في تلك الحجرة بعد الآن ! لن يرى النخلة القميئة ولن يغتسل قربها ، ولن ولاحت زوجة ابيه في خياله مطبقة الجذع ، منكبة على مخدتها تبكي . بنفس الصورة التي رآها فيها يوم العيد . وهز رأسه ، واستعجل الذهاب اليها . ماذا تفعل الآن ؟ ماذا تقول في قلبها عنه ؟ ونازعته نفسه إلى محلته ، إلى بيته ، إلى صاحب ابو البايסקلات ، والشارع العريض ، واحمد الجا . ونهض مصمماً على ان يذهب إلى بيته . بيته ؟ !! أما يزال عنده بيت ؟ ومسحت قوة غريبة غراء النعاس من جفنيه . واتجه إلى محلته . ولكنه في نفس الوقت نازعه حنين إلى تماضر . تماضر لم تذهب نهائياً . « هالتعب والمعروف والعذاب يروح بسطره ؟ » وملأت تماضر تفكيره . وغلبه النعاس فقرر ان يستأجر غرفة في فندق ينام فيها ساعة ثم يذهب إلى الكرادة . وفي المغرب كان قرب بابها . وفي صباح اليوم التالي ، وظهرو وعصره وعشاءه . وفي اليوم الثالث . بدا كل شيء مريباً ولا يبشر بخير . عجب لماذا لم تخرج الخالة نشمية طوال هذه المدة . ودار في ظنه ان البيت خال . تقدم منه يشم رائحة الحياة . وكان قد ملّ الانتظار ، واكتشف سخافة ما يفعل . يقف هناك ساعات دون أن يحظى بشيء . كان الباب موصداً . تسمع عبر خشبه الاصم فلم تلتقط اذناه شيئاً . وجرب ان يدفعه قليلاً في يده فوجده مقفلاً . وفي يأس الأمل الضائع طرق الباب . كان النهار قد انتصف . ومده ذلك بشيء من الشجاعة على ان يفعل ذلك . سمع خطوات ثقيلة عبر الباب وصوت نشمية :

- منو ؟

- أني

وانتظر لحظات مليئة بالتوتر . وفتح الباب ، ورأى الخالة نشمية تسد الطريق ، وعلى وجهها تساؤل ساخط :

- هم جيت ؟

ورآها تلتفت إلى الورا فأربكتها التفاتتها . يعني ما يزال الرجل هناك . قال

لها :

- نسيت عدكم غراض .

فهزت رأسها :

- ياغراض؟

- لفه مال هدم . . أريدها.

نظرت اليه نظرة طويلة وكأنها تفكر بما ستقول له . ثم قالت :

- تعال أخذها!

وسارت امامه تاركة اياه يدخل بثقة مربية . مشي يتعثر وكأن الحوش مملوء بالحفر . ومع أن البيت صامت فارغ فقد أحس بان عيوناً تراقبه ، عينا الرجل . وربما عينا تماضر أيضاً . أحس بها في صعيد واحد من الغرابة والعداء . حتى تماضر اذا كانت موجودة ولا تخرج لاستقباله فهي غريبة عنه .

قالت نشمية وهي تناوله اللفة التي تمزق عنها غلافها . وكان يبدو أنها حلت ثم أعيد شدها ثانية؟

- هذا ثوب لتماضر ، ليش متخليني أوصله اليها؟

نظر إلى وجهها وقال :

- كولي لي وين راحت . . آني أوديه .

- ما ادري ! . . راحت ، شالت . يابا تريد تبليني بينت الناس؟ أهلها سمعوا وأخذوها . شافت واحد أحسن منك وراحت . شعليك منها؟ متزوجها؟ مزين بقت وياك هالمده؟

- واش سويتلها موزين؟

- ما سويتلها . . بس تكذب عليها . . نجار! . . يانجار عيني أنت؟ . .

تقشمرها! معايش على مرة ابوك الخبازة . . موكل النهار سايب بالدرايين .
اذلهه حديثها فوقف امامها مشدوهاً . لا يعرف ماذا يقول . كانت تتحدث بحرارة وصدق . فأحس بذلة لأنه مايزال يظن أن تماضر تنصت اليه . انه لا يستطيع الا ان يحس بها هنا في هذا البيت .

- وغراض الحجره؟ . . الكنتور والجرياه؟

- اخذتها وياها . . مالتك؟ احسبها مهر المتعة . . خمسة اشهر تتمتع بيها

وتريد تطلعها هيچي .

فرأت في وجهه تساؤلاً أكثر من الاستنكار فقالت :

- متصدگ؟ - وتدرجت نحو الباب وفتحته . كانت الحجره فارغة وكأنها لم

تسكن من قبل . وقالت نشمية :

- صدقت؟

كيف لا يصدق الآن وهذا الخواء امامه؟ لم يبق للاشياء الا ظلال ذكرياتها في ذهنه المشوش. هناك شبح سرير، ومراة كنتور. وتماضر امامها. مجرد ظلال. وقف يسترجعها ذاهلاً.

- يله عاد. . شوف دربك.

هزه صوتها التالف فصرف بصره عن الحجرة وقال بعد أن تبعها خطوتين:

- والكمبيالات. . اطيني ياها! ما اخذت فلوسها؟

- أه! - قالت بتصميم - الكمبيوترات اخليها عندي لكل يوم تجي علي. .

والمحكمة موجودة!

- ٣٠ -

وهبط المساء عليه وهو يضرب في الشوارع دون هدى. كان يشعر بالتعاسة والمذلة والضياع. ولم يستقر رأيه بعد على ما سيفعله. رأسه قدر يغلي بالصور المحمومة، ورجلاه مثل نابضتين يسيران على حركة سابقة. كان لا يعرف إلى أين يذهب. إلى الفندق مرة أخرى؟ وشم في السك تلك الرائحة التي تغلف الدور الواطئة هناك. رائحة دهن يحترق ممزوجة برائحة نפט. وكان يشم هذه الرائحة في الامسيات الصيفية في محلته. كانت هذه الرائحة لا تتصاعد الا في المساء الصيفي الراكد الهواء. وصار شارع الكيلاني امامه. وعلى بعد عشرين متراً من اليسار مقهى احمد الجايجي، وعلى مسافة مماثلة إلى اليمين مركز العبخانة، وسكالات الخشب، وعنق سوق الصدرية، ومال إلى اليسار، وظهر امامه الشارع الضيق الذي ينتهي بمعمل السيكاثر غير الكامل، طولة الحاج احمد آغا سابقاً، وعلى بعد خطوات منها بيته. بيته؟ وهل ظل له بيت؟ انه لا يستطيع ان يتصور أن ذلك البيت «ابو النخلة» والتنور ليس بيته. لا يمكن هذا

- رفع ستارة المقهى ودخل.

- مرحبه ابو شهاب.

- هلا - قالها ابو شهاب باقتضاب. وتعجب من ذلك. هل سيقابله كل الناس بهذا الجفاء؟ كان المقهى فارغاً. ورنّت اقداح الزجاج تغسل قرب السماور. واستمر ذلك وقتاً طويلاً. وطال وقوف احمد هناك. وكأنما نسيه. كأنما لم يحفل

به . وقال في نفسه «ظلت على احمد... اذا تماضر تركتني!» وشعر بغصة، وانفرد.

- ابو شهاب، مخدر چاي جديد؟

- هسه على خدره

- فد چاي طوخ، الله يرحم ابوك. راسي دايع.

ولم يرد عليه أحمد بشيء. لا «حلة البركة» ولا ممنون. وأستمر في غسل الاقداح. كانت الصينية مليئة بالاقداح المستعملة. وشعر بالغربة في هذا المقهى، ربما، لأول مرة في حياته. كان الناس في طريقهم إلى التخلي عنه واحداً بعد الآخر. وكان الصمت يؤذيه لانه يضعه امام كارثة وافكاره المعذبة. حاول ان يستدرج أحمد في الحديث. سأله اسئلة رد عليها أحمد باقتضاب. وضاق ذرع حسين بهذا البرود فصاح:

- ابو شهاب هاي اشكد صار لك مغاسل استكانات.

التفت اليه أحمد، وحده بنظرة غريبة قبل ان يقول:

- هسه الجماعة چانوا عندي كلمه.

- يا جماعة؟

ولم يجب أحمد أيضاً. بل أستمروا يغسل الاقداح. وكره حسين هذا الصمت القائم الممزق للأعصاب. حاول ان يحزر الجماعة التي تحدث عنهم أحمد. ولكن فكره المغبش لم يهتد إلى شيء. وأخيراً جاء له أحمد بالشاي. فعاد يسأله:

- عليمن تحجي ابو شهاب؟

فنظر اليه أحمد في صرامة:

- هاي وين چنت؟

وكأنما يعرف اين كان كأنه شهد قصته، وضحك نشمية منه. كان سؤاله استنكارياً محملاً بالعتاب.

- وين چنت؟... سايع؟

صمت وأحس حسين بأن الجايحي سيقول شيئاً موحجاً عن قصته، لابد من انه يعرفها. ولمعت عينا أحمد ثم قال:

- ليش مجيت للجنازة؟

جمدت عينا حسين وقال في دهشة:

- يا جنازة؟
- شنو يا جنازة؟ . . . نايم؟
- وقفز ذهنه إلى تماضر
- أوه الله يخليك لتعذبني . يا جنازة؟
- متعرف؟ . . صاحب ابو البايסקلات
- ارتج القدح في يدي حسين وصاح وهو يقف:
- جنازة صاحب . . صاحب مات؟
- مات؟ . . قتلوه
- ومن قتلته؟
- قتله ابن الحولة .
- سرى خدر محرق في رقبته، وأعلى ظهره، وتراخت ركبته فجلس ثانية على
- التخت واضعاً القدح المصطك على الحصيرة المهلهلة . وقال كالمخاطب نفسه :
- ما معقوله . . صاحب ينقتل؟
- ولكن وجه أحمد كان رصيناً وصعباً بالفجيعة . وكيف يهزل بمثل هذه الأمور؟
- صاح حسين بالتيتاع :
- واشلون قتله؟
- اشلون قتله؟ أول البارحة جا عليه للدكان وطلب منه ينزل له بايسكل . ما
- قبل صاحب . گام محمود وصعد للدكان يريد ينزل البايסקل بایده . منعه صاحب
- ودفعه . وتدافعوا . وهذاك جر السچينه وضربه .
- وما چان أحد يمه؟
- چان مرهون ابو قنبورة . . رجل دجاجة ميحل .
- ومحمود؟ لزموه؟
- من لزمه؟ . . انهزم ، وراح يغيب شهر ويطلع يطير الناس . . هاي . ولاية
- فرهود .
- قال حسين وهو يهز رأسه وكأنه ينفض عنه بقايا حلم مزعج .
- ما صدك . . ما دا يخش بعقلي .
- متصدك؟ . . روح شوف بالمنطقه دفناه الظهر بصف ابنه . . متصدك؟ روح
- شوف دكانه . . ما ادري غسلوا الدم من عتبته لولا .

كان الدم في داخله يفور. واحس بالعبرة تتجمع في صدره وتبدأ تهز حنكه. اطرق برأسه إلى الأرض، ولكنه لم يرها، ارض المقهى السوداء، بل كان يرى ذلك الشارع الطويل لمحلته... الشارع الذي يقع حمام السيد رؤوف في أوله من جانب شارع الرشيد، ثم الأرض الخربة المسورة، وبعدها دكان صاحب ابو البايסקلات، المرتفع عن ارض الشارع، وصاحب يعالج شيئاً قرب الدزكاه، وفي فمه سيكارة، وهو جالس على سرج في باب الدكان يراقب امتداد الشارع حتى السرسيفة. هناك الطولة، و«بيته»، والخان، وبيت علوان ابو الجص، ثم دكان حسين العطار، ومياه السرسيفة المنتهية إلى سوق الصدرية. اشياء لا يمكن ان تكون الا هي، وبنفس الترتيب.

نهض ودفع ثمن الشاي وانطلق دون أن يفوه بكلمة، وكأنما يريد ان يحتفظ بنظام الصور المرتسمة في ذهنه. كأنه لم يصدق بعد بما سمعه. هذا هو حمام سيد رؤوف يفوح برائحة بخار دافئ. وبعد العطفة الصغيرة انداح له الشارع العريض، وخفق قلبه وكأنه قادم من سفر طويل. وبعد قليل سيري الدكان... وراء... وكان مغلقاً. تقدم من الدرفة الحديدية وتلمسها وكأنما يكذب عينيه. كأن كل ذلك خداع بصر. تلوث يده بدهن أسود. فنظر إليها. وكان على الأرض بقعة سوداء ملقى على العتبة قرب قدمه. هذا دمه. لم يغسل بعد. نظر اليه فلاح مثل قطعة ثياب تركها مسافر على عجل. أحس به سميكاً حتى ليستطيع ان ينحني ويلتقطه. وتملكه شعور بالمرارة وكأنما جاء ليسترجي عزيزاً فرأه قد رحل. تأخر عن ذلك دقائق معدودات. كان يحس دائماً بان في قلب صاحب شيئاً ضده كان يحس بذلك في النظرة الصامتة الطويلة كلما استل شيئاً من فلوسه عنده، وكلما ذكر انه يريد بيع الدار، وأنه يريد ان يعيش يومه فقط، ولا يهمه ما يضر له المستقبل... كان يحس بالسيكارة ترتجف بين شفتيه، وبقطرات صغيرة من العرق تلتصع على جبهته العريضة. وفي كل يوم كان بني ان يصالحه، بنفس هذا الذي تراكم في قلبه عليه. ولكنه كان مشغولاً بتماضر، وبطلبات تماضر، وبنشوة لقاء جديد، فكان يؤجل تلك اللحظة التي يقول فيها «سامحني!.. اخاف انت زعلان مني؟» وسيجري عتاب، وتراجع واعتذار. وكل ذلك يحتاج إلى وقت وخلوبال. وكلاهما لم يكونا له كان كل تفكيره محصوراً في تلك الحجرة الطويلة في الكرازة التي تجمع الدفاء والاسترخاء والحلم. والآن يأتي بعد فوات الاوان حيث لا جدوى لتفكير،

ولا مجال لمصالحة . يأتي مثلجاً متعباً مطارداً بكابوس مزعج . ولكن ماذا سيقول له الآن اذا رآه؟ ما دام كل شيء قد ضاع . الحوش وتماضر؟ ماذا سيقول له «جنت مستكعد وحده وعافنتي؟ وعلى مودها بعث الحوش؟ جنت طائش ماشوف دربي؟» ووجد كل ذلك مخجلاً ولا يغسل ما في القلب . فترك الدكان وهو يقول «ماكو فايده، ماكو فايده» . وفجأة احس بوقع اقدام خلفه . سمعها فجأة ثقيلة وقرية . وكأنها خرجت من الدكان . وخيل اليه انها خطوات صاحب حقاً . صاحب غادر الدكان ليلحق به . واذا التفت سيراه على بعد خطوات منه ، وسيقول له «حسين . . هاي ليش مستعجل ، وين رايح للبيت . . أو كف . . أو كف» ولكنه اسرع في خطاه وأبتعد . وعندما وصل إلى بيته اخرج المفتاح بشكل لا ارادي ، وتلمس ثقب الباب باصابع مرتعشة . ورّن القفل في الصمت . ودخل البيت يتلمس طريقه في الظلمة ، منتظراً أن يرى الفانوس في ليوان زوجة ابيه ، ولكن! هنا أيضاً لا حياة . . لا نور! ونادى «يمه!» وانتظر ان يسمع الجواب . ونادى «يمه! . . يوم! . .» وكانت كلماته تتردد في الخواء . وجمد في مكانه . لماذا لا تجيب؟ . وتلمس جيبه يبحث عن علبة كبريت كان يحملها احياناً معه . ولم يجدها ، وادار عقبيه واتجه نحو الباب . وهو يصيح بصوت طفل يخاف الظلمة «يوم . . يوم . . يوم» .

وفي الشارع استرد انفاسه وشم في حق . وبدا وكأنه هو الآخر واقع في مأزق . بدأت الاشياء تتحرك من ترتيبها السابق . واتجه نحو الخان . كان لا يعرف كم الساعة . ولكنه كان يعرف انه سيجد شخصاً مستيقظاً هناك حتماً . ودق الباب . وبعد قليل سمع صوتاً نسائياً يسأل «منو؟» اجاب «آني . . آني حسين . . عدكم شخاطه» ودمدمت اقدام خلف الباب ، ولاح ضوء شاحب من خلال الخصاص . وفتح الباب ، وظهرت خيرية تحمل فانوساً .

- عندج شخاطه . . أشو مرة أبويه تبين ماكو .

أهت زوجة الفراش وقالت :

- أها! . . مو شالت البارحة!

وبدا وكأنه يتوقع كل شيء الا هذا .

- شالت؟ . . وين؟

- وبه رجلها بحاج فتحي . . اهل المعمل مستعجلين عالحوش .

أدار رأسه باتجاه السرسيفة وكأنه يداري شعوراً مغيباً . كان يقضم باسنانه

باطن شفته السفلى ووجهه يختليج . وبعد قليل قال لها :

- زين . .

وانصرف .

- ٣١ -

كانت حجرته في الفندق تحتوي على اربعة أسرة، وتطل على شارع الرشيد، ودرب موبوء يظل ساهراً حتى منتصف الليل . وقبل ليلتين كان السرير الرابع فارغاً . وفي الليلة البارحة انزلوا به مسلولاً من أهل طويريج يتشبث للدخول إلى مستشفى الحميات ظل طوال الليل يسعل بوحشية، ومن صدر مثل زجاجة مصدوعة . وفي اليوم التالي هرب النزيلان الآخران إلى حجرة ثانية خوفاً من العدوى . ولم يكن له مزاج او وقت ليتحدث إلى صاحب الفندق لينقله . وفي هذه الليلة جاء تعباً . ورأى المسلول سهران يسعل، ويصق في علبة فارغة للسيكاثر ملئت إلى نصفها بالرماد .

سأله حسين :

- اش وكت راح تخش للمستشفى ؟

قال المريض بصوت هادئ :

- تطول الحسبه . الدكتور يگول لازم تداوه عندي شويه، وبعدين أخششك . . . بالمستشفى يذبوك ومحد يداريك . . المستشفيات كلها ما بيها الا اليود . . وهو يطيني ابر من يضربه أحس بحرارة من رأسي . . ومن نا (وأشار إلى عجيزته !)

ورغم أنه كان يلهث، وكان واضحاً ان الكلام يتعبه الا أنه مضى يسرد قصة حياته في أنين مطعون متحسراً على شبابه الضائع . ولما فرغ وضع حسين رأسه على المخدة وقال في سره «يتحسر على شبابه ! شيفيد الشباب اذا بضيع منك كل شيء؟ . . تصيح من الصبح ومتعرف وين تروح؟!»

وادر ظهره للسعال . كان يشعر بالتعب هو الآخر، وبحاجة شديدة إلى النوم . اغمض عينيه وأرخى جسمه، وحاول ان يطرد الصور المرتشة التي كانت تمر في ذهنه غير مدعوة . . صور أحمد وصاحب وخيرية ونشمية وتماضر . كانت تمر في ذهنه خطفاً مهزوزة عجولة . . طابور من الصور السريعة تتوهج الحمى في

رأسه من احتكاكها وسرعتها. ثم سمع، وهو شبه نائم، سعال المسلول وراء ظهره مخشوشباً مثل صوت فأس تنزل على خشبة جافة، وارتعشت الصور أكثر، واختلط السعال بالصور، وأبتلعها حتى لم يعد يرى في خلفية ذهنه غير خشبة وفأس تمسك بها يد ثقيلة، وتهبط بها في ضربات عنيفة لجوجة متوالية. وتركز ذهنه كله في تلك الضربات. وراقب الفأس تهبط معها منعلاً معها يكاد يحرك جسمه على إيقاعها، وانتظر أن تنشق الخشبة، وينتهي الصوت. وضربات. وضربات. ضربات. وتحول الفأس إلى نصل فقط. ضربات. ضربات. ضربات. وتحول النصل إلى سكين، ورأى صاحباً تحت تلك السكين. وهب فزعاً، وفتح عينيه ومن ضوء الشارع رأى المسلول جالساً على سريره.

ذهب حسين ليشرب ماء، ولما عاد قال المسلول:

- ما أكدر انام.. من أنام يضيق نفسي.

كان هواء الغرفة ثقیلاً. وذهب حسين يفتح الشباك. الا أن المسلول صاح في زعر «لا، يامعود! هسه أنزكم!» وسعل. وفكر حسين انه لن ينام هذا الليل، فترك الحجرة. وعبر دهليزاً مظلماً إلى شرفة صغيرة تطل على الزقاق المشبوه. كان الليل يقترب من منتصفه. ولكن بيوت الزقاق ماتزال مفتوحة الابواب، والناس مثل اشباح ليلية يدخلون ويخرجون. راقبهم حسين يذوبون في ظلام مجازات البيوت، ثم يترنحون متحاشين الضوء. يدخلون في همة ويخرجون في خمول. يسرون بمحاذاة الجدران متهامسين منهين تهامسهم بضحكات. ورأى حسين رجلاً طويلاً يدخل بيتاً منخفضاً، أو هكذا لاح له من هنا. وقال حسين لنفسه «يمكن هذا ابن الحولة! كل شيء بصير. من يلزمه؟» واعتمل في داخله حتى «محد يكدر عليه. يطير الناس ومحد يكدر عليه. صاحب يموت ويروح دمه هدر.. صاحب الوردة.. صاحب اللي چان يريد يگعدني بمدرسة الصنائع.. صاحب مثل ابويه» وتذكر تلك الجملة التي قبلت له في مقهى الطرف «حتى على ابوك ما طالع!» وخرج الطويل من البيت المشبوه، وضحك ضحكة هزيلة رخوة، وفاه بشتائم بذئثة. وتذكر حسين ضحكته هناك، في مقهى الطرف، والعيون كلها شواخص اليه. ضحك منه، وشتم، والزمه على الخروج. وضرب حسين خشبة الدرابزين في غيظ، وعاد يقول في تمن عاجز «محد يگدر له؟». يراد له واحد بايع ومخلص» وذهب إلى حجرته.

رأى المسلول قد وضع حقيقته على رأس السرير كالمتكأ والمخددة فوقها . فكانت مرتفعة . وقال لحسين «هيجي أروح . .» وكان منظر المسلول يوحى بالسأم والقرف من الدنيا . واضطجع ، وحاول ان ينام . ومرة أخرى حلم من خلال انفاس المسلول المصوتة . رأى وجه صاحب الملتحي جهماً . ولاح سكين في الظلمة وساقان ممدودتان عبر المقهى . ولاح أحمد وصاحب وكأنهما توءمان . وكان العراك في المقهى . وأرتفع السكين وهبط . واستيقظ . كان المسلول يشخر شخيراً مغيضاً كالسعال ، وهم ان يوقفه ، ثم أشفق عليه . وقال لنفسه «خليه ينام ! آني سهران سهران ! . . . سهران وبه صاحب . . ماكو واحد ينتقم له ؟» واستوفزت كل حواسه وفلنت منه «آني أنتقم» وجعل يفكر فيها ثم قال في تسويغ «غير يراد له واحد بايع ومخلص ؟ . . وآني شنو؟ اش عندي بعد أهتم بيه؟ . . بالعكس الناس تكوم تحترمني وتخاف مني . . الدوره أعيش سلطان . چم واحد البغداد يعيش بالخاده؟ وچم واحد السجينة توكله لگمته وأكثر؟ والدنيا تايهه . . والا چم واحد قتل محمود؟ صابر وصاحب ، وناس كثيرين . . . وآني أجبي على نشمية بالليل . . . لچ أم اللي لا صلى ولا صام . . طلعي تماضر وين ضامتها؟ لچ تماضر . . وين چنت؟ هي كلکم غنم ! . . يراد لهم واحد هيجي . الدنيا ميراد له خوش آدمي . . . مچان صاحب خوش آدمي؟ راح . . راح . . راح وممشيت بعجنازته . . راح وآني ملتهی . . مخنت آني . . صدك مخنت . . لعد مو مخنت؟ أخلي عجوزه تلعب علي . . . سطرئين وانهمزم؟ ويمكن كلها من جوه ايديها . يمكن تماضر متعرف اشصار . . مسكينة تماضر . وين هسه؟ بيا حضن دهورتها نشمية؟ . .» وقطع السعال سبل تفكيره . وفتح عينيه ، ورفع رأسه .

بدأ الفجر يتسلل من خلال النافذة العارية . فجر مغبر عكر . وخرخش محرك سيارة في الأسفل . وبعد ساعة كان حسين في الشارع . كانت الحوانيت مغلقة ، واغلب السيارات عسكرية انكليزية . وكانت أثار الليلة البارحة وأقذارها ممددة على ابواب السينما ، والحوانيت اعقاب سيكائر ، وعلب سيكائر فارغة ، وورق من مختلف الانواع . وسيول سوداء من الماء تنحدر من بعض الدكاكين . وعند عقد النصراري رأى كناساً يثير عاصفة من الغبار . ووصل إلى مقهى أحمد الجاچي . كان أحمد يفتح الباب . ولما سلم قال له :

- ها . . أشومغبش . .

- الليل كله منمت .

- الويش؟

- افكر بصاحب . هالوردة يروح دمه هدر؟

- راح شيفيد بعد؟

- وهيچي محد يكدر له لابن الحولة؟

نظر اليه أحمد وكأن هذه الكلمات أكبر من أن تخرج من فم حسين ، كأنما يقول له «اشو مكدرت له لما طلعتك من الكهوه؟» ومر السؤال بلا جواب . وانشغل أحمد بفتح الباب .

صدمت حسين رائحة المقهى العفنة . . . انفاس عتيقة اغلق عليها الباب . وأشعل أحمد خشبات في الطريق وراء الستارة المرفوعة ، وبعد أن احترقت وضع جمرات منها في سماور كبير . وتركه في الشارع وجلس قبالة حسين فقال له حسين :

- احچي لي داد . . . اشلون ضربه؟

- گلت لك بسچينه . . تطبر على ركبته وظهره ، وتعرف صاحب اشلون ضعيف .

- اعرف . كله عظام .

- بس سبع . جلب بيه من ياخته . وراد ياخذ منه السچينه ، وادافعه . ومكدر يخلص منه ابن الحولة الا بعد ان ضربه على ايده . . ووكع صاحب على عتبة الدكان ، وذيج الوكعه .

- سبع ! واشلون يموت؟ . . مره شفته يوكف بصدرة كبال ابن الحولة . ويرد

له الزين بزنين . . . مچنت اعرف يسوبها .

- ابن الحولة كل شي يسوي .

- والويش كلشي يسوي؟ . .

- اذا ايده والسچينه .

- واللي عند سچينه كل شي يسوي؟

- ليش ميسوي؟ اذا يعرف حكومة ماکو . . ابن الحولة مخنث لو ما السچينه .

والسچينه ميراد لها استاد . . شيل ايدك وأضرب .

بدأ الفحم يفرق في السماور خارج المقهى ، ويرسل شرارات مضيئة مثل مصابيح كهربائية صغيرة . وخرج أحمد يداري الفحم . وخلا إلى نفسه . بالأمس

حلم بصاحب في هذا المقهى ، ويساقين ممدتين على عرض المقهى الضيق ، نفس الجلسة التي كان يتخذها ابن الحولة عندما كال له الاساءات . وكان عاجزاً عن رده . كان مثل طفل صغير لا حول له ، وخرج مشيعاً بضحكة احتقار . ماذا سيقول أحمد له لو باح له بما فكر به؟ ولملم ساقه ليفوت أحمد حاملاً السماور . وبدأ أحمد يعد الشاي . وشعر حسين بضيق مفاجئ ، ونهض .
- ابو شهاب في أمان الله .

- هاوين . . . بعد خمس دقائق يخدر الجاي .

- لا ، اريد أروح ، وجاي لك . وكانت الشمس قد طلعت ، وسار في شارع الكيلاني ثم انعطف يساراً إلى حيه ، ملتفاً حول العرصة المسورة . وقابله مرة أخرى الدكان المغلق وعلى عتبته بركة دم متخثرة مسودة ، تلك التي رآها في الليلة البارحة مثل قطعة ثياب . عندما كان يمر من هنا ، قبل ايام فقط ، كان يسلم ويقف ، ثم يذهب ويقول «راح ادور على شغل» أو «بالله ابو مهدي متطيني قد ربع دينار؟» والآن لا شيء غير درقة حديدية صماء مسدلة وقف يتأمل حوافها الملطخة بالنفط الأسود . كل الشارع العريض يعرف ذلك الصوت الذي ترسله هذه الدركة الحديدية . وفي الصباح كان يسمعها وهو في حجرته أو في السطح . والآن نزلت وستمر صباحات كثيرة ولا ترتفع ، ولا يسمع الناس صوتها .

مرّ اطفال امامه كانوا يتحدثون باصوات خفيفة كأصوات الكبار . نظر اليهم حسين وعرفهم . زبائن مزمونون لصاحب . كانوا يأتون اليه ويبددهم عشرة أو عشرون فلساً ليستأجروا دراجات وضعت خصيصاً لخدمتهم ، دراجات هوائية مستهلكة كانوا يمتطونها بفرح ولغظ ، وكان صاحب ينظر اليهم ويهز رأسه في حنان ، وكأنما يستلذ بفرحهم . والآن مروا على الدكان المغلق يتحدثون باصوات خفيفة ، وكأنما ذلك اكراماً لذكراه .

سار حسين في الشارع إلى بيته ، وفتح الباب ودخل . قابله النخلة القيمة مهذلة السعفات . كانت وحدها وسط حوش فارغ خاو . واستدار إلى ليوان زوجة ابيه كان الدولاب الخشبي مرفوعاً ، الجرار الفخارية القديمة ، والمشربة والطشت ، والاوناني البيتية النحاسية . كان الليوان قطعة أرض مبنية لا حياة فيها . ودخل الحجرة واذلهه عريها . جدران مضلعة مهشمة الحجارة . ولأول مرة عرف ان الغرفة مبلطة ببلاطات قديمة تراكم عليها التراب وطمرها . ولا شيء من الماضي . حتى

رائحة الانفاس التي كان يشمها كلما دخل الغرفة. زالت وحلت محلها رطوبة عفنة خدشت صدره. وفجأة خيل اليه أن يبدأ تهم بأن تمسكه من خلف، يد ظالمة كتلك التي لطمته في بيت نشمية، والتفت مرتعباً. وكان الفراغ أثقل من أن يستوعبه عقله فكان يتخيل احداً يتربص به، هنا، في الحوش، في المنعطف. كان يصاحبه اينما ذهب، وستمّر لحظة ويفاجئه بضربة، بطعنه، بصرخة تجمد اوصاله. فكان دائماً يلتفت. التفت فرأى حجرة مصطفى مفتوحة. فارغة. والتفت فرأى جدار المعمل الاصفر الصلد يطل عليه في تحد. والتفت ورأى ليوانه وباب حجرته، والتفت وقابلته النخلة القميثة مرة أخرى. كان حوضها قد جف وتيسس الطين الاسود وتكسر. هنا كان يغتسل ويذهب اليها. ومن هنا كانت سهرته تبدأ. وكان يقول لها انه قادم من عمل. وبصق، والتفت في ضيق، ورأى التنور. كانت تقف هناك سوداء طويلة. وكانت العباءة هنا قرب البالوعة. وكانت رائحة الخبز تلهب الشهية، وتوحي بالاطمئنان. والآن كان التنور مهجوراً مثلم الفوهة، وكان بعض رماده المحبب بالسواد يخرج من فتحته السفلى مثل احشاء حيوان فاطس. كل هذه الاشياء أصبحت بلا قيمة له، ولا يرتبط معها بسبب. وألقت ورأى المكان الذي كانت زوجة ابيه تفرش حصيرتها فيه في الصيف. وكأنه يراها الآن هنا، مسندة ظهرها على الحائط، ممدة ساقها من تعب. كانت كلما تنتهي من الخبز في كل مساء تسترخي هنا، وترسل تنهدة. وشعر بموجة واهنة من العطف نحوها. قال في نفسه: مسكينة كانت تتعب كثيراً، وتقف وراء التنور ساعات، وفي الليل تستيقظ مرات. كانت تلهث لتطعمه. وكان هو لا يتعب ولا يشقى مثل شقائقها. مسكينة قالها لأول مرة في حياته. وسأل نفسه: لماذا لم ير كل ذلك من قبل؟ لماذا فعل هكذا؟ والتفت. وقابله ليوانها. ولم يحتمل تحديقه ليوانها الفارغ. وألقت ورأى الباب، فاندفع نحوها.

رأى خيرية زوجة الفراش على باب الخان:

- وين نازله مرة ابويه؟

- وبه رجلها بحاج فتحي. . متندل وين چان نازل مصطفى قبل ميتزوج؟

قال في ضيق من كلماتها الممطوطة:

- اش مدريني.

- بصف ابو الكبة. . . عيني شفت اشلون شفت اشلون كتلوا صاحب؟

- شفت .
وتركها متجهاً إلى الحاج فتحي . وسأل امرأة كانت تقعد على تخته على
قارعة الطريق قرب بيت ابو الكبة .
- سليمة النزول الجديد هنا؟ وأوجعته هذه الكلمات .
- اي ، عيني ، سليمة الخبازة . . هاي انت ابن رجلها؟
- لا ، واحد ثاني .
- نزول على ابن رجلها . . هجولها ها لتهجول . . ليج نورية صحيح على
خالة سليمة .
وبعد انتظار ممل خرجت اليه . فلما رآها بطولها وثوبها الاسود السابق أحس
بجفاف في حلقه .
بادرته قائلة :
- اشو جاي؟ فلوسك عند اهل المعمل ، وغراضك كلها موجودة بالحجرة .
- ما جاي على الفلوس وعلى الغراض
- على وريش جاي لعد؟
- وهيجي تخليني واكف بيباب الحوش .
- وهذا حوشي حتى اخششك بيه والبنات بليه عبايه؟ . . لو تريد تشوف بيا خم
كاعدة؟ . . تعال !
والثفت واستأذنت من النساء ، وقادته عبر معجاز منحدر إلى غرفة سوداء الباب
تطل على حوش مظلم صغير . ورأى في الغرفة كل اثاثها القديم . وجلس على
الصندوق الأسود الذي تضع فيه ملابسها . وصمت مطرق الرأس لا يعرف ماذا
يقول . وجلست هي على السرير تنتظر أن يبدأ حديثه .
- ليش طلعت كبل ما أجي؟
- أهل المعمل يريدوه . . وشكو بعد ضاله؟
- يعني انباع نهائي؟
- لعد شظل بعد؟ قبضنا الفلوس وفلوسك عدهم .
صمت قليلا ثم قال :
- آني ما راح استلمها . ماريدها . . ارجعي للحوش .
- ارجع؟! وأكو واحد يرجعنه بعد والحوش انباع؟

- بعده مانباع .. آني ماستلمت فلوس ولا وقعت .
 - استلمت عربون
 - ارجع لهم العربون .. بس ارجعي .. والحوش مالج
 - مالي؟ .. من چان مالي مچنت تگول مالي .. چنت يوميه تعيرني
 وتعذبني .
 - التوبه ، بعد ما عذبيج .. ما راح اكعد ويأج ..
 - ولبش آني افرح اذا متكعد ويأي؟ چنت حرمه وأكول هسه يكبر ويصير
 ابو البيت .
 ولزم الصمت لا يعرف ماذا يقول ثم قال في لهجة حنون:
 - أرجعي ... من أجل خاطر ابويه . هالاياام هوايه دا أحلم بيه .
 وانفجرت باكية ، هذا البكاء المر الذي يغسل كل ضغينة من قلبها . قال وهو
 يتقدم نحوها :
 - لا تبجین ، والناس تسمع .. اسكتي - وطوقها بذراعه ولثم فوطتها - ما
 عندي أحد بالدنيا بعد غيري .
 وجلس على السرير وراءها .
 قالت وهي تشرب دمعها :
 - وين چان عندك غيري؟
 - چانوا .. صاحب وناس غيره .
 وتملكتها نوبة جديدة من البكاء . وكأنها تألمت من ان يكون له آخرون ، كان
 شيئاً من الغيرة دب في صدرها . وصمت وراءها ساكتاً يفكر باشياء كثيرة ، وتحول
 بكاءها إلى نسيج ، ثم نسيق ، ثم انفاس مخربشة .
 قال لها وهو ينهض من السرير :
 - راح أروح لاهل المعمل .. وين عنوانهم؟
 - والوبش عيني؟
 - ما بيع .. بطلت ..
 صاحت نائحة :
 - شيفيد وأحنا مضينه واستلمنا الفلوس؟
 وعادت إلى بكائها الموحش .

لم يذهب حسين ليستلم حصته من اصحاب المعمل الجديد. زهد فيها وتركها مثل خيط أمل بعودة حياته الماضية. الآن اصبح كالهائم. كان له وقت طويل وفراغ قاتل. في الايام الاولى أحس بأن جميع الناس سيسألونه عن بيع الدار اذا استرسل معهم في الحديث. فكان يتجنبهم، ولا يجلس في مجلس واحد الا قليلاً كان يجوب الشوارع والأزقة ودور السينما والمقاهي، وأماكن لم يطرقها من قبل، باحثاً عن شيء غير محدد. ربما هو تماضر. وربما هو محمود بن الحولة. بل ربما هو صاحب، فقد كان ما يزال غير مصدق بموته. كان يتخيل بعد كل جولة يدور فيها رأسه، وترتخي قدماء من التعب انه سيعود إلى محلته، ويجده هناك. بل سيجد بيته وزوجة ابیه تخطط ثوبها البنفسجي. كانت صور الماضي تترامى على ذهنه وتلح عليه فلا يتخيل الا ما رآه في الماضي، بل ويشم روائح الماضي، رائحة خبز طازج، رائحة دهن يحترق، رائحة جواميس، ورائحة نفتالين. وحتى الروائح الجديدة التي كان يشمها في أماكن لم تطأها قدماء من قبل، رائحة شمها في مصبغة للثياب، رائحة جلود عفنة، ودماء متحللة شمها في المجرزة في باب الشيخ، رائحة صبغ السيارات شمها لأول مرة في حياته. . . حتى هذه الروائح تخيل أنه شمها من قبل. وحتى الاشخاص الجدد الذين يلتقي بهم مصادفة في تجوله، والحوادث التي تقع عليها عيناه، وكأن الماضي يعيد له نفسه، وكأن حياته الماضية تتكرر على نحو مغلق بحيث لا يستطيع ان يشترك فيها فيكتفي بمراقبتها. ومن يدري! قد تمر تماضر به ولا يستطيع ان يكلمها، قد يرى صاحباً ذاهباً إلى حسيقيل الياهو في سوق الشورجة يسلم له الكمبيالات فلا يستطيع ان يرفع صوته بالتحية له ويقول «ابو مهدي وين رايح؟»

وبعد كل جولة كان يعود إلى مقهى الطرف ليفسل تعبهُ بقدح من الشاي.

وذات مرة قال له أحمد الجايجي:

- البارحة شافوا ابن الحولة!

- وين؟

- بميخانه ويسكر. . . هاي هي! ودم صاحب بعده حار.

- بيا ميخانه شافوه؟

- بشارع الصياغ . يگولون ليليه بميخاناه
وفي الوهله الأولى ظن أنه يتخيل أيضاً . تخيل انه سمع هذا القول من أحمد
ذات مرة من قبل . نظر إلى أحمد بعينين دهشتين مجلقتين . فقال له أحمد :
- هم متصدك؟ عاد شيفلها وباك؟ كمت متصدك بكل شي .
- لا ، اصدك
قال ذلك كمن يوقظ من نومه فيقول لمن ايقظه والنوم ما يزال عالقاً في اجفانه
«لا ، آني موناييم!» .
وطلب شايأ آخر . وفي تلك المرة تحدث كثيراً يثبت انه لا يحلم . وذهب إلى
صديق له في سيد سلطان علي .
- كريم متكدر تشوف لي سچينه ام الياي؟
- شلك بيه؟
- كل شي بصير وآني كاعد بفندق ، واجي نصف الليل والدنيا ظلمة .
- اشكد تدفع؟
- بيش متكون . . بس تكون زينه .
وتركه كريم . وعاد بعد نصف ساعة وأشار اليه بان يدخل الدكان فقال له
حسين :
- ممن خايف؟ أكو ناس د يقتلون ومدا يخافون .
- هذولاكه غير ناس .
وفي داخل الدكان اخرج كريم سكينه مقبضها أحمر ، ودفع شيئاً بابهامه
فانطلق نصلها ناصعاً لامعاً مدبياً . وقلبها في كفه العريضة الخشنة وقال :
هاي من كيفها تكص . . . ميراد لها قوة وشطارة .
وتناولها حسين . كانت خفيفة على يده وأنيقة وتملأ الكف . واهمل اقتراح
كريم بان يمرر اصبعه على حدها ، وأطبقتها . وسأل :
- بيش؟
دينار والجزء مالها .
أضحكه كريم فقال :
- هاك نص دينار ولا تگول لاحد .
تناول كريم الورقة الحمراء وقال باسمأ :

- حسين أخاف وراك نيه؟

شجعته السكين على ان يرد:

- انجب لك! . . . يا نيه عندي؟

تلمسها طوال الطريق إلى المقهى ، وقلبها في جيبه . ولما وصل إلى المقهى غير فكره . ولم يرض بالجلوس في المقهى الخائق . خامرته نفس الرغبة التي كانت تخامرهم في طفولته كلما لبس شيئاً جديداً ، أن يدور ويدور ، ويفرج الناس على ملابسه الجديدة . واسكره هذا الاحساس اكثر ، مثل طفل اكتشف فجأة أنه أصبح رجلاً . لا شيء يقف في طريقه الآن مثل أي بطل من ابطال السينما . فلاش غوردن . . عتري والي . . چايك والي . . ابن الصحراء . وطاف على السينمات وشق في تحد مجموعة من طلاب المدارس كانت تتكوم أمام صور فيلم «جهنمي» في سينما الرشيد . أخترقها ووقف امام الواجهة الزجاجية تماماً . هي . . كلكم غنم ! أكو واحد يحجي ويابه؟ قالها في سره دون ان يسمعه احد . وحاول ان يتحرش بشابين فأحجم ، واجتاز مجاز خانة فرجع . ووقف عند بائع حب وأراد أن يهمش حفنة فرق للبائع وقال «عمي اطيني باريح فلوس حب شجر» وكان يدخل السينمات من الموقع الثالث «ابو خمسة وعشرين» وعندما تنطفئ الاضواء يحاول أن يكون أول من يعبر الحاجز الخشبي إلى الموقع الثاني ، وآخر من يغادر السينما بعد نداءات ملحمة من رجال غلاظ لو لم يكن السكين معه لأمسكوه من ياقته ، والقوه خارج السينما . بل كان يتظاهر بالنوم ما ان يعرف أن الفيلم على وشك ان ينتهي ولا يفتح عينيه الا اذا سمع نداءات متكررة تدعوه إلى الخروج عند ذاك كان يسير متمهلاً متلفئاً ثقيلًا .

ولكن العجيب انه تحاشى الذهاب إلى محلته . كان يطوف حولها ولا يقربها . وكان يذهب إلى مقهى الطرف احياناً .

ذات مرة رفع الستارة شخص ، ودخل مستعجلاً وقال مبهور الانفاس :

- هسه شفت ابن الحولة ديسكر بالاو تيل اللي على الشريعة .

فسأل حسين :

- يا او تيل؟

- او تيل الامراء اللي كبال سينما الزوراء من صفحة الشط .

وطلب حسين شايا ليبل فمه الجاف . وشرب الشاي بجرعة طويلة مثلما فعل

ابن الحولة في تلك المرة. ثم نهض وانسل من المقهى .
وخاطب نفسه في تردد «أسويها؟» وكان جانب المغامرة أكبر من
جانب الانتقام. كانت مشيته مختالة. وكان يحس ضغط السكين على بطنه،
الضغط الحديدي البارد الداعي إلى مغامرة. وجاء العصر ببرودته، وغيومه
الرمادية. وسار حسين نحو الفندق كالمسحور بقوة خفية. وعبر الجادة ركضاً. ثم
سار بين الأعمدة الكونكريتية الكالحة متخطياً بائع الحلويات المشهور. وأحس
بمرارة فعاد إليه واشترى مصقولاً، وعبا فمه بثلاثة مرة واحدة. وكان يحاول ان
يحتفظ بمشيته الجديدة: ذراع واحدة تتحرك مجنحة، وذراع أخرى مسبلة على
جنبه. هكذا يمشي الشقاة. وكان يعتقد من قبل ان الذراع مسبلة لأن عضلاتها
منتفخة متينة وصلدة كالحديد. وتحسس عضلة ذراعه المسبلة. ما زالت العضلة
رخوة. ولكنها ستنتفخ حتماً وعن قريب.

انعطف إلى اليسار مقابل سينما الزوراء تماماً، وسار في الزقاق القصير
المترب المؤدي إلى النهر. كم سار في هذا الزقاق من قبل وتنسم هواء النهر
المنعش! وكم مرة عاد فيها خفيفاً وقلبه يخفق للقاء تماضر، وشمتها الحلوة. وتنحى
ليمر حمال حطب. أثار الحمال غباراً شم رائحته ولم يره. ولكنه أحس بحرقته في
عينيه. أغمض عينيه لحظة ولما فتحها كانت القطعة أمامه: «أوتيل الامراء». وعبر
العتبة، واجتاز المجاز القصير المظلم، ووقف في عنق حوش مبلط نظيف. وتحير
إلى أين يتجه. كان الحوش يلوح فارغاً. وتلفت فيه مطلقاً في الغرف المفتوحة
الابواب. موائد خالية ولا ناس. وحمحم. وانتظر ليسمع جواب حمحمته. ولكنه
سمع قلبه يخفق في صدره. وظن أنه أخطأ الفندق. وهم بالرجوع حين سمع صوتاً
هز كيانه كله «تفضل عمي!» ورفع رأسه إلى فوق. كان أحد السقاة يضع يده على
درازين الطابق الثاني ويشير إلى درج لم يلحظه حسين من قبل «تفضل عمي،
الدرج يملك». وشجعتة عمي الاحترامية فصعد الدرج وثباً. ووجد الساقى في عنق
الدرج. وقال مقطع الانفاس قليلاً:

- عبالى معزلين.

- لا، عمي. . . شيعزلنه؟ من الساعة عشرة نفتح.

كان في الطابق الثاني غرفتان عامرتان بالموائد. ولمح في الغرفة القصيرة
جماعة تتحلق حول مائدة. وقال الساقى:

- وحده عمي؟
 - هسه وحدي .
 ودعاه إلى الجلوس في الغرفة الفارغة اختار حسين مائدة نطل على الفناء ،
 ومنها يمكن أن يرى الجماعة التي لم يتبين من هم افرادها .
 كان الساقى واقفاً بالقرب من مائدته :
 - شتجب أجيب لك عمي؟
 - اش عدكم؟
 - كل شي عدنه . . . مشروبات وطنية واجنبية
 - وبعده؟
 - وأكل نسوي .
 فكر حسين قليلاً ثم قال :
 - جيب لي بيك عرق .
 - بيك عرك عمي ؟ وكان يحرق باندعاش ممتعض .
 - وبعدين نتفاهم . وقابل النظرة المندهشة بنظرة حادة .
 - على كيفك عمي . ما دام بعدين نتفاهم .
 وذهب الساقى ليجلب المشروب . وعدل حسين من وضع السكين في حزامه
 - اخيراً قرر ان يضعها في حزامه بعد أن نقلها بين الحزام والجيب عشرين مرة - ونظر
 إلى هناك . كانت الغرفة الاخرى تبدو مظلمة فلم يستطع التعرف على المتكوريين
 في أحد اركانها . ولكنه كان يسمع ضحكات معريدة ، وغناء مكروباً ، ووشوشة
 اصوات .
 جاء الساقى بكأس العرق الفريدة ، وقدحاً كاملاً من الماء ، ومزة هزيلة .
 - ممنون عمي .
 أعجبه عمي كثيراً فناداه بعد ان ابتعد خطوات وقدم له درهماً كبخشيش
 - الله يطول عمرك ، عمي !
 تشجع ان يسأل :
 - من هذوله هناك !
 - جماعة ، عمي !
 - اعرف جماعة ، قابل عصافير .

- مشتريه، عمي .

- زين تفتهم .

وملاً كاسه بالماء إلى الحافة . وأكل باقلات ثم رفع كاسه، وشرب جرعة، ولذعته الخمرة فتعيس، نظر فيما حوله . لم ير الساقى كيف شرب الخمرة . كان وحده في الغرفة . هذا احسن . ومدّ يده إلى الحمص، وقبض باصابعه قبضة صغيرة، والتهم الحبات المالحة الهشة . ثم اتكأ على ظهر الكرسي الخيزران، وشعر بارتياح لذيذ . وبعد الجرعة الثانية فكر «لطيف واحد يجي هنا يوميه، ويتونس . . شيفيد القهر والحسبة» واكتشف لذة الخمرة بسرعة «اشولعد هواية يشربون عرك . . من هيچي!»

لمح شبهاً يتحرك في الغرفة الثانية ناهضاً من بين الجماعة، متهجاً إلى باب الغرفة . مال حسين برأسه ليخفي وجهه عنه . الا ان الرجل كان قصيراً، وابن الحولة طويل . طلع الرجل إلى الخارج . ورفع بنطلونه المتهدل، وتمخط، وصاح «يوسف! . . .» وجاء الساقى يركض . وتهامس الاثنان . ورأى الساقى يشير إلى حجرة . والرجل يلتفت وراءه، ثم يسير بمشيته المتفتحة .

بعد قليل تحرك شبح آخر من الحجرة . وشرب حسين جرعة أخرى للتشجيع . كان شيخ امرأة . وتلمس حسين صحن الباقلاء وعيناه معلقتان بالشبح . خرجت امرأة بدينة استقبلها الساقى وهمس لها بشيء . «معلوم جنابك!» قال حسين لنفسه، وهزّ رأسه مبتسماً . وفكر «سكر ونسوان» اكو أحسن منها! . . ويمكن بلاش! . . اشقيائية!» كان يحبس بالسكين يوخز بطنه، فرفعه قليلاً إلى صدره . وجاء الخدر النملي من رجله مصحوباً بنشوة رخوة في مفاصله ورأسه وفكر «يمكن أني هم أصير هيچي! . . بس خلي أظفره! . . اشكبري أصير! اقتل بن الحولة، اشقياء العوينه والمربعة وسكلات الخشب! اشقياء صبايغ الآل والصدريه وعكند الجاموس! . . اشقياء نص بغداد . . . وكل شي يصير بلاش . اخش للسينمات بلاش، للملاهي بلاش، للمطاعم بلاش، للارتيلات بلاش . . . خاوه! ويكدر واحد يهچي؟ . . لعد اسچينه شنو شغلها؟ محراث مال تنور؟ . . ياتنور هذا؟ ظل تنور؟ . . ظل شي بالدنيا غير أني والسچينه؟ تماضر وراحت، صاحب وراح، حوش وراح . . . وأنى؟ . . هم أروح . لا على بختك!» وضرب على المائدة .

في الاسفل رأى ثلاثة رجال صعدوا الدرج في كبكبة. وخرج الساقى لهم، وأشار إلى الغرفة التي يجلس فيها حسين. واتجهوا خطوتين، ثم عادوا وتحدثوا إلى الساقى، واتجهوا إلى الغرفة الثانية وقال حسين: «يمكن هاي الحجرة بارده. . يمكن ذبيجي أحسن. . للاشقيائية. . وأني اشوكت اصير اشقياء؟. . . اصطبرا» جاء الساقى دون ان يدعوه وقال:

- تؤمر شي عمي؟

- بنات!

- شكو منها؟. . اذا عندك فلوس

- لا، جبيلي نص ربع عرگ هسه!

وقبل ان يجتاز الساقى العتبة ناداه حسين وقدم له درهماً.

- تشكر، عمي.

- روح، اشتعل عمك الاصلي.

نظر اليه الساقى شزراً ثم انحنى له انحناء قصيرة. وانصرف. وفكر حسين «يعني شكلي ميخوف؟. . لو أشوفه ام الياي!»

صعد الدرج آخرون. أوف! . . راح يمتلي الحوش! ولكنه قال يسري عن نفسه «شكو منها؟ مو اليوم باچر! . . المهم أظفره فد يوم!»

جلس القادمون الجدد إلى مائدة وراء ظهره. وأحس انه مقيد تماماً. جاء الساقى بالعرق، ومزة أكثر. ووضعها على المائدة صامتاً.

خرجت المرأة البدينة من الحجرة، وهبطت الدرج بقباب رنّ في اذنه باغراء. وبعد دقائق خرج الرجل المنفوخ، وعاد إلى الجماعة وسمع حسين صوت هبلة. . ربما هي صوت كرسي يسقط هناك في الحجرة التالية. تحركت الاشباح وحدثت وشوشة. ثم نهض شبح طويل، واقترب من الشباك. وأطل من الباب.

كان ابن الحولة بعينه.

سار مترنحاً عبر الممر الضيق متكئاً على الدرابزين منحنيّاً عليه. كان أكثر من نصفه خارج الدرابزين.

ونادى بصوت خدر:

- لچ، ماري!

ولم تجب ماري، فعاد يناديها. كان سكران تماماً وجاء الرجل المتنفخ،

فأمسكه من يده يريد أن يدخله إلى الغرفة، فسحب ابن الحولة يده، فخفقت في الهواء مثل جناح طائر.

وقال حسين لنفسه «يمكن ما راح يخلوه وحده اليوم... سكران، غادي بخته!»

استطاع الرجل ان يعيد ابن الحولة إلى الحجرة. وشعر حسين بفرح غريب. ونظر إلى الزجاجة، وهم أن يشرب ثم أحجم. وقال معتزاً بصحوه «أخاف أني هم اسكر؟ اطوطح!» ولمس الزجاجة بتوجس، وصب منها قدراً ضئيلاً، وملأ القدح كله بالماء. «هذا عن العين!» قال لنفسه «حتى ليكولون يخاف من العرّك... من أكبر واحد ما خاف» وشعر بنوبة شجاعة طاغية تغلي في اعماقه «اليوم ما جوز الا اقتله... هذا شنو المخنث؟... يگول عليّ مخنث... أنعل ابوه لابوشرفه... أني مخنث؟»

رأى في الحوش امرأة أخرى غير المرأة السمينة. فتاة نحيلة هيفاء ذات شعر لامع مصقول. وقال لنفسه «هاي تسوه!» قالها بصوت خافت ولكنه مسموع والفت إلى المائدة وراءه باسماء. ولم يجد احداً ينظر اليه. وأعتدل وقال بلا صوت «هاي تصير إلى اذا قتلته لمحمود... هاي بمكان تماضر... وتذكر الفتاة التي لفت له الثوب في اورزدباك، وتذكر بسمه الاستلطاف في عينيها. وقال «يمكن لو ما مستعجل چان حاجيتها... يمكن چان قبلت تصادقني... خليها!... اروح عليها فد يوم... وفد يوم أروح على نشمية، وأجر عليها السجينة... هي... كلکم غنم... بس خلي اجر السجينة على محمود أول مرة، خلي أطبره... اخذ حيف صاحب منه... يمكن من يعرف صاحب وهو بگبره يفرح... الميتين كل شي يعرفون... زين ابويه اشلون عرف لما بيعت الحوش وجاني بالحلم أوله البارحه؟... الميتين يعرفون كل شي... يمكن الله يعلم هسه صاحب د يعاين عليّ اشلون دا اشرب العرّك... ابو مهدي أني دا اشرب على مودك. عن اذنك. گلت لك فد مرة ما راح اشرب... هاي أول مرة. وعلى مودك حتى اتشجع وانتقم لك من الاغبر الغدار، من ابن الحولة، ابن العورة، ابن الكعبة، ما خليه سايب... مثل ما قتلك اقتله!»

تناول جرعة من قدحه، وأكل من المزة الجديدة. كان يحس بالجوع. ولكن الساقى غير موجود. وسمع الذين وراءه يتحدثون عن الريسز... شلال طلع سبعة

كأصر... حصان الوصي. وكان يسمع صوت القبقاب في الحوش. أطل فرأى
السمينة تبختر، ووراءها اليتاها تصعدان وتنزلان. وشهاه ذلك بجرعة. وبدأ رأسه
يئز. ولأول مرة اشتهى أن يدخن سيكارة. النف وراى الاربعة وراءه يدخنون.
- بله... ممكن آخذ فد جيكااه؟

- تفضل - قال احدهم وحده الآخر بنظرة نارية.

وفكر حسين وهو يعود إلى مكانه «لازم آني سكران... الويش عاين
علي؟... ما عاجيه؟...» وتناول مصات متوالية من السيكاارة، بعد أن وضعها
بين ابهامه وسبابته. ومن خلال الدخان رأى القامة الطويلة على الدرابزين مرة
أخرى. تحركت القامة نحو الدرج متمائلة. «لازم رايح على ماري! - قال حسين
لنفسه - ما قبلت تجي راح عليها. لازم سيجيته مو هلكد حادة... لو سكران
كلش... والسكران كلش ميخوف... خرگه... أكو واحد يخاف من الخرگه؟»
وانتظر أن يخرج الرجل الآخر ليعود بمحمود. ولكنه لم يخرج. وجاء الساقى بمزة
جديدة. ولما وضعها على المائدة سألها حسين:

- وين المبولة؟

- جوه الدرج

ورأى الساقى يحده بنظرة مريبة. فقال لنفسه «خاف انهزم وما ادفع
الحساب!» وناداه. وقدم له نصف دينار. وقال:
- اخذ حسابك!

كان محمود بن الحولة في الحوش يجز ماري من يدها. فكانت تدفعه
فيتمايل... خرگه! وفلتت منه ماري وارقت الدرج بخفة غزال سمين. وتركت بن
الحولة وحده يتمايل وسط الحوش. كلما همّ برفع بصره تمايل.
تحرك ابن الحولة نحو الدرج بينما وصلت ماري إلى الطابق، ودخلت
الحجرة الأخرى راكضة، وكان حسين يتوقع أن يصعد محمود أيضاً. ولكنه لم
يصعد. تريث حسين دقائق أخرى. ثم نهض وغادر الغرفة. وجرب أن يقبض على
السكينة قبل أن يهبط الدرج. ثم توقع أن يراه تحت الدرج مباشرة. وقف لحظة يفكر
ماذا يفعل لو رآه وجهاً إلى وجه «اسلم عليه أو أخنزر بوجهه؟!» ثم قرر أن يقفز
الدرجة الأخيرة بسرعة ويتجه نحو الباب كمن يهيم بالخروج. وقفز وابتعد خطوات.

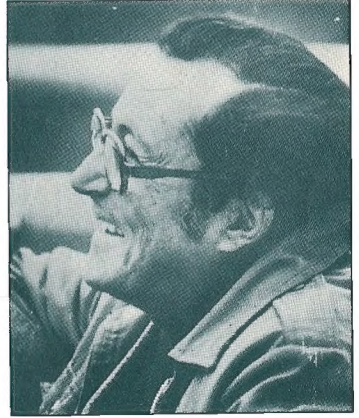
ثم تباطأ ولم يشعر بأية حركة خلفه. التفت قليلاً وعاین من تحت ذراعه التي تظاهر بأنه يحك رأسه بها. واستطاع أن يرى البقعة القريبة من الدرج. لا أحد هناك. وتوقف. وقال «أشوبيا حجرة دخل.. يمكن حصل ذيجي البنية!» وشعر بانفراج. واتجه نحو المرحاض وبدأ يفك ازرار بنطلونه هادئ الاعصاب مردداً في سره «الملعون راح يفلت، الملعون فلت!» ودخل المرحاض وجفل وأرتد. رأى محموداً يتقيأ في المغسلة مديراً له ظهره، مستنداً بيده كليهما على الحائط. وامتلأ جسم حسين بالالاف من الابر الدبقة الحارة توخزه وتثير اعصابه. واسند جسمه على حائط المرحاض وقال لنفسه «أسويها؟.. أسويها؟..» ونظر فيما حوله. كان الحوش صامتاً كما كان.. واشعره ذلك برباطة جأش... أسويها؟.. غادي بغل! ومن هنا تبدأ القصة. كان قلبه يدق بوحشية، ويده ترتعشان. دفع بهما الحائط وضغط على اعصابه، ودخل المرحاض ثانية.

كان محمود ما يزال يتقيأ مديراً له ظهره. تقدم حسين خطوة. وكان يقبض على السكين وهو في حزامه. وأخرجه بحركة سريعة راعشة. وسحب الياي. وبحركة واحدة لا تدبير فيها رفع السكين وأنزله بقوة على الجسم المنكفي على الحائط في مكان ما اسفل الرقبة. وندت من محمود «آخ» قصيرة خافتة وحشية. ثم «هوه!..» طويلة خيل إلى حسين أن الفندق كله قد سمعها. وكان ذلك كافياً لأن يملأه برعب هستيري فظ. وضرب ثانية باستماتة وهوس وشراسة. وحرك محمود ذراعه إلى الوراء فمرت فوق رأس حسين. وانزلت الذراع الاخرى من الحائط إلى حوض الغسيل. وانكفأ ابن الحولة على المغسلة وفلت السكين من يد حسين، وتحرك باتجاه حركة جسم بن الحولة، فاندفع حسين نفسه بحركة متخبطة وأخرجه من الجسم، وضرب ضربته الثالثة على العنق. وملأ الدم كفه، وجعله يضرب كالمجنون في مكان واحد من الرقبة التي بدت هشة بضرباته. ولم يعأ بقطرات الدم التي علقّت في جفنيه حتى سقط محمود على الأرض المبللة القذرة. عند ذاك فقط افاق حسين من تلك النوبة الميكانيكية التي سيطرت عليه، وحولته إلى يد ضاربة فقط. والتفت صاكاً على اسنانه متوقفاً ان يرى اناساً سمرهم الخوف في اماكنهم وجعلهم ينظرون فقط. ولكنه لم ير الا مستطيل الباب وجانباً من ارض الحوش الفارغة. وملأه ذلك شجاعة. وقال في نفسه «اللي يدخل يطبر». ولم يدخل أحد. ومسح الدم من جفنيه فتلّزج في يده وعينيه وغطى على بصره. اندفع

إلى المغسلة كالمجنون، وغسل الدم من عينيه. وزالت السحابة الحمراء. كان محمود يرسل نخيراً مثل خروف مذبوح وذلك ما ملأ حسين رعباً. وجعله يفكر بالهروب. وضع السكين في جيبه دون ان يطبقه وضمه في يده. وتقدم من باب المرحاض. كان الحوش صامتاً. وكان المجاز امامه. اجتاز الحوش بخطوات سريعة وتعثر عند باب الفندق. ولكنه نهض وعبرها.

«انتهت»

١٩٦٤



غائب طرفة عين

الأعمال الكاملة

- ١ - النخلة والجيران
- ٢ - خمسة أصوات
- ٣ - المخاض
- ٤ - القربان
- ٥ - ظلال على النافذة
- ٦ - آلام السيد معروف
- ٧ - المرتجى والمؤجل
- ٨ - حصيد الرحى
- ٩ - مولود آخر